مُشكلةُ الحُكمِ في الإسلامِ
بعدَ وفاةِ الرّسولِ

«دِراسةٌ للمؤشّراتِ الفاعلةِ في مرحلةِ الأصولِ»

د. نبيه عاقل

جامعة دمشق

ليس المقصود من هذه الدراسة ان نعيد سرد المعروف المتداول من اخبار حول وفاة الرسول الكريم وشغور منصب الرئاسة الدنيوية للمجتمع العربي المسلم ، وكيف آل الامر الى تولية أبي بكر منصب خلافة المسلمين ، فهذا مما تداولته الاقلام وسودت بأخباره صفحات طوال . ولكن المقصود هو البحث في التيارات التي كانت تعتمل في النفوس بعد نشوة النصر الكبير الذي حققه الاسلام ، والذي غدا بعد ذلك حقيقة تفرض وجودها بقوة العقيدة وصلابة المنافحين عنها والمؤمنين بها من جهة ، وبانتصار السيف الذي جرد لحمايتها وفرضها على من عاند من جهة اخرى . فقد ظل الاسلام في مكة ، كما هو معروف ، ما يزيد على اثنتي عشرة سنة يرفع شعار « وجادلهم بالتي هي أحسن » ، ويستعمل الحجة والمنطق في دحض مزاعم قريش وابراز تهافت دينها وتفسخ مجتمعها ، والتناقضات التي تزخر بها حياتها اليومية ، دونما جدوى . ولم يتحقق النصر للاسلام كعقيدة وكدولة الا حين وقف السيف ينافح عن العقيدة ويدعم حجتها بحد سنانه . وقد كان في هذا مؤشر هام لمن غدوا بعد انتصار الاسلام في الفترة المدنية في الصف الاول من مقاعد السلطة ، وشعروا أنهم الركن الاساسي في قضية مستقبل الدولة بعد أن ينتقل الرسول الى جوار ربه ، لاسيما وان هذا الامر لم يبحث أو يثر في حياة الرسول وظل سؤالا حائرا دون جواب في ضمائر الفئة التي كانت تعرف باسم الصحابة ، من مهاجرين وأنصار ، لانها لم تكن تجرؤ على طرحه صراحة في دولة دينية يأخذ فيها نبي مرسل بزمام السلطة في المجالين الديني والدنيوي .

ولما انتقل محمد الى جوار ربه فتح الباب واسعا امام رؤوس الجماعة الاسلامية ليعلنوا ما كانوا قد أسرّوه في حياته ، وغدت مشكلة : لمن الامر بعد محمد ؟! الشغل الشاغل لهذه الفئة منذ أن سجي الرسول على فراش الموت في بيت عائشة .

وكانت ردود الفعل التي تعبر عن مصالح وتطلعات كل فئة من الفئات التي كانت تتمثل في مجتمع المدينة مستقر السلطة ، وفي بقية ارجاء الجزيرة العربية التي جاءت مبايعة في عام الوفود . وهنا ، وفي تحديدنا للمسار الذي ستأخذه الاحداث والعوامل الفاعلة فيها ، لابد من وقفة لتثبيت بعض الحقائق التي سنعتمدها أو نذكر بها في هـذه الدراسة :

١ ـ الاسلام في الاصل دين انزل « ليخرج الناس من الظلمات الى النـور ولتخليص الناس من الشرك وهدايتهم لعبادة الاله الواحد » . فهو بهذا المعنى سلوك وعبادات ومعاملات تكفل لمن يؤديها على وجهها الاكمل سعادة الدارين . ولم يغـد الاسلام دولة بالمعنى الدقيق للكلمة الا بعد عهد الراشدين . وهنا أود أن أؤكد حقيقة يتناساها البعض وهي ان الاسلام كدولة تمارس سيادتها وتفرض قوانينها في المجالات الادارية والسياسية والدولية والاقتصادية والقضائية وسواها ، كانت بداياتها من صنع الصحابة الاول الذين آل الامر اليهم وغدوا قادة دولة فحسب ، بعد أن توقف الوحي بوفاة الرسول . وقد جوبهت دولتهم بما تواجه به اية دولة من أمور ومشاكل لا بد وان تنتظمها قوانين ، وبما أن هذه القوانين لا بد وان تنسجم مع الخطـوط العريضة التي طرحها الاسلام في القرآن الكريم ووجدت تطبيقا فيما قاله الرسول أو فعله أو أقره (السنة) ، فقد قاسوا الاشباه على النظائر واجتهدوا وقرروا مـا قرروه من قواعد وسنن . واضيف الى اجتهادهم فيما بعد آراء الفقهاء والائمـة ، واتخذت المذاهب شكلها عند أهل السنة على الشكل الذي حددته المذاهب الاربعة . وهكذا فان الادعاء بأن دولة الاسلام التي قامت فيما بعد هي دولة الرسول ادعـاء باطل ، ولا بد من التأكيد على حقيقة الدور الفكري الكبير الـذي كان للصحابة والتابعين وائمة المذاهب الاربعة في صنع هذه الدولة والتشريع لها .

٢ ـ ان مبدأ قرشية الخلافة الذي اسفر عنه اجتماع سقيفة بني ساعدة لا يفهم الا من خلال شرح مفصل للتركيب السكاني لمجتمع المدينة عند وفـاة الرسول ، واستقصاء لجذور هذا التركيب وهويته والعوامل الفاعلة فيه ، منذ الفترة السابقة لهجرة الرسول الى يثرب ، والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والبشرية لهذاالمجتمع قبل الهجرة ، وما طرأ على هذه الاوضاع خلال الفترة المدنية من حياة الرسول .

٣ ـ ان التيارات التي ظهرت في السقيفة لم تكن وليدة ساعتها وانما كانـت تعبيرا عما يعتمل في النفوس ومتنفسا لشكاوى لم يتح لها ان تعبر عـن نفسها خلال حيـاة الرسول .

٤ ـ ان كل دراسة لمشكلة الحكم في الاسلام بعيدا عن البيئة الطبيعية والاقتصاد الرعوي لبدو الجزيرة ، وانعكاس كل ذلك على أوضاعهم الاقتصادية وتطلعاتهم السياسية ، دراسة ناقصة ، لما كان لهؤلاء البدو ذوي التقاليد والمواصفات المستمدة من بيئتهم من دور في نشر الاسلام واقامة دولته ، بعد ردتهم عنه ومحاولتهم اسقاط دولة قريش بزعامة أبي بكر الذي تسلم مقاليد الامور بعد وفاة الرسول .

بعد هذا ، واذا تجاوزنا الفترة المكية من حياة الرسول الكريم التي شغلتها احداث الدعوة للاسلام ومعارضة قريش لهذه الدعوة ، وانتقلنا الى الفترة المدنية التي غدا الرسول في نهايتها السيد الاوحد وصاحب الكلمة الاولى في مجتمع يوحده الاسلام على السطح وتعمل فيه تيارات مكمنة ، فيها شيء كثير من ارث الماضي بالنسبة للجماعات البشرية المختلفة التي كانت تسكنها قبل الاسلام ، هذا فضلا عن الوافدين الجدد الذين عرفوا باسم المهاجرين ، واذا ما أضيف الى كل ذلك بعض مما علق في النفوس من آثار بعض الاحداث التي جرت بعد الهجرة النبوية الى هذه المدينة ، لوجدنا في كل ذلك خلفية تساعدنا على فهم مسار الاحداث التي بدأت والرسول لم يوار التراب بعد .

فيثرب كانت في تاريخها السابق على الهجرة مجموعة من المنازل والاطام والمزارع والبساتين ، تقوم في واحة أو أرض خصبة نسبيا ، تبلغ مساحتها ما يقارب العشرين ميلا مربعا ، وتحيط بها التلال والصخور والارض المحصبة التي لا تصلح للزراعة .

وكان القسم الاكبر من سكانها يعرفون باسم بني قيلة ، وهو تجمع قبلي كبير يضم قبيلتين هما الاوس والخزرج ، اللتين كان لكل منهما عدد من الفروع والبطون . وتذكر المصادر أن الاوس والخزرج من عرب الجنوب هاجروا الى يثرب وسكنوا بعضا من أراضيها غير المأهولة ، ودخلوا في خدمة القبيلة أو القبائل التي تقطنها ، ثم ، ومع مرور الزمن ، وبسبب من كثرتهم وقوتهم ، استطاعوا أن يغتصبوا السيادة من سكانها الاصليين ، وأن يغدوا سادتها الجدد . وقد حدث ذلك ، على راي اغلب الباحثين المحدثين ، في منتصف القرن السادس الميلادي ، أو بعيد ذلك بقليل .

وكان من بين القبائل التي سبقت الاوس والخزرج في سكنى يثرب قبيلتان تدينان باليهودية هما : بنو قريظة وبنو النضير . وقد أقامت هاتان القبيلتان في الجزء الخصيب من أرض يثرب ، وعاشوا حياة مستقلة عن القبيلتين العربيتين الوافدتين . وضمت يثرب زمن الرسول قبيلة يهودية ثالثة هي قبيلة بني قينقاع ، وكانت أقل نفوذا من زميلتيها ، كما ضمت فئات عربية غير الاوس والخزرج ، وربما كانت بقايا السكان العرب الذين كانوا يقطنونها قبل وصول اليهود اليها .

وكان بين الاوس والخزرج نزاعات كثيرة وحروب طويلة ، كان اخرها يوم بعاث الذي وقع قبل هجرة الرسول بأعوام قليلة ، والذي أقام نوعا من التوازن القلق بين القبيلتين ، لأن الحرب كانت قد أجهدت كلا من الفريقين ورغبا في الخلاص منهما .

وهكذا كانت يثرب تعيش أزمة مماثلة لازمة مكة ، سببها ان الفئة العربية من السكان كانت تشعر أن المثل العليا السائدة في المجتمع ، ولا سيما في الميدان الديني ، مثل لا تتناسب ومعطيات العقل المفكر الذي يزن الامور بموازين الحضارة ، لا البداوة الجاهلة . وقد ساعد على هذا الشعور بعدم جدوى أو قصور الديانة الوثنية عن متطلبات العقل ، وجود اليهود الموحدين الى جانبهم ، وما كان ينتج عن الاختلاط بهم والنقاش معهم من شكوك لا تنفع في الاجابة عليها نظريات الديانة الوثنية . ووجه اخر للازمة التي كانت تعيشها يثرب قبل هجرة الرسول اليها ، هو وجه اقتصادي ، سببه ازدياد مستمر في عدد السكان لا يجاريه ازدياد مماثل في مخزون الطعام ، وقد ترتب على المنازعات المسلحة التي كانت تجري بين سكان يثرب ان المنتصرين كانوا في كثير من الاحيان يحتلون أرض المغلوبين اذا كانت أكثر خصبا من أرضهم ، حتى يؤمنوا لانفسهم موردا للطعام أفضل أو اقدر على سد احتياجهم . وحين كانت تنتهي الحروب بينهم دونما نتيجة حاسمة ، كما حدث يوم بعاث مثلا ، كان على أصحاب الارض الخصبة أن يظلوا حذرين وعلى أهبة استعداد للدفاع عن أراضيهم اذا ما هاجمها مهاجم بقصد استخلاصها والافادة من خيراتها لقوت عياله . وقد ادى اتساع هذه المشاكل المتعلقة بالاراضي الخصبة وما كان يجري حولها من مخاصمات الى اهمال الناس العناية بأراضيهم ، فقل محصولها مع الزمن ، وازدادت الازمة التموينية حدة ، وغدت الارض المنتجة عرضة لشريعة الغزو ، التي هي في الاساس مظهر من مظاهر عدم الكفاية الغذائية في الصحراء ، هذه الشريعة التي ظلت سائدة في يثرب ، وتنطبق على الارض الزراعية لا على المنقول فحسب ، كما كانت الحال في المجتمعات البدوية . وطبيعي أن تنطبق هذه الشريعة ايضا على قطعان الماشية وأن يتعرض هذا الصنف من الثروة الخاصة الى خطر السلب ومحاولة الاستيلاء القسرية. وقد زاد هذا النوع من الاصطدامات من مشاكل يثرب ، لاسيما وأن صغر رقعتها وتشابك مصالح الناس فيها سيؤديان حتما الى حال من المنازعات الدائمة .

وكانت النظم الاجتماعية في يثرب مشابهة تماما للنظم السائدة في المجتمعات الصحراوية . فكانت العصبية القبلية أساسا أوليا من أسس العلاقات بين أفراد المجتمع ، وكان الثأر والدية شريعتين هامتين من شرائع العمران البشري عندهم . وقد أدى هذا التضامن القبلي الى صيرورة مهمة الدفاع عن الممتلكات الشخصية مسؤولية الجماعة القبلية بكامها ، لا مسؤولية الفرد وحده . واذا كان مقبولا أن

تتولى القبيلة ، ككل ، في مجتمع صحراوي مهمة الدفاع عن ممتلكات فرد من أفرادها اعتدى عليه ، فان هذا الواجب ليس بالسهولة نفسها في مجتمع مستقر وصغير الرقعة نسبيا كيثرب ، لان مجالات الاصطدام يومية ومتكررة ، لاسيما اذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكرناه آنفا من قلة في المخزون الغذائي ادت بالضرورة الى غزو دائم للممتلكات الفردية بقصد الحصول على ما عند الغير من موارد غذائية لا تتوافر عند الغازي . ومعروف ان المجتمعات المستقرة لا تحتاج الى عصبية قبلية لضبط شؤونها وجل ما تحتاجه هو راس مدبر واحد يتولى مقاليد الحكم ويتصرف فيما يعرض بين الناس من مشاكل .

ولم تقم مشاكل مماثلة لهذه المشاكل في مكة وذلك لان العمل في التجارة هناك امن للناس موردا للرزق جعلهم في غنى عن الاعتماد على منتوج الارض من الغذاء ، وبالتالي الفي من المجتمع المكي المستقر شريعة الغزو الصحراوية . وقد أدت وحدة المصالح التجارية لقريش ككل الى وحدة قبلية لم تنعم بها القبيلتان الكبيرتان اللتان كانتا تسكنان يثرب ، فالتناقضات بين الجماعات المكونة للمجتمع اليثربي ، وعدم وجود عامل موحد يجمع شتات الناس (كالتجارة في مكة مثلا) أدت الى قيام ما تحدثنا عنه من صراع واصطدامات دائمة بين سكان هذه المدينة . يضاف الى ذلك ان الاسرة في المجتمع الزراعي هي الخلية الضرورية للانتاج ، في حين ان مجتمعا ، كمجتمع مكة ، يعمل أفراده بالتجارة ، يحتاج بالضرورة الى التضامن القبلي . لهذا كله كان التضامن القبلي في مكة اوضح منه في يثرب . وأيا كانت الاسباب ، فان المجتمع اليثربي قبل قدوم الرسول اليه كان مجتمعا منقسما على نفسه ، تتقسمه الحزازات وتنخره امراض كثيرة أهمها فقدان الوحدة بين عناصره المختلفة . واذا كانت هذه الفرقة وعدم وحدة الصف هي التي مهدت الارض لحسن استقبال الرسول ، فان الخوف من تصدع الصف المكي وانقسام الناس الى شيعتين أو فريقين دينيين كانا من أبرز العوامل التي دعت المكيين الى حربه واعلان العداء له . وفي هذه الفرقة في الصف التي كانت تعاني منها يثرب قبل الاسلام ، ووحدة الصف القرشي المبنية على المصلحة المشتركة التي كانت سمة مجتمع مكة قبل الاسلام ، نجد الخلفية التاريخية لفرقة الصف بين جماعة الانصار في اجتماع السقيفة بعد وفاة الرسول ، وحين كان امر خلافته يقرر أو يحسم الى الابد ، ووحدة الصف القرشي في هذا الاجتماع ، التي انتهت باقرار مبدأ قرشية الخلافة .

★ ★ ★

ويهاجر الرسول الى المدينة على الوجه المعروف بعد بيعة العقبة ، فيجتمع فيها بعد وصوله اليها جماعتان كبيرتان من الناس : جماعة المسلمين وجماعة غير المسلمين . اما المسلمون فكانوا فئتين : الانصار ، أو المسلمون من الاوس والخزرج ، والمهاجرون ، وهم المسلمون المكيون الذين هجروا مدينتهم وانتقلوا للسكن مع الرسول في المدينة المنورة . اما غير المسلمين ، فكانت غالبيتهم من اليهود ، وبينهم بعض المشركين من الاوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الاسلام ، وفئة المنافقين الذين كان ولاؤهم ظاهريا ، وله بعض الاهداف الكيدية .

وكان على الرسول الذي لم يكتب لدعوته النجاح في مدينته الام ، ان يواجه ظروفا صعبة في دار هجرته . ويلخص فرانشيسكو غابرييلي هذه الصعوبات التي واجهت الرسول في مستهل هجرته بقوله : « لقد كان النصر الذي سعى اليه الرسول، ومركزه كنبي صاحب سلطة دينية ورئيس دولةفتية انشأها هو ، نصرا بطيئاومحفوفا بالمصاعب الكثيرة التي يثيرها ضده اعداء ظاهرون ومستترون . لقد كان المكيون اعداءه الظاهرين ، وكان عليه ان يواجه الاعيب سياسية ومؤامرات كثيرة تدبر في الخفاء من قبل الفئات المختلفة التي تسكن المدينة »(١) . وفي هذا القول صحة وصدق، اذ أن محمدا لم يكن في الايام الاولى من هجرته الى المدينة الرجل المطاع الاوحد الذي لا ينازع سلطته منازع . واذاصحت هذه الصفة على الفترة المتأخرة من وجوده في هذه المدينة ، فانها لا تصح على أيامه الاولى منها . لقد كان أول الامر لا يملك السيادة الا على الجماعة التي آمنت به ، من مهاجرين وانصار . وكان عليه ان يقوم بجهد كبير في ميدان الدعوة الدينية بين اولئكالمدنيينالذين لم يقبلوا الاسلام كدين . وقد اثمرت جهوده في هذا الميدان بسرعة وانضمت اغلب الفئات التي لم تعتنق الاسلام الى هذا الدينفياقل من عام بعد بدء الهجرة . وطبيعي انا نقصد بهذه الفئات المنافقين الذين اعتنقوا الاسلام ظاهريا وحاربوه حربا مقنعة تبعا لمصالحهم ، كما نقصد بعض الاشخاص الذين تشبثوا بموقفهم المعادي واستمروا يعارضون الرسول ويرفضون الاسلام كأفراد . واشهر مثال على هذا النوع الاخير من المعارضين سيد من اشراف الأوس هو ابو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان ، الذي كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب . ويمثل أبو عامر فئة مدنية أشد تطرفا في عدائها للاسلام من فئة عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين . فعبد الله بن أبيّ لم يجرؤ على معاداة الاسلام جهارا ، بل تستر باسلام ظاهري وكاد للاسلام تحت ستار من ايمان زائف . وقد يجد المرء له عذرا في ذلك لان الاسلام وقدوم محمد الى المدينة حرمه من ملك كان يعد نفسهله ،فلما رأى قومه « قد أبوا الا الاسلام ، دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن »(٢) اما أبو عامر فقد اندفع في عداء الاسلام من موقف عقائدي

على حد زعمه ، ودخل مع الرسول في نقاش طويل حول الاسلام الذي يبشر به الرسول وصلته بالحنيفية ، دين ابراهيم ، الذي يزعم انه يدين به ، وان الرسول « شوهه » وأبعده عن « نقائه الاول » . وقد وصل عداؤه للدين الجديد الى حد القيام بهجرة معاكسة ، فكما أن الرسول ترك مكة وهاجر الى المدينة ناجيا بدين الله ، هاجر هو من المدينة موطنه الاصلي الى مكة ، حيث لا سلطان لمحمد . وحين فتح الله مكة على يد الرسول الكريم تركها الى الطائف ، فلما أسلم أهلها لحق بالشام حيث مات طريدا غريبا وحيدا(٣) . ولم يكن أبو عامر وحده في هذا الموقف ، فقد هاجر معه من المدينة الى مكة بضعة عشر رجلا مفارقين للاسلام ورسوله ، كما هاجر معه الى الشام عدد منهم بعد نصر الاسلام الكامل على الجزيرة العربية .

والى جانب هذه الفئات العربية التي واجهت الرسول بمعارضتها ودسائسها حين قدم الى المدينة ، وظهر بعض من آثارها في اجتماع السقيفة بعد وفاته ، كانت الجماعات اليهودية التي ادركت أن قدوم الرسول الى يثرب هو فاتحة عهد جديد ، لن تكون لهم فيه الكلمة الاولى ولا المكان القيادي ، فعملوا ما وسعهم العمل للتخلص منه والايذاء بحياته . ولكن نصر الله لرسوله كان لكيدهم بالمرصاد .

ولسنا نريد ان ندخل في مزيد من تفاصيل المعارضة التي لقيها الرسول في يثرب قبل توطد نفوذه فيها ، أو الاسهاب في ذكر العناصر التي ناصبته العداء وأسبابها في ذلك ، لان هذا يخرج عن الاطار المقرر لبحثنا ولا يندرج تحت عنوانه ، الا بقدر ماكان لهذه المعارضة الاولى من صلة نسب مع التيارات التي عبرت عن ذواتها حين طرحت مسألة الحكم بعد موته ، والتطور الذي دخل على هذه المعارضة الاولى بعد ان قامت ظروف جديدة ثبتت حقيقة اساسية ، تتلخص في انه لا جدوى من معارضة بعد اليوم لا تقوم على اساس من الدين الجديد ، وان كل تمايز وتفاضل ودعوى في الاحقية يجب ان تجد سندا ومبررا لا يخرج عن الاطار الاسلامي ، الذي ثبت وجوده بقوة الاقناع حينا ، والسيف أحيانا . ورغم أهمية المعارضة التي واجهها الرسول من بعض العناصر السكانية في يثرب ابان وصوله اليها ، فقد ظلت المشكلة الاهم والاكثر الحاحا مشكلة اقتصادية نبعت من واقع اصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة وغادروها مملقين لا أمل لهم في العودة أو استرداد ما يملكون . واضطر النبي في سبيل حل هذه المعضلة ان يعمل بنظام المؤاخاة الذي هدف ، الى جانب حل المشكلة الاقتصادية ، الى تحسين الرابطة بين المهاجرين والانصار ، وتوكيد وحدة المجتمع الاسلامي في المدينة ، بشقيه : الانصار والمهاجرين . حتى ان نظام المؤاخاة ، على ما تذكر المصادر ، نص على حق التوراث بين المتآخين دون الارحام(٤) . وعلى الرغم من ان العمل بهذا النظام قد اوقف بعد غنائم بدر ، وما أفاء الله على المسلمين من غنائم واموال سدت عوز المحتاجين ،

فانه يبدو واضحا ان الهدف الآخر ، وهو هدف تحسين الصلة بين شقي الجماعة الاسلامية ، ظل دون المستوى الذي كان يريده له صاحب الرسالة وسيد الجماعة ، وأطل برأسه واضحا قويا حين انتقل الى جوار ربه .

واذا تجاوزنا ما لقيه الرسول من معارضة بعض الفئات في المدينة ، والمصاعب الاقتصادية التي عاشها بعض من صحابته ، لوجدنا أنه بعد ان وطد الامور وذلل هذه الصعاب ، كانت تنتظره مهمة أصعب ، وهي وضع الأسس التي لابد منها لتنظيم العلاقات بين هذه العناصر السكانية التي لا تجمعها وحدة عصبية أو وحدةعقائدية ، أو حتى وحدة المصلحة . وقد عالج الرسول الكريم هذا الوضع في الكتاب الذي كتبه وحدد فيه صورة العلاقات في المجتمع العربي الجديد بفئاته المختلفة ، وما يترتب من حقوق وواجبات على كل فئة من هذه الفئات . ورغم انه لا يدخل في نطاق هذا البحث دراسة كتاب الرسول ، الذي حفظ لنا ابن هشام نصه كما أورده ابن اسحق في سيرته ، الا ان المهم ان نلاحظ ان هذه الوثيقة التنظيمية الاولى التي أصدرها الرسول ، لا بوصفه نبيا مرسلا فحسب ، بل كرئيس لدولة يتباين أفرادها في الانتماء القبلي والعرقي والعقائدي ، أحلت في المحل الاول من اهتمامها وركزت تركيزا شديدا على فكرة الولاء للدولة ، بقطع النظر عن الاصول العرقية والعقائدية للافراد والمجموعات التي تعيش في كنفها ، وان رئيس الدولة هو المرجع الاعلى والحكم الذي لا يخالف في كل ما يعرض من خلافات أو أمور بين أفرادها في الداخل ، وبينها وبين القوى التي تناصبها العداء في الخارج. كماتوضح الوثيقة فيماتوضح ان مسؤولية المواطنة مسؤولية لاتتجزأ ، وان الولاء للدولة أولا وقبل كل شيء ، وبقطع النظر عن المعتقد الديني . ومن هنا فا ن المدينة اذا ما تعرضت لخطر خارجي فان مسؤولية الدفاع عنها لا تقع على عاتق العنصر العربي ، مسلمهم وغير مسلمهم ، ولا على عاتق المسلمين منهم ، انصارا كانوا أم مهاجرين ، فحسب ، بل تقع أيضا على عاتق سكانها اليهود ، غير العرب وغير المسلمين(٥) .

وهكذا فقد كان أول دستور مكتوب لدولة اسلامية يحرص اشد الحرص على :

١ ـ سيادة الدولة على جميع مواطنيها وضمان ولائهم التام لها .

٢ ـ المسؤولية الجماعية لكافة العناصر السكانية للدولة عن امن الدولة في الداخل والخارج بقطع النظر عن أصولها العرقية أو معتقدها .

٣ ـ سلطة رئيس الدولة التي لا تنازع ، واعتباره صاحب الحق الوحيد في القرار .

واذا كان المقصود من كل ما سبق ان نذكر بالخلفيات ومواصفات الاسس التي

قامت عليها الدولة الاسلامية زمن الرسول ، فان الحديث عن مشكلة الحكم بعد وفاته يقتضي منا ان نطوي صفحة السنوات العشر التي كان الرسول فيها رأس هذه الدولة، وان نبدأ مع اليوم الذي سجي فيه صلوات الله ميتا في بيت عائشة ، فطرح السؤال الكبير : من بعد محمد ..؟

لم يكن موت محمد موت انسان عادي ، بل كان موت نبي وزعيم ، وقائد ومشرع. أو قل من كان يجمع في شخصه رسالة السماء ومسؤولية الحكم في الارض . واذا كانت رسالة السماء لا تورث ، وانتهت كما أعلن الرسول نفسه في حجة الوداع ، فان مسؤولية الحكم في الارض أمر مفروض ، بل لابد منه ، اذا أريد لهذه الرسالة أن تستمر ولتعاليمها ان تكون اطارا وهاديا للحياة الناس . واذا أضيف الى هذا ان ما كان بين أيدي الناس من نصوص وأوامر لا تحدد ، بشكل قاطع وصريح ، الطريق الذي يجب ان يسلك لحل هذه المعضلة ، فان الأمر يغدو أشد تعقيدا ويترك المجال واسعا للتأول والرأي والاجتهاد . فما عدا العموميات التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف (وأمرهم شورى بينهم ... وشاورهم في الأمر ... ان أفضلكم عند الله اتقاكم .. الى غير ذلك من عموميات مشابهة) ، لم يكن هناك نص صريح يحسم هذا الامر . ولم تكن العودة الى الماضي والاهتداء بتقاليده ممكنة ، لان القبائل العربية انذاك كانت تعيش مرحلة جديدة من حياتها ، غدت فيها نواة الجماعة الاسلامية ، فلم يكن باستطاعتهم ان يعودوا الى تقاليدهم القبلية واعرافهم الموروثة ليجدوا فيها الجواب على ما هم فيه من أزمة اختيار الخلف للقائد الراحل ، وليس بين مؤسساتهم القبلية القديمة ، والمؤسسات التي أرساها الاسلام وجعلها دستورا ومثلا في الحياة والعمل ، من قواسم مشتركة يمكن اعتبارها الناظم والمخرج من الحال التي واجهتهم بعد خلو مقعد الرئاسة ممن شغله رسولا نبيا ، وراعي امة في شؤون الدنيا والمعاش . فمحمد ليس بشيخ قبيلة تتبع في انتخاب خافه القواعد التي كانت تتبع في انتخاب خليفة الشيخ القبلي المتوفى . كما أنه خلال الفترة القصيرة التي كان فيها طريح الفراش لم يوضح أو يشر الى الاسلوب أو الطريقة أو الشخص الذي يجب أن توسد اليه الامور بعده . لهذا كله فتح الباب عريضا للاجتهاد والرأي ، وانتكأت جراح كانت مكمنة منذ حياته ، ونستطيع من خلال دراسة تحليلية معمقة لما دار في اجتماع السقيفة ان نفصح أو نكشف الستر عن التيارات التي كانت تعمل في جسد الجماعة الاسلامية آنذاك ، والتي تشكل البواكير الاولى للتيارات السياسية الدينية التي تكون الاطار العريض لما سمي فيما بعد بالفرق والاحزاب السياسية في الاسلام . على انه لابد لنا، قبل الخوض في موضوع اجتماع السقيفة ، من ان نقف وقفة قصيرة عند موضوع الكتاب الذي قيل ان رسول الله أراد ان يكتبه لامته في مرضه الذي مات فيه ، لنؤكد

الحقيقية التي اشرنا اليها من ان الرسول انتقل الى جوار ربه دون ان يترك اي مؤشر للطريق التي يريد لصحبه ان يتبعوها بعده ، ولنؤكد بالتالي الحقيقة التي كان يؤكد عليها صلوات الله عليه في حياته حيال امور الدنيا ، والتي يلخصها قوله الذي كان يردده على الدوام وكلما عرض له امر من أمور الدنيا « أنتم اعلم بأمور دنياكم » .

يذكر ابن سعد نقلا عن ابن عباس الخبر التالي « اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخميس ... واشتد بالنبي صلى الله عليه وسام وجعه ، فقال : ائتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا ، قال : فقال بعض من كان عنده ، ان نبي الله ليهجر! قال فقيل له : الا نأتيك بما طلبت ؟ قال : أو بعد ماذا ؟ قال : فلم يدع به » . والى جانب هذه الصيغة للخبر هناك عند ابن سعد صيغ اخرى له معزوة لابن عباس نفسه جاء في احدها قوله بعد سرده لخبر مرض الرسول يوم الخميس وطلبه للدواة والصحيفة : « فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع ، فقالوا ما شأنه ، اهجر ؟ استفهموه ! فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني اليه ، واوصى بثلاث ، قال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، واجيزوا الوفد بنحو مما كنت اجيزهم ، وسكت عن الثالثة ، فلا ادري قالها فنسيتها، أم سكت عنها عمدا » وهذه الصيغة الثانية للخبر المنقولة عن ابن عباس أيضا ، فيها ذكر لوصية أوصاها الرسول تتألف من ثلاثة بنود : بندان لا علاقة لهما بموضوع مستقبل الامة من بعده ، وبند لم يذكره اما عمدا أو لانه نسيه . ولا نظن ان بندابمثل هذه الاهمية ينسى ، ويبقى في الذاكرة البندان الاولان اللذان لايدانيانه في الاهمية . وحول الموضوع نفسه يذكر ابن سعد روايات عدة ، عن ابن عباس وغيره ، تجمع كلها على ان عمر بن الخطاب كان بين الحضور ، وان عمر هو الذي حال بين الرسول وبين أن يكتب الكتاب الموعود ، وذلك بحجة ان الرسول الكريم قد غلبه الوجع ، وان القرآن الكريم هو دليل الناس الذي لن يضلوا بعده . وفي هذه الروايات ما يجعل الباحث يتساءل عن مدى ما فيها من صدق ، وعن مصلحة عمر في ان يمنع الرسول من أن يدل الناس على الطريق التي عليهم ان يسلكوها بعده ، هذا الى جانب ما فيها من اختلاف في التفاصيل وأسماء الرواة الذين نقلت عنهم ، والاسباب التي دعت الرسول الى العدول عما عزم عليه ، وكلها أمور تجعل الباحث حائرا غير قادر على الجزم بصدقها أو زيفها ، ولا سيما اذا تذكرنا ما تؤكده المصادر عن اخبار الصدمة التي أصيب بها عمر حين سمع بخبر وفاة الرسول ورفضه ان يصدق ذلك ، وما في هذا الموقف من تناقض مع ما يرد في هذه الروايات من ان عمر تذرع في منع الناس من تمكين الرسول من كتابة الكتاب الذي اعتزم ان يكتبه ، بأن الرسول يعاني سكرات الموت وانه « ليهجر » . ومن يتذرع بأن الرسول « يهجر » يدرك انه لن يمتد به العمر طويلا ، ولا يفجأه موته حتى يذهل ويفقد وعيه .

لهذا كله فنحن أميل الى الاعتقاد بأن هذا الخبر يفتقر الى الدقة والموضوعية ، وفيه من التناقض مع المسار الذي اتخذته الاحداث فيما بعد مايجعلنا أقرب الى رفضه .

★ ★ ★

بعد هذه الملاحظة المعترضة التي قدمناها حول موضوع الكتاب المزعوم ، والتي اردنا من خلالها تأكيد الحقيقة التي أشرنا اليها اكثر من مرة من ان الجماعة المسلمة في المدينة التي لم يفاجئها موت الرسول ، كما يزعم البعض ، كان فيها من يخطط ويدبر لمثل هذه الساعة ، اذ ما كاد خبر وفاة الرسول يتسرب الى الناس حتى هرع زعماء جماعة الانصار وبخاصة الخزرج منهم ، الى زعيم هذه القبيلة ، سعد بن عبادة ، ليختاروا من بينهم من يخلف الرسول في قيادة الامة ، ويعرف هذا الاجتماع في جميع المصادر التاريخية باسم «خبر سقيفة بني ساعدة» أو «حديث السقيفة» أو ماشابه . ويبدو ان اخذ الانصار ، ولاسيما الخروج ، لزمام المبادرة في هذا الموضوع نابع من خشيتهم الا يكون لهم في الفترة الجديدة ما كان لهم من مكانة زمن الرسول ، وان يحرموا من الدور الهام الذي كانوا يلعبونه في الحياة العامة للدولة من قبل . وطبيعي الا يظل اجتماع كهذا سرا ، وان تتناهى اخباره الى باقي سكان المدينة من أوس ومهاجرين وغيرهم . وكان من خبر هذا الاجتماع ، على ما يذكره الطبري نقلا عن الزهري عن ابن عباس ، انه حين توفى الله نبيه تخلف علي بن ابي طالب والزبير وغيرهما في بيت فاطمة ، ولم يحضر الى بيت فاطمة أي من الانصار ، وجاء رجل يسعى فقال « هاتيك الانصار اجتمعت في ظلة بني ساعدة يبايعون رجلا منهم »(٩) . وهرع عمر بن الخطاب بعد ان أتاه الخبر الى منزل النبي حيث كان ابو بكر وطلب منه الخروج اليه ، وأعلمه ان الانصار اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون تولية الامر لسعد بن عبادة ، وان بعضهم يقول : منا امير ومن قريش أمير(١٠) . ومضى ابو بكر مع عمر الى حيث يجتمع الانصار ، وفي الطريق لقيا أبا عبيد بن الجراح ، فتماشوا اليهم ثلاثة ودخلوا مكان الاجتماع ، ووجدوا القوم قد قر رأيهم على تولية سعد خليفة لرسول الله . ويستطيع الباحث من مجموع الروايات التي يجدها عند الطبري(١١) حول موضوع النقاش الذي جرى بين ممثلي المهاجرين وبين الانصار في هذا الاجتماع ان يصل الى الصورة التالية :

١ ـ لا يعقل أن يكون اسراع الانصار (والخزرج بصورة خاصة) الى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة فور وفاة الرسول حادثا عفويا ، ولا بد انهم كانوا يخططون لاستلام الامر بعد الرسول منذ ان اشتكى من المرض الذي توفي فيه ، أو قبيل ذلك ، بدليل انهم بمجرد وصول الخبر بوفاته سارعوا لعقد اجتماع السقيفة وترشيح

سعد بن عبادة لزعامة الجماعة المسلمة رغم ما كان يشكوه هذا الاخير من مـرض لا يساعده على الحديث بصوت مرتفع(١٢) ، الامر الذي جعله يتكلم بصوت منخفض ويقوم ابنه او بعض بني عمه بنقل كلامه الى الحضور . وتدبير أمر اجتماع كهـذا والاتفاق على مرشح لا يمكن أن يتم في فترة قصيرة ، كالفترة التي مرت بين اعلان وفاة الرسول ووصول الخبر الى عمر ، وابلاغه ذلك الى ابي بكر الذي كان في بيت الرسول يساعد في جهازه واعداده للدفن(١٣) . وكل ذلك يعود بنا الى ذكريات سابقة بدأت تظهر فيها بوادر تكتل أنصاري منذ حياة الرسول ، ونقصد بذلك ماجرى بعد فتح مكة وغزوة حنين وايثار الرسول الكريم بعض حديثي العهد بالاسلام مـن قريش (المؤلفة قلوبهم) وغيرها بهدايا اضافية(١٤) ، جعلت الانصار يشكون في امكان انصراف الرسول عنهم والتحول الى مكة بعد أن فتحها الله عليه . وكان سعد ابن عبادة على رأس هذه الجماعة الانصارية التي أخذت على الرسول ايثاره قومه . ويذكر الطبري هذا الحادث في جملة ما يذكر من اخبار غزوة حنين ويقول : « لمـا اعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ، ولم يكن في الانصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الانصار في أنفسهم حتى كثرت منهـم القالة (أي الكلام السيء) ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ! . فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، ان هذا الحي من الانصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك واعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الانصار شيء ، قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ! قال : يا رسول الله ما أنا الا من قومي »(١٥) ، وطلب الرسول من سعد ان يجمع له قومه من الانصار وتحدث الرسول اليهم واوضح لهم الدافع الذي حدا به لايثار بعض المسلمين الجدد بهدايا اضافية ، وأعلن لهم تمسكه بهـم وبصحبتهم وانه سيسير واياهم في درب واحد ، فاطمأنت نفوسهم وهدأت خواطرهم . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان سعدا كان يقود الجماعة الانصارية المعارضة ، وانه يصرح بعصبيته لقومه من الانصار (لا للجماعة الاسلامية ككل) فيقول : « ما أنا الا من قومي » . وفي كل ذلك ما يمكن ان يؤخذ كدليل على بوادر قيام تكتل انصاري منذ حياة الرسول الكريم ، لاسيما بعد ان تغلب الاسلام على الصعاب والاخطار التي كانت تهدد وجوده ، وغدا قوة لا يخشى معها عليه من تصدع خطير في الصف الداخلي .

٢ ــ أدرك المجتمعون من الانصار ان تحركهم غير مضمون النتائج ، وان نقاشا جرى بينهم قبل وصول ممثلي المهاجرين ، يلخصه لنا الطبري على النحو التالي :

« ثم انهم (أي الانصار المجتمعون في السقيفة) ترادّوا الكلام بينهم ، فقالوا فان أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الاولون ، ونحن

عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الامر بعده .. ؟ فقالت طائفة منهم : فانا نقول اذن : منا أمير ومنكم امير ، ولن نرضى بدون هذا ابدا . فقال سعد بن عبادة حين سمعها : هذا أول الوهن » (١٦) .

كما جاء في موضع اخر على لسان الرجل الذي جاء يخبر عمر باجتماع السقيفة قوله : « هاتيك الانصار قد اجتمعوا في ظلة بني ساعدة ، يبايعون رجلا منهم ، يقولون منا امير ومن قريش امير »(١٧) .

ويبدو ان اتجاها قويا ظهر بين المجتمعين من الانصار حول فكرة اقتسام السلطة مع المهاجرين ، وان يقوم نظام تكون فيه السلطة ثنائية تمثل فيها الفئتان ، دون ان يكون عند المجتمعين صورة واضحة للتطبيق العملي لهذا النوع من النظام ، الذي لو أن المجتمعين أخذوا به لكان البداية المبكرة لانقسام الجماعة الاسلامية ، وقد رفض الوفد المهاجر هذا العرض بحزم وقال عمر « هيهات ، لايجمع أثنان في قرن »(١٨)

٣ ـ لم يكن الصف الانصاري موحدا في محاولته الاستيلاء على السلطة في الجماعة الاسلامية . ويبدو هذا التشتت في صف الانصار من الموقف الذي اتخذه بشير بن سعد والد النعمان بن بشير الانصاري ، الذي رفض ان يوافق على موقف جماعته وكانت وجهة نظره التي شرحها في اجتماع السقيفة وبحضور ابي بكر وصحبه تتلخص بقوله « الا ان محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يراني الله انازعهم هـذا الامر ابـدا ، فاتقـوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » (١٩) . ولم يكتف بهذا القول : بل أتبعه بالعمل وقام وسبق ابا عبيدة وعمر في مبايعة أبي بكر . وبشير بن سعد من الخزرج(٢٠) ، أي من قبيلة سعد بن عبادة نفسها ، وكان من الذين شهدوا العقبة مع السبعين من الانصار ، وشهد بدرا وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ، كما كان على رأس سرية بعثها رسول الله الى بني مرة بفدك في شعبان سنة سبع ، وقاتل مع خالد بن الوليد في عين التمر واستشهد في ساحةالمعركة زمن خلافة ابي بكر . فهو اذن من كبار رجالات الانصار ، ومن ذوي الجهاد والمكانة في قومه ، ومن القلة التي كانت تكتب بالعربية في الجاهلية ، وكل هذا يضفي على رأيه أهمية واعتبارا بين المجتمعين . والى جانب هذا التصدع في الصف الخزرجي ، لا بد من الاشارة الى موقف الاوس ، اذ يذكر الطبري انه « لما رات الاوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو اليه قريش ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير ، وكان أحد النقباء : والله لئنوليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا ابدا ، فقوموا فبايعوا أبابكر . فقاموا اليه فبايعوه .

فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجمعوا له من امرهم »(٢١) . وفي موقف الاوس هذا شيء كثير من ذكريات الماضي الذي سبق هجرة الرسول الى يثرب ، حين كانت الحروب والايام لا تنقطع بين أوس وخزرج ، والذي وضعت له هذه الهجرة وما تبعها من اسلامهم خاتمة سعيدة محت ما نشأ بينهم من احن ودماء ، ولكن الى حين . وهذا يجعلنا نقول انه كان هناك شعور عند الانصار يدعوهم الى التكتل في وجه المهاجرين ، ولكن هذا الشعور لم يصل الى حد صهر الجماعة الانصارية ، بفرعيها ، في بوتقة واحدة تمّحي فيها جميع رواسب الماضي . كما انه لم يأخذ شكلا منظما له أساليبه وطرائقه في العمل والتخطيط ، لمواجهة ما قد يطرحه المهاجرون من مطالب في الحكم ، لذا انهار هذا التكتل بسرعة ولم يستطع ان يحقق اهدافه وأهمها تسلم السلطة .

٤ ــ كان الاسلوب الذي اتبعه الجانب المهاجر في حسم المشكلة يعتمد اولا على حجة يصعب دحضها ، وتتلخص كما وضعها عمر بن الخطاب « والله لا ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع ان تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من ابى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن اولياؤه وعشيرته ، الا مدل بباطل أو متجانف لاثم ، ومتورط في هلكة »(٢٢) . وفي هذه الحجة ما يشير الى ان الامر لا يقتصر على من بالمدينة من العرب ، بل لابد من النظر بعين الاعتبار الى ما سيكون عليه موقف باقي المسلمين من غير عرب المدينة الذين يفضلون قريشا عشيرة الرسول على سواها . وكان هذا الاسلوب يعتمد ثانيا على أن المهاجرين لن ينفردوا بالامر وانهم لن ينسوا للانصار فضلهم وجهادهم ، وان الامور لن تقضي بدونهم . وقد تولى هذا الجانب من الحديث أبو بكر بوقاره وجلال قدره ، فقال في اجتماع السقيفة « فليس بعد المهاجرين الاولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الامراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الامور »(٢٣) . ورغم ان كلمة وزير لم تكن لتعني منصبا اداريا محددا ، كما ستكون الحال في العصر العباسي ، الا انها كانت تعني المركز الاستشاري الذي لا تقضي الامور بمعزل عن صاحبه . وقد تعارف المؤرخون على تسمية عمر بوزير أبي بكر ، وعلي بوزير عمر ... وهكذا . وفي هذا الوعد تهدئة للخواطر واعتراف بالفضل وتأكيد على أن الامور لن تقضي بمعزل عن الانصار وسار النقاش على هذه الشاكلة في جو عاصف ، فيه الحاح من الجانب الانصاري على ابراز حقهم ، وفيه محاولة من جانب المهاجرين على التأكيد ان الامر لن يستقيم الا لقريش ، لما لها من فضل وسابقة من جهة ، ولكونها عشيرة الرسول من جهة أخرى ، ولما كان لها من مكانة بين العرب قبل الاسلام(٢٤) .

ولم تسو المشكلة بسهولة ، فقد بلغ الغضب بالحباب بن المنذر خطيب الخزرج حدا جعله يقول لصحبه من الانصار المجتمعين في السقيفة : « لا تسمعوا مقالة هذا (يعني عمر بن الخطاب) واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر . فان ابوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد »(٢٥) . ولما طلب من سعد بن عبادة ان يبايع بعد ان بايع الناس وبايع قومه ، اجاب : « أما والله حتى ارميكم بما في كنانتي من نبلي ، وأخضب سنان رمحي ، واضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، واقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، ولا أفعل ، وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى اعرض على ربي ، وأعلم ما حسابي »(٢٦) وظل سعد مصرا على هذا الموقف ، وخرج ولم يبايع فسار الى الشام فقتل هناك سنة خمس عشرة(٢٧) . وحسم عمر بن الخطاب النقاش في السقيفة بان تقدم هو وابو عبيدة من ابي بكر وقالا له : « انك افضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الامر عليك ، ابسط يدك نبايعك »(٢٨) وسبقهما اليه بشير بن سعد الانصاري فبايعه ، وقام اليه مبايعا من كان حاضرا من الاوس وأقبل الناس من كل جانب يبايعون ابا بكر ، وكادوا يطئون سعد بن عبادة المريض . وكان رأي عمر أن يجبر سعداً على البيعة ، ولكن بشير بن سعد نصحهم ان يتركوه ، وقال « انه ليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم ، انما هو رجل واحد »(٢٩) . فقبلوا مشورة بشير بن سعد وتركوه . ويبدو ان سعدا استمر في عناده فكان لا يصلي بصلاتهم ، ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بافاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك ابو بكر رحمه الله »(٣٠) .

٥ ــ اذا أضفنا الى كل ذلك ان أمر خلافة الرسول قد شغل الجماعة الاسلامية ثلاثة أيام بلياليها ، كان الرسول فيها مسجى على فراشه ينتظر الدفن وحر المدينة اللاهب في شهر حزيران(٣١) يؤذي جسده الطاهر ويشوه معالمه ، وهم غافلون عن كل ذلك يتخاصمون ويتصايحون ويطرحون الحل والحل البديل حتى آل الامر الى ابي بكر بعد مخاض عسير ، لوجدنا ان الامر كان من الخطورة بالنسبة لهم بحيث استحق تأجيل كل شيء للبت فيه ، وان التيارات المتصارعة كانت من العنف والشدة بحيث لم يحسم النقاش الا بعد جهد طويل لم يخل من عصبية بالغة ،وتعنت وصل الى حد اعتزال الجماعة كما فعل سعد بن عبادة .

ان هذا الذي جرى في سقيفة بني ساعدة يفصح بشكل لا يقبل الجدل عن وجود تيارين أساسيين كانا يشكلان بذرة الفرقة التي تمت فيما بعد داخل الجماعة الاسلامية . وهذان التياران هما : آ ــ التيار الانصاري ، ب ــ وتيار المهاجرين :

واذا اخذنا بعين لاعتبار ان سعد بن عبادة من الخزرج ، وان النصر يوم بعاث (قبل الاسلام) كان للاوس ، وان ذكريات هذا النصر وما حلم به الاوس من سيادة على يثرب قبل قدوم محمد اليها ، لوجدنا ان هذه الذكريات كانت من اهم العوامل التي حددت المواقف الانصارية المتصارعة والمنقسمة التي ظهرت في اجتماع السقيفة .

وما قلناه عن التصدع في الصف الانصاري في هذه الفترة يصح أيضا على صف المهاجرين ، الذي بدا متماسكا في السقيفة من خلال طرحه مبدأ قرشية الخلافة . ولكنه ما لبث بعد ان آل الامر الى واحد من رجالاته ان ظهر فيه اكثر من تيار ، ولاسيما التيار الذي يحبذ ان يكون الامر في آل البيت (وهم قرشيون ايضا) والتيار الآخر الذي يراه في عامة الصحابة الاول من القرشيين كما تمثل في شورى عمر .

وهكذا ظهر هذان التياران بوضوح وجلاء منذ اللحظات الاولى لبروز مشكلة الحكم . على أن الامر لم يقتصر على ذلك ، اذ ما كاد أبو بكر يبايع « البيعة العامة » بعد « البيعة الخاصة » حتى ظهرت على السطح تيارات أخرى كانت بذورها تطل براسها منذ حياة الرسول ، وأهمها التيار البدوي الذي كان يمثل قبائل الجزيرة خارج الحجاز ، والذي انفجر يهدر كالسيل العارم بعد وفاته ، ومنذ الايام الاولى لتولي ابي بكر مقاليد الامور . ومعروف انه في العامين التاسع والعاشر للهجرة وحين كانت وفود الجزيرة العربية تقدم على الرسول مبايعة ومعلنة اسلامها ، كان بينها من لا يقنعه الاستسلام لسلطان قريش متمثلا في شخص محمد . ولعل فيما تذكره المصادر عن النقاش الذي دار بين مسيلمة بن حبيب الحنفي ، او مسيلمة بن ثمامة ، الذي عرف فيما بعد باسم مسيلمة الكذاب ، الذي جاء في وفد حنيفة(٣٣) ، ومحاولتـه مقاسمة محمد الامر وارتداده عن الاسلام بعد عودته من المدينة وقبل وفاة الرسول ، ما يفصح عن وجود بذور هذا الاتجاه البدوي ، الذي لا يقبل سلطانا غير سلطان سيد القبيلة ، ولا يعترف بشريعة سوى اعرافه وتقاليده ، ولو كانت الشريعة شريعة منزلة من السماء . وقد توضح هذا التيار البدوي ، كما أسلفنا ، بعد وفاة الرسول ، فكانت حركة الردة التي اعتبرها العديد من المؤرخين المحدثين ، خطأ ، ردة دينية ، بمعنى أنها كانت ثورة على الدين الاسلامي الذي فرضه محمد عليهم بقوة السيف . ويقولون ان العرب بعد وفاة الرسول مالبثت ان ارتدت حتى لم يبق أحد متمسـك بدينه ، الا قريشا بمكة وثقيفا بالطائف ، واخرين قليلين جدا(٣٤) .

ويقسم هؤلاء المؤرخون المرتدين الى قسمين :

١ ـ التاركون الدين نهائيا القاطعون لكل صلة لهم به ، وهم بنو طيء واسد ومن اتبعهم من غطفان ، الذين اتبعوا طليحة بن خويلد الاسدي ، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة ، وأهل اليمن الذين اتبعوا الاسود العنسي .

٢ ـ الذين اكتفوا فقط برفض دفع الزكاة ، ومن هؤلاء قسم من بني تميم ويرأسهم مالك بن نويرة ، وبنو هوازن وغيرهم .

هذا التقسيم وما يفترضه من وجود فئة من المرتدين اكتفت فقط بعدم دفع الزكاة يمكن ان يؤخذ كدليل على أن الردة لم تكن ردة دينية ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، بل كانت في الاعم الاغلب ردة سياسية تهدف الى الثورة على قرشية الخلافة ، وفكرة السلطة المركزية في الحكم ، وما جرت هذه المركزية من اعباء وواجبات على القبائل ، كدفع الزكاة مثلا ، لم تكن قد اعتادت عليها من قبل . والردة أيضا مظهر من مظاهر استقلالية القبيلة وعدم قبولها لفكرة الحكم من الخارج ، ولو كان الحاكم قبيلة صديقة أو شخصا من قبيلة صديقة . لقد كان خضوعهم في الماضي لشخص الرسول الذي يتمتع بصفات لا تتوافر في شخص غيره ، فهو مبعوث الله جاء ليصدع بأمره . أما ابو بكر فلا تتوافر فيه هذه الصفات ، ولذلك فليس لاحد غير الرسول ان يطالبهم بتلك الطاعة . وتتمثل هذه الفكرة في الثورة على الحكم من خارج القبيلة او فكرة الدولة ، في قول الشاعر الخطيل بن أوس اخي الحطيئة .

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لابي بكر

أيورثها بكرا اذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر(٣٥)

فالردة اذن حركة سياسية موجهة ضد الخضوع للسلطة المركزية في المدينة ، وفي حديث بين عمر بن الخطاب وابي بكر الصديق يقول : « يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله » قال ابو بكر : « والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلتهم على منعها » . ويوضح هذا الحوار ان عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يرى في رفض القبائل دفع الزكاة ردة دينية بل حركة سياسية . كما ان فيه اعترافا صريحا من عمر بان المرتدين كانوا مقيمين على اسلامهم وان حركتهم كانت ذات اهداف سياسية . وهنا لا بد لنا أن نلاحظ ان الزكاة أيام الرسول كانت تجمع من كافة الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول بتوزيعها على المستحقين من المسلمين من كافة الديار . وقد يكون نقل زكاة القبائل الى المدينة وصرفها على الوجه الذي يراه من يحكم في المدينة بعد الرسول من الاسباب التي دفعت القبائل الى رفض دفع الزكاة الى ابي بكر ، لان القبائل رات في هذا عبئا ثقيلا عليها لا ترى

له مبررا . ولهذا نرى ان الدولة بعد الردة لجأت الى تدبير جديد يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين في هذه الاطراف ، ويرسل الفائض بعد هذا الى بيت مال العاصمة . وهذا التدبير أرضى القبائل لامد وهدأ من ثورتهم .

وبعد ان اخمد ابو بكر ثورات المرتدين على النحو المعروف ، وجاء عمر فوجه قبائل الردة للمشاركة في عمليات الفتح ، هدأ التيار البدوي مؤقتا ، ولكنه ما لبث ان عاد ليطل برأسه وبحدة كبيرة خلال الصراع الذي عاشته الدولة بعد فتنة عثمان ، بين علي ومعاوية ، وتمثل في شكله الجديد بحركة الخوارج التي رفضت مبدأ قرشية الخلافة ، وجعلتها مشاعا بين من يصلح لها من عامة المسلمين .

واذا كان ما قلناه حتى الان يفصح عن وجود ثلاث تيارات كبرى في الجماعة الاسلامية حين طرحت مشكلة الحكم لاول مرة بعد وفاة الرسول ، فان في هذه التيارات تكمن مؤشرات لم تكن واضحة انذاك ، ولكنها تنبىء الباحث عن المسار الذي ستتخذه الاحداث فيما بعد .

فالتيار الذي مثله الانصار في اجتماع السقيفة والحجج التي برروا بها احقيتهم بالخلافة ، هو الاصل والمنطلق الحقيقي لحركة الزهد التي مثلتها فئة القراء ، التي اعتزلت السياسة بعد ان يئست من ان يكون لها فيها نصيب ، واقتنعت بزعامة مدرسة الحديث التي نمت وترعرعت في المدينة ، واوجدت بذلك لنفسها وصاية دينية اعتبرتها أرفع مقاما من الممارسة السياسية ، ونفست عن حقدها هذا فيما بعد كلما اتيح لها ذلك وعبرت عنه بالقول والفعل(٣٦) . كما يمكن ايضا ان نرجع اصول حركة الارجاء الى هذا التيار ، لانه في الارجاء ، الى جانب ما فيه من جانب عقائدي ، قعود تام عن المشاركة في العمل السياسي .

اما التيار القرشي والذي ضم بين جناحيه عامة الصحابة الاول من قريش ، فقد انقسم الى قسمين اصبحا فيما بعد حزبين سياسيين دينيين هما : الحزب العثماني (نسبة الى عثمان بن عفان ومن بعده بني أمية) وحزب آل البيت الذي قامت حوله حركة التشيع . أما التيار البدوي فتمخض عن حركة الخوارج كما أسلفنا ، التي حملت لواء المعارضة للحزبيين القرشيين : العثماني والتشيع لال البيت. وفي هذه البواكير الاولى يجد الباحث أصول الحزبية السياسية في الاسلام .

★ ★ ★

الحواشي :

(١) gabrieli (F) , Muhammad and theconquests of islam, world university, London, 1968, p. 64

(٢) ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٥٨٥ .

(٣) انظر تفاصيل هذه القضية في : ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٦ .

(٤) انظر ابن سعد ، الطبقات ، ط صادر ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٥) انظر نص الوثيقة في سيرة ابن هشام ، ط . السقا ، القسم الأول ، ص ٥٠١ وما بعدها وانظر دراسة مفصلة لها في كتابنا : تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٦) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط ، صادر ، بيروت ١٩٥٧ ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٧) ابن سعد ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ .

(٩) الطبري ، ط أبو الفضل ابراهيم ، ج٣ ، ص٢٠٣ .

(١٠) الطبري ، ج٣ ، ص ٢١٩ .

(١١) انظر هذه الروايات وأخبار النقاش والمناوشات وملابسات الاحداث التي انتهت ببيعة ابي بكر في : الطبري ، ج٣ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ـ ٢١١ ، ٢١٨ ـ ٢٢٣ .

(١٢) الطبري ، ج٣ ، ص ٢١٨ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(١٤) انظر جدول الهدايا الاضافية التي قدمها الرسول لفئة « المؤلفة قلوبهم » في كتابنا : تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ص ١٥٧ .

(١٥) الطبري ، ج٣ ، ص ٩٣ .

(١٦) الطبري ، ج٣ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(١٧) الطبري ، ج٣ ص ٢٠٣ ، وانظر ايضا ص ٢٠٦ ، ٢١٩ .

(١٨) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(١٩) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٢١ .

(٢٠) انظر ترجمته في : ابن سعد ، ج٣ ، ص ٥٣١ وما بعدها .

(٢١) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، وجاء عند المسعودي : « تخلى الاوس عن معاضدة سعد خوفا ان يفوز بها الخزرج » .

(٢٢) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٣) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٤) جاء (الحديث الذي ادلى به ابو بكر في اجتماع السقيفة قوله : « وان العرب لاتعرف هذا الامر الا لهذا الحي من قريش ، وهم أوسط العرب دارا ونسبا » . (الطبري ، ج٣ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦)وكلمة « أوسط » تعني أشرف ، وكلمة « دارا » تعني بلدا أي مكة .

(٢٥) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٦) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٢ .

(٢٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ط. محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج٢ ، ص ٣٠٧ .

(٢٨) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢١ .

(٢٩) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٢ .

(٣٠) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٣ .

(٣١) اثبتت الدراسات التاريخية والحسابات الفلكية الدقيقة ان الرسول توفي الاثنين في ١٣ ربيع الاول سنة ١١ هـ وذلك يوافق الثامن من شهر حزيران سنة ٦٣٢ م .

(٣٢) في ترجمة عبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد في « الكامل » لابن عدي نقرأ ما يلي :

« والحديث في ذلك ما حدثنا قتيبة ، حدثنا وكيع عن اسماعيل بن ابي خالد عن عبد الله البهي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما مات لم يدفن حتى ربا بطنه وانثنت خنصراه . قال قتيبة : حدثنا بهذا الحديث وكيع وهو بمكة وكان حج فيها الرشيد فقدموه اليه فدعا الرشيد سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد ، فاما عبد المجيد فقال : يجب ان يقتل هذا ، فانه لم يرو هذا الا وفي قلبه غشش للنبي صلى الله عليه وسلم .

فسال الرشيد سفيان بن عيينة فقال : لايجب عليه القتل ، رجل سمع حديثا فرواه لا يجب عليه القتل . ان المدينة أرض شديدة الحر ، توفي النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، فترك الى ليلة الاربعاء لان القوم كانوا في صلاح امر امة محمد ، واختلفت قريش والانصار ، فمن ذلك تغير ».

(٣٣) من اجل اخبار الوفود عامة وما جرى لها مع الرسول ، وخبر وفد مسلمة ، انظر : ابن هشام ، قسم ٢ ، ص ٥٦٠ وما بعدها ، والطبري ج٣ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٣٤) الطبري ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٣٥) انظر الطبري ، ج٣ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ، وانظر ايضا : الاغاني ، ط دار الكتب ، ج٢ ، ص ١٥٧ ، حيث ينسب هذا الشعر الى الحطيئة .

(٣٦) « ... عن ابي معشر قال : ولما تولى يزيد بن عبد الملك (الخلافة) نزع ابا بكر بن محمد بن عمرو الانصاري عن المدينة ، وولاها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري . فدخل عليه (اي على الخليفة يزيد بن عبد الملك) ابو بكر بن محمد، فلم يعرف (يزيد) حقه ، قال : ابو بكر : هذا شيء لا تملكه قريش الانصار ، وجلس في منزله » انظر : الازدى ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٦٧، ص ٥ ـ ٦ .

* * *

الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن للميلاد

د . نعيم فرح

جامعة دمشق

البحر الابيض المتوسط (Méditerranée) في اللغة اللاتينية لفظ مركب (Medius - terra) ويعني البحر الذي يتوسط اليابس . واليابس المقصود هو قارات العالم القديم الثلاث : أوروبا وآسيا وافريقيا .

حظي البحر المتوسط باهتمام الدول القديمة والمعاصرة لما له من أهمية استراتيجية ، اقتصادية وسياسية وعسكرية ، وظل على مر العصور منطقة صراع بين الدول التي قامت الى جواره أو وطئت اقدامها سواحله . فالسوريون الكنعانيون (الفينيقيون) بسطوا سيطرتهم التجارية على معظم اطرافه في الالف الثانية قبل الميلاد ، ثم نافستهم في السيطرة شعوب البحر . كذلك تصارع الحثيون والمصريون القدماء للسيطرة على بعض شواطئه . وفي النصف الاول من الالف الاولى قبل الميلاد سعى الاشوريون ثم البابليون الكلدانيون الى بسط نفوذهم على شواطىء المتوسط الشرقية والجنوبية ، فنافسهم في ذلك المصريون . وفي النصف الثاني من الالف الاولى قبل الميلاد تصارع الفرس الاخمينيون واليونانيون من أجل السيطرة على الحوض الشرقي البحر الابيض المتوسط ، في حين تصارعت روما وقرطاجة من أجل السيطرة على حوضه الغربي . وبعد أن بسط الاسكندر المكيدوني سلطته على حوض المتوسط الشرقي صار هذا الحوض موضوع صراع بين خلفاء الاسكندر ، البطالمة والسلوقيين .

وفي القرن الاول قبل الميلاد تمكنت روما أن تفرض سلطتها السياسية على جميع شواطىء البحر الابيض المتوسط ، فصار هذا البحر بحيرة رومانية داخلية ، وظل هكذا حتى القرن الخامس الميلادي ، حين تمكن بعض البرابرة أن يسيطروا

على قسم من شواطىء حوضه الغربي ، حيث احتل الوندال شمال افريقيا والقوط الغربيون اسبانيا والقوط الشرقيون ايطاليا . لكن الامبراطور الروماني (البيزنطي) جستنيانوس الاول سعى جاهدا الى اعادته بحيرة رومانية كما كان ، فتحقق له ذلك في القرن السادس الميلادي ، باستعادة شمال افريقيا من الوندال وايطاليا من القوط الشرقيين وشرق اسبانيا وجنوبها من القوط الغربيين .

ومنذ القرن الثالث الميلادي حتى القرن السابع دار صراع مستمر بين البيزنطيين والفرس الساسانيين ، كانت أهم اسبابه رغبة الفرس في الوصول الى البحر المتوسط لايجاد منفذ تجاري اهم على العالم المحيط بهذا البحر .

وظل البحر المتوسط بحيرة رومانية (بيزنطية) حتى وطئت سواحله جحافل العرب المسلمين . وسنتناول في هذا البحث الصراع العربي البيزنطي للسيطرة عليه في القرن الثامن للميلاد .

بمقتل الامبراطور جستنيانوس الثاني سنة ٧١١ انتهى حكم الاسرة الهرقلية ، التي حكمت في بيزنطة طيلة القرن السابع . في هذا القرن خسرت بيزنطة معظم ولاياتها الشرقية (سورية ، مصر ، شمال افريقيا) على أيدي الفاتحين العرب المسلمين . وفي الفترة الممتدة بين سنتي ٧١١ – ٧١٧ – أي الفترة الفاصلة بين نهاية حكم الاسرة الهرقلية وبداية حكم الاسرة الايسورية – حكم في بيزنطة أباطرة ثلاثة هم : فيليبيكوس (٧١١ – ٧١٣) ، أنستاسيوس الثاني (٧١٣ – ٧١٥) ، تيودوسيوس الثالث (٧١٥ – ٧١٧) ، وكانوا أباطرة ضعفاء غرباء عن الاسرتين المذكورتين توصلوا الى الحكم بمحض الصدفة . في تلك الفترة كان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ – ٧١٥) يعد العدة في البر والبحر لاحتلال العاصمة البيزنطية . ففي عهد الوليد بن عبد الملك بلغت الدولة الاموية العربية ذروة قوتها ، حيث ساد الهدوء والاستقرار في الداخل ، في حين امتدت جبهات الفتوح الاسلامية من اسبانيا الى حدود الهند والصين . ومع اتساع رقعة الدولة كان لابد من تأمين سلامة الخطوط التجارية البحرية بين الولايات الاسلامية وفرض السيطرة العربية على خطوط البحر الابيض المتوسط . ولفرض السيطرة العربية الكاملة على خطوط حوض البحر الابيض المتوسط وأسواقه كان لابد من القضاء على الدولة البيزنطية ، التي تنافس العرب المسلمين في هذا المجال .

من أجل تحقيق هذه الاهداف الاقتصادية والعسكرية أمر الوليد بن عبد الملك بتوسيع الاستعدادات العسكرية البرية والبحرية بغية احتلال القسطنطينية . فأوراق البردي المصرية التي تعود الى بداية القرن الثامن الميلادي تشير بشكل واضح الى ازدياد نشاط الاستعدادات البحرية وبناء السفن الحربية في الموانـي المصرية (الاسكندرية ، بابليون ، القلزم على البحر الاحمر)(١)

ونشطت كذلك في سورية الاستعدادات البرية والبحرية للاشتراك في الحملة التي تهيأ للتوجه الى العاصمة البيزنطية . وعلى مايبدو فقد وصلت الى القسطنطينية انباء الاستعدادات العسكرية العربية ، فأرسل الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الثاني سنة ٧١٣ سفارة تجسسية الى دمشق لتتعرف سرا على استعدادات العرب ونواياهم المبيتة ضد البيزنطيين . ويذكر المؤرخ البيزنطي تيوفانس أن هذه السفارة عادت من دمشق الى القسطنطينية ، فأخبرت الامبراطور أن العرب يستعدون في البر والبحر للهجوم على العاصمة البيزنطية . وعلى هذا أمر الامبراطور سكان القسطنطينية أن يخزن كل فرد لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، أما من كان غير قادر على تدبير مؤونته فعليه أن يخرج من المدينة . كما أمر أيضا بترميم سور المدينة وبنـاء سـفن حربية وزيادة الاسلحة الدفاعية المتنوعة . كذلك رغـب انستاسيوس الثاني أن يدمر الاسطول العربي في الموانى السورية قبل أن يستكمل عدته ويتحرك نحو القسطنطينية ، ولذا أمر جنود ثغر الابسيق أن يتجمعوا في جزيرة رودوس ، ومن ثم يتوجهون لضرب الموانى السورية . ولكن هؤلاء الجنود ما ان وصلوا الى جزيرة رودوس حتى رفعوا راية العصيان وتمردوا علـى أوامـر الامبراطور ، بل انهم عادوا من حيث أتوا ، فعزلوا انستاسيوس الثاني عن العرش البيزنطي ونصبوا مكانه تيودوسيوس الثالث امبراطورا(٢) . وكان حكم الامبراطور الجديد (الملقب بالكاره لانه قبل التاج مرغما) قصير الامد (٧١٥ – ٧١٧) وضعيفا ، حيث وقف ضده الستراتيجوس ليون الايسوري قائد ثغر الاناضول ، الذي تحالف مع الستراتيجوس ارتاباسدوس قائد ثغر أرمينيا وأخذ يسعى لاستلام التـاج الامبراطوري .

في دمشق مات الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٥ ، فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذي تابع سياسة أخيه في استكمال الاستعدادات العسكرية واعداد الحملة المزمع ارسالها لاحتلال العاصمة البيزنطية . هذا وقد تكاتفت مصر والشام وشمال أفريقيا على تزويد الحملة العربية بما تحتاج اليه من عدة وعتاد . وفي سنة ٧١٦ تحركت القوات العربية من سورية برا وبحرا باتجاه القسطنطينية وعلى رأسها أخو الخليفة مسلمة بن عبد الملك . كان الهدف الرئيسي للحملة هـو احتـلال

القسطنطينية ، ولذا تجنب مسلمة الاصطدام مع القوات البيزنطية أثناء عبوره آسيا الصغرى ، اذ أنه أجرى مفاوضات مع ليون الايسوري قائد ثغر الاناضول ، ثم تابع سيره نحو الغرب ، فاحتل مدينة برغام ، ومن ثم عبر بقواته الدردنيل الى تراكيا ليحاصر القسطنطينية من الجهة الاوروبية(٣) . ويتحدث المؤرخ الطبري عن المفاوضات التي أجراها مسلمة بن عبد الملك وقائده سليمان بن الوليد مع ليون الايسوري ، الذي كان في مدينة عمورية ، فيفهم من حديثه أن كلا من الطرفين كان يخادع الآخر . فالمسلمون تظاهروا بأنهم سيساعدون ليون الايسوري على ارتقاء العرش البيزنطي ، في حين كانوا يقصدون من وراء ذلك أن يتجنبوا مقاومته لهم في آسيا الصغرى وأن يدفعوه للاقتتال مع الامبراطور تيودوسيوس الثالث ، بغية تمزيق القوات البيزنطية والهائها بالصراع فيما بينها . أما ليون الايسوري فكان هو الآخر يناور ويخادع ، حيث كان يرغب أيضا بتجنب الاصطدام مع القوات العربية الاسلامية ، لانه كان ينوي أن يسبقها الى القسطنطينية لينتزع لنفسه العرش البيزنطي ، ومن ثم ينظم الدفاع عن العاصمة البيزنطية(٤) .

استطاع ليون الايسوري أن يدخل القسطنطينية ، فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل من قبل جيش المسلمين القوي العدة والعتاد ، كما أن هذا الوضع الخطير يتطلب وجود شخصية حازمة في رأس السلطة لمواجهة الازمة التي توشك أن تحل بالعاصمة . وعلى هذا اجتمع كبار السياسيين في القسطنطينية وقرروا عزل الامبراطور الضعيف تيودوسيوس الثالث ، وتنصيب ليون الايسوري امبراطورا على العرش البيزنطي في ٢٥ آذار سنة ٧١٧(٥) . وأمضى ليون الايسوري خمسة أشهر بعد جلوسه على العرش في استكمال الاستعدادات التي بدأها الامبراطور السابق وتنظيم الدفاع عن القسطنطينية ضد الهجوم العربي المرتقب ، كما عقد اتفاقية صداقة مع ترفل خان البلغار ، الذي تعهد بموجبها أن يهاجم القوات العربية التي ستحاصر القسطنطينية .

في ١٥ آب سنة ٧١٧ ضرب الجيش العربي الحصار على القسطنطينية من جهة البر الاوروبي ، في حين احتل الاسطول العربي المكون من ١٨٠٠ سفينة (هذا العدد الذي يحدده تيوفانس مبالغ فيه) مدخل البوسفور الجنوبي وقطع الاتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة . وأراد سليمان قائد الاسطول العربي أن يعبر بسفنه البوسفور ليصل الى البحر الاسود كي يطوق القسطنطينية من الشمال ويقطع الامدادات العسكرية والتموينية التي تأتيها من شواطىء البحر الاسود الشمالية . وفي الثالث من أيلول هبت رياح جنوبية ملائمة لعبور البوسفور، فدخلته مجموعة من السفن العربية ، حيث اتجه بعضها نحو الشواطىء الآسيوية وبعضها الآخر نحو شواطىء

تراكيا الاوروبية ، في حين بقيت بعض السفن الحربية تحرس السفن المحملة بالمؤونة والعتاد . وفجأة غيرت الرياح اتجاهها وعصفت من جهة الشمال ، كما تدفق تيار مائي شديد من البحر الاسود الى بحر مرمرة ، فاختل سير السفن العربية وأخذت تتراجع مضطربة . انتهز الامبراطور ليون الايسوري هذه الفرصة المناسبة وأرسل بعض السفن البيزنطية المحملة بالنار الاغريقية المحرقة ، فاستطاعت هذه السفن أن تلحق أضرارا فادحة بالاسطول العربي وتجبره على التراجع نحو الجنوب . وفي اليوم التالي حاولت قوات الاسطول العربي أن تقتحم أسوار القسطنطينية من جهة البحر ، فاقتربت بعض السفن من الاسوار ونصبت عليها السلالم ، ولكن حامية المدينة أخذت ترشق السفن العربية بالنار اليونانية وغيرها من الاسلحة حتى أجبرتها على التراجع . كذلك أمر الامبراطور ليون بربط سلسلة حديدية في مدخل القرن الذهبي لتطوق السفن العربية اذا ما دخلت ذلك الممر المائي . لكن العرب علموا بهذه الخدعة ولم يحاولوا دخول القرن الذهبي ، بل انسحبوا من البوسفور وقادوا سفنهم لترسو على الشاطىء الاوروبي في خليج سوستنيا(٦) .

★ ★ ★

بعد فشل الاسطول العربي في العبور الى البحر الاسود واكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية ، وبعد فشله أيضا في اقتحام أسوار المدينة من جهة البحر ، لم يعد أمام القوات العربية الا أن تهاجم العاصمة البيزنطية من جهة البر . لكن المصادر العربية والمصادر اليونانية لم تذكر لنا أية محاولة جدية قام بها العرب لمهاجمة الاسوار من جهة البر . وعلى ما يبدو فان تفوق بيزنطة في الاسلحة والمنشآت الدفاعية لم يترك مجالا للعرب في اقتحام أسوار القسطنطينية . وعلى هذا لم يستطع العرب بأسلحتهم الهجومية البسيطة أن يدكوا تلك الاسوار المنيعة التي يصعب أخذها باسلحة ذلك العصر . بعد ذلك ظل العرب المسلمون يحاصرون القسطنطينية طيلة فصل الشتاء، رغم أن الطقس كان قارسا غير عادي ، حيث ظل الجليد يغطي منطقة تراكيا طيلة مئة يوم ، مما أدى الى موت عدد كبير من الجمال والخيول والجنود في معسكر المسلمين بسبب الجوع والبرد الشديد(٧) . ويذكر المؤرخ الطبري أن المصاعب التي عاناها الجنود العرب أمام جدران القسطنطينية لم يتعرضوا لمثلها من قبل ، حيث انهم اضطروا أن يأكلوا الحيوانات الميتة وقشور الشجر وكل شيء عدا التراب (٨) .

ولكي يعوض مسلمة بن عبد الملك الخسائر التي لحقت بمعسكر العرب المسلمين طلب امدادات عسكرية وتموينية من مصر وشمال افريقيا ، فجاءه من مصر في ربيع

سنة ٧١٨ اسطول (بقيادة أمير بحر يدعى سفيان) مؤلف من أربعمائة سفينة سريعة محملة بالحبوب ، كما جاءه من شمال افريقيا اسطول آخر (تحت امرة شخص يدعى يزيد) مؤلف من ثلاثمائة وستين سفينة كبيرة محملة بالسلاح والغذاء . وقد رست سفن الاسطول المصري على الشاطىء الاوروبي للبوسفور ، في حين رست سفن اسطول شمال افريقيا على الشاطىء الآسيوي للبوسفور . ويذكر تيوفانس أن بعض البحارة الاقباط الذين كانوا في الاسطول العربي تسللوا ليلا على زورق الى القسطنطينية وأخبروا الامبراطور البيزنطي عن الاسطولين الراسيين على شواطىء البوسفور . وقد أرسل الامبراطور مجموعة من السفن الحربية المجهزة بالنار اليونانية المحرقة ، فتمكنت تلك السفن أن تلحق اضرارا فادحة بقطع الاسطول العربي وتستولي على بعض السفن المحملة بالعتاد والمؤونة(٩) . بعد أن تلقى الاسطول العربي هذه الضربة القاصمة لم تعد المصادر تذكر شيئا عن محاولة قيامه بأية عملية حربية حتى تاريخ انسحاب القوات العربية من ضواحي القسطنطينية في الخامس عشر من آب سنة ٧١٨ . وهكذا لم يتمكن الاسطول العربي من تحقيق المهمة الحربية الاساسية الملقاة على عاتقه وهي محاصرة القسطنطينية من الجنوب والشمال ومنع وصول الامدادات والمؤونة اليها . فالسفن البيزنطية ظلت تخرج الى المياه المجاورة للعاصمة ، حتى أن صيادي السمك كانوا يصطادون قرب أسوار المدينة والجزر القريبة منها دون أن تتعرض لهم سفن الاسطول العربي(١٠) . ويذكر تيوفانس أيضا : أن بعض سكان القسطنطينية كانوا يخرجون منها على الخيول ويأتون بالمؤونة المتنوعة ، وهذا يدل على أن العاصمة البيزنطية ظلت تتلقى الامدادات العسكرية والتموينية من البر والبحر ، مما ساعدها على الصمود أمام الحصار العربي .

هذا وقد جاءت قوات برية جديدة من الشام بقيادة رجل يدعى مرداس ، فوصلت الى ثغر الابسيق في آسيا الصغرى . وكانت مهمة هذه القوات ان تمنع وصول الامدادات من هذا الثغر الى العاصمة البيزنطية المحاصرة . لكن هذه القوات العربية تعرضت للمقاومة من قبل جنود ثغر الابسيق والسكان المحليين ، الذين كانوا يشنون عليها حرب عصابات « كما يفعل المردة عادة »(١١) .

يضاف الى هذا أن الامبراطور ليون الايسوري استطاع أن يستميل الى جانبه ترفل خان البلغار ، فأخذت القوات البلغارية تغير على مؤخرة الجيش العربي الاسلامي الذي يحاصر القسطنطينية من الجانب الاوربي . وقد كان هذا التدخل البلغاري أحد العوامل التي لعبت دورا في فشل الحصار العربي للعاصمة البيزنطية .

ترتب على كل العوامل المذكورة آنفا أن اضطر الجيش العربي الاسلامي أن يرفع الحصار عن العاصمة البيزنطية ، بعد أن دام سنة كاملة .

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد توفي في خريف سنة ٧١٧ ، فخلفه عمر ابن عبد العزيز ، الذي رغب بتوجيه الجهود لتنظيم الدولة أكثر من الاهتمام بمتابعة الفتوح . وعلى هذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مسلمة بن عبد الملك يطلب منه أن يرفع الحصار ويعود بجيشه واسطوله الى الشام(١٢) .

وهكذا في ١٥ آب سنة ٧١٨ انسحبت القوات العربية البرية من المواقع المجاورة للقسطنطينية ، فعبرت بحر مرمرة الى الشواطىء الآسيوية ، ثم اجتازت آسيا الصغرى عائدة الى الشام في حالة سيئة . اما السفن المتبقية من الاسطول العربي فقد ابحرت عائدة ، ولكنها تعرضت لعواصف شديدة في بحر مرمرة وبحر ايجة الحقت بها بعض الخسائر . ويتابع المؤرخ البيزنطي حديثه قائلا : « بعد أن اجتازت السفن المتبقية بحر ايجة أصابها غضب الرب ، حيث هبطت عليها كرات نارية أدت الى غليان ماء البحر وذوبان القار (المادة اللاصقة لخشب السفن) ، مما أدى الى غرقها بمن فيها الى قاع البحر . هذا ولم تسلم سوى عشر سفن لتخبرنا وتخبر العرب عن عظمة الرب . ومن تلك السفن أسرت قواتنا خمس سفن ، فبقيت خمس سفن وصات الى سورية لتخبر العرب عن قدرة الرب »(١٣) . هكذا يبالغ المؤرخ البيزنطي تيوفانس في حجم الخسائر التي مني بها الاسطول العربي ، كما يصور الاحداث بلغة شبه اسطورية . على انه ليس من المستبعد أن تكون السفن البيزنطية السريعة (درومونة) المجهزة بالنار اليونانية المحرقة قد لحقت بالسفن العربية أثناء تراجعها ، فالحقت بها بعض الخسائر أيضا . وهكذا انتهت بالفشل هذه الحملة العسكرية الكبيرة التي شنها العرب المسلمون على العاصمة البيزنطية . وفي الواقع لاول مرة يلاقي العرب المسلمون مثل هذا الفشل في تلك العملية الحربية التي قاموا بها لاحتلال القسطنطينية(١٤) .

ان فشل العرب المسلمين في احتلال القسطنطينية أكد لهم انهم مهما ملكوا من سفن حربية فانهم لايستطيعون احتلال العاصمة البيزنطية دون ان يثبتوا اقدامهم ويوطدوا سيطرتهم في المناطق المجاورة لها ، ولذا لم يحاولوا فيما بعد القيام بمثل هذه العملية . على أن العرب المسلمين ، رغم فشلهم في احتلال القسطنطينية ، استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على كثير من مواني البحر الابيض المتوسط وخطوطه، خاصة في حوضه الغربي . ومن جهة ثانية ، رغم أن الاسطول البيزنطي تمكن من الحاق الخسائر بالاسطول العربي في المياه القريبة من القسطنطينية ، لكنه في الواقع لم يستطع حتى ذلك الحين ان يفرض سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط أو على الجزر والطرق القريبة من العاصمة البيزنطية . فلو كان الاسطول البيزنطي يسيطر

تماما على مدخل بحر مرمرة أو بحر ايجة أو الجزر المجاورة لما تمكن الاسطول العربي أن يصل البوسفور ويحاصر القسطنطينية طيلة عام كامل .

★ ★ ★

بعد الضربة القاسية التي تلقتها الاساطيل العربية الثلاثة (اسطول سورية ، اسطول مصر ، اسطول شمال افريقيا) أثناء حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ – ٧١٨ لم يستطع العرب المسلمون استعادة قوتهم البحرية السابقة طيلة القرن الثامن . ففي سورية ومصر لوحظ تقلص ملموس في صناعة السفن الحربية مدة بضع عشرات من السنين ، كما توقف العرب المسلمون تقريبا عن شن حملات بحرية في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . أما في شمال افريقيا فقد استمرت صناعة السفن الحربية ، كما كثرت غارات العرب المسلمين من شواطئها على صقلية وسردينية واستمرت حتى منتصف القرن الثامن الميلادي . ومن العوامل التي أدت الى انحسار نشاط الاسطول العربي في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي تخلي الخلفاء الامويين اللاحقين عن فكرة احتلال القسطنطينية ، بعد الفشل الذي لاقاه العرب المسلمون في حملة سنة ٧١٧–٧١٨ . وعلى هذا لم يعد هؤلاء الخلفاء يوجهون اهتمامهم لتطوير القوات البحرية . ومن جهة ثانية انشغل الخلفاء الامويون المتأخرون باخماد حركات التمرد وتثبيت سلطتهم داخل البلاد .

أما البيزنطيون فقد استغلوا ظروف الدولة الاموية المضطربة في أواخر عهدها ، فاخذوا ينشطون عملياتهم الحربية في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . ويذكر المؤرخ البلاذري أن البيزنطيين أغاروا على ساحل سورية في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مئة هجرية (٧١٩ ميلادية) ، فهدموا مدينة اللاذقية وأسروا الكثير من أهلها (١٥) . كما يذكر المؤرخ الكندي أن البيزنطيين أغاروا على تينيس في دلتا النيل بمصر سنة احدى ومائة هجرية (٧٢٠ ميلادية)(١٦) ، ثم أعادوا غارتهم على مصر سنة ٧٢٥ ميلادية(١٧) . هذه الغارات البيزنطية المتكررة على سواحل مصر والشام دفعت الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يخفض مقدار الفدية عن أهل قبرص (وكان عبد الملك بن مروان قد زاد عليهم الف دينار عن صلح معاوية) (١٨) ، ذلك أنه خشي أن ينقلبوا الى جانب البيزنطيين وهو لايملك القوة البحرية الكافية للدفاع عن هذه الجزيرة .

على أن الصراع الداخلي على الحكم في بيزنطة واشتراك الاسطول البيزنطي في هذا الصراع أجبر البيزنطيين على ايقاف الغارات البحرية على السواحل العربية لفترة

وجيزة . ففي سنة ٧٢٦ أغار اسطول الادا وكيكلادا على القسطنطينية ، بغية عزل الامبراطور ليون الايسوري عن العرش البيزنطي وتنصيب قائد الاسطول كوسموس مكانه ، ولكن اسطول القسطنطينية تمكن من تحطيم الاسطول المهاجم(١٩) . استغل الخليفة هشام (٧٢٤ ــ ٧٤٣) الوضع المضطرب في بيزنطة ، فارسل اسطولا من الشام الى قبرص سنة ٧٢٦ وفرض على أهلها دفع الفدية بمقدار ماكانت عليه قبل أن يخفضها عنهم الخليفة السابق عمر بن عبد العزيز(٢٠) .

لكن ازدياد اضطراب الاوضاع الداخلية في الدولة الاموية في الربع الثاني من القرن الثامن أجبر العرب المسلمين في الشام على ايقاف العمليات البحرية ، في حين جدد البيزنطيون نشاطهم البحري في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي ، خاصة بعد أن وطد الامبراطور ليون الايسوري حكمه في القسطنطينية . ففي سنة ٧٣٦ ميلادية (١١٨ هجرية) أغار الاسطول البيزنطي على مصر وأسر الكثير من أهلها (٢١) . وفي سنة ٧٣٩ ميلادية (١٢١ هجرية) أغار اسطول بيزنطي مؤلف من ٣٦٠ سفينة على دمياط ، فقتل الكثير من العرب المسلمين وأسر بعضهم(٢٢) . وقد كان الهدف من هذه الغارات البيزنطية المتكررة على الموانى المصرية هو عدم افساح المجال لتطوير الاسطول المصري .

واذا كان العرب المسلمون قد أوقفوا نشاطهم البحري تقريبا في أواخر العهد الاموي ، فانهم حاولوا أن يعوضوا عن ذلك بتنشيط العمليات الحربية البرية في آسيا الصغرى . فالمؤرخ البيزنطي تيوفانس يذكر أن العرب المسلمين شنوا حملة عسكرية على آسيا الصغرى سنة ٧٣٩ ، وكانت تلك الحملة مؤلفة من تسعين الف جندي موزعين على أربع فرق بقيادة أربعة من القادة الكبار . ولكن الامبراطور البيزنطي ليون الايسوري تصدى لتلك القوات العربية الاسلامية بنفسه ، فتمكن من الحاق الهزيمة بها في موقعة جرت بين الطرفين (سنة ٧٤٠) في مكان يدعى أكرويتون بالقرب من عمورية (٢٣) .

وفي الاربعينيات من القرن الثامن توتر الصراع بين البيزنطيين والعرب المسلمين من أجل السيطرة على جزيرة قبرص ، لما لها من أهمية ستراتيجية بالنسبة لكلا الطرفين . فعلى ما يبدو حرض البيزنطيون أهل قبرص على قطع الفدية السنوية التي كانوا يؤدونها للعرب المسلمين ، وهذا مما دفع الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (٧٤٣ ــ ٧٤٤) أن يبعث بحملة عسكرية الى قبرص كي يرغم أهلها على دفع الفدية المفروضة عليهم . ولكي يضمن العرب المسلمون استمرار القبارصة في دفع الفدية لهم جابوا معهم الى الشام عددا كبيرا من الرهائن من أهل قبرص .

على أن هؤلاء الرهائن أعيدوا الى بلدهم بعد مضي عام على احتجازهم - أي في عهد الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك (٢٤) . ولكن ما ان انتهى الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس من صراعه الداخلي مع القائد المتمرد عليه ارتاباسدوس حتى بعث بحملة بحرية الى قبرص جهز سفنها بالنار اليونانية المحرقة . ردا على ذلك ابحرت بعض السفن من سورية الى الاسكندرية ، ومنها انطلقت مع السفن المصرية الى قبرص (سنة ٧٤٧) لطرد الاسطول البيزنطي من هذه الجزيرة . على أن قائد الاسطول البيزنطي نصب كمينا للسفن العربية فطوقها في ميناء كيرامسن واحرق معظمها . ويذكر المؤرخ تيوفانس أنه لم يبق من السفن العربية ، التي بلغ عددها ألف سفينة (العدد مبالغ فيه) ، سوى ثلاث سفن لاذت بالفرار (٢٥) .

★ ★ ★

ان تحطيم الاسطول العربي في سواحل قبرص سنة ٧٤٧ مكن البيزنطيين من فرض سيطرتهم على تلك الجزيرة وعلى الطرق التجارية البحرية في حوض البحر المتوسط الشرقي . أما العرب المسلمون فلم يستطيعوا استعادة قوتهم البحرية طيلة النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي . لقد توقفت عمليات الاسطول المصري مدة طويلة من الزمن ، حيث أنه فقد قدرته القتالية . فالمصادر لم تعد تذكر لنا أية عملية بحرية قام بها الاسطول المصري حتى منتصف القرن التاسع الميلادي . غير ان الاسطول السوري استعاد بعض قوته في الربع الاخير من القرن الثامن . فالعباسيون الاوائل بعد أن وطدوا حكمهم في الداخل أخذوا يوجهون الحملات البرية والبحرية الى الاراضي البيزنطية ، ففي سنة ٧٧٢ (١٥٧ هـ) قام القائد العباسي ثمامة بن أبي وقاص بحملة برية وبحرية الى شواطىء ايسوريا في جنوب آسيا الصغرى ، فتصدت له القوات البيزنطية البرية والبحرية وتمكنت من قطع الاتصال بين القوات البرية والقوات البحرية العربية . ولكن ثمامة استطاع الافلات من الحصار وعاد بقواته البرية الى الشام ، في حين تراجعت السفن العربية الى قبرص ، فتمكنت أن توقع في الاسر حاكم الجزيرة البيزنطي المدعو سرجيوس(٢٦) . وعلى ما يبدو فان العرب المسلمين تمكنوا آنئذ أن يفرضوا سلطتهم على قبرص ، بعد أن كانوا قد أجلوا عنها سنة ٧٤٧ . وفي سنة ٧٨٢ توغلت قوات العرب المسلمين في آسيا الصغرى ، فغلبوا البيزنطيين في درنون ووصلت طلائعهم الى شواطىء البوسفور . وعلى هذا اضطرت الامبراطورة ايرين أن تدفع فدية سنوية مقدارها سبعون (أو تسعون) ألف دينار للعرب المسلمين مقابل ايقاف غاراتهم على الاراضي البيزنطية . ولكن العرب المسلمين أغاروا على الاراضي البيزنطية سنة ٧٨٤ ، فاستولوا على ثيباسة في كابادوكيا . كذلك تجدد

الصراع البيزنطي العربي من أجل السيطرة على قبرص . ففي سنة ٧٩٠م أسر الاسطول البيزنطي بعض السفن العربية وهي في طريقها من مصر الى الشام وفي السنة نفسها اغار الاسطول العربي من الشام على قبرص فهزم الاسطول البيزنطي هناك واسر قائده تيوفيلوس(٢٧) . وفي سنة ٧٩٨ توغلت القوات العربية البرية في آسيا الصغرى واكتسحت كابادوكيا ، فاضطرت الامبراطورة ايرين أن تدفع لهارون الرشيد الفدية السنوية التي كانت قد دفعتها للمهدي من قبل(٢٨). وهكذا كانت بيزنطة في أواخر القرن الثامن في حال من الضعف (بسبب الاضطرابات الداخلية) لا يسمح لها أن تتصدى لهجمات القوات العربية ، مما اضطرها أن تدفع الذهب البيزنطي للعرب المسلمين ثمن التوقف عن شن الحملات الحربية على أراضيها ومياهها .

★ ★ ★

واذا كان الاسطول المصري والاسطول السوري قد توقفا عن شن الحملات البحرية على السواحل البيزنطية لفترة طويلة ، حيث فقدا قدرتهما القتالية بعد الضربة القاصمة التي تلقياها أثناء حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ — ٧١٨ ، فان اسطول شمال افريقيا تابع نشاطه البحري في حوض البحر الابيض المتوسط الغربي . فقد استمر بناء السفن الحربية في ميناء تونس ، مما مكن عرب شمال افريقيا من شن الحملات البحرية على جزر البحر المتوسط الغربية ، دون مساعدة او مشاركة الاسطول المصري أو السوري . ففي سنة ٧٢٠ أغار اسطول شمال افريقيا على جزيرة صقلية وجلب منها الغنائم الكثيرة(٢٩) . وفي سنة ٧٢٧ (١٠٩هـ) أغار والي شمال افريقيا بكر بن صفوان باسطوله على صقلية وعاد منها محملا بالغنائم(٣٠) . وبعد سنتين — اي في سنة ٧٢٩ بعث والي شمال افريقيا عبيدة بن عبد الرحمن حملة بحرية الى صقلية بقيادة أمير البحر المستنير بن الحارث ، ولكن تلك الحملة طالت اقامتها في صقلية حتى الخريف ، مما عرضها لعاصفة بحرية أثناء تراجعها ، فغرقت معظم السفن . وقد عاقب والي شمال افريقيا قائد الحملة البحرية على الخطأ الذي ارتكبه ، اذ أركب على حمار في شوارع القيروان وضرب بالسوط لمدة اسبوع ثم أودع السجن(٣١) .

تلك الغارات المستمرة التي شنها الاسطول التونسي على صقلية دفعت البيزنطيين أن يبعثوا باسطول مجهز بالنار اليونانية المحرقة لحمايتها . ففي سنة ٧٣٣ (١١٦ هـ) اصطدم الاسطول التونسي مع الاسطول البيزنطي في سواحل صقلية، فوقع في الاسر بعض المسلمين وقائدهم عبد الرحمن بن زياد(٣٢) ولكن العرب المسلمين

لم يتراجعوا عن هدفهم في احتلال صقلية ، بل استمروا في تنشيط الاستعدادات البحرية . فلقد اهتم والي شمال افريقيا عبيد الله بن الحباب اهتماما كبيرا بتوسيع دار صناعة السفن في تونس ، حتى قيل عنه فيما بعد (خطأ) أنه هو الذي أسس دار صناعة السفن في تونس(٣٣) . ويذكر المؤرخ ابن الاثير : أن اسطول تونس بقيادة حبيب الفهري اغار في سنة ٧٣٥ على سردينيا وعاد منها محملا بالغنائم(٣٤) . وفي سنة ٧٤٠. قاد حبيب الفهري اسطولا يحمل قوات برية كبيرة الى صقلية ، فانتصر على الاسطول البيزنطي المرابط هناك ، كما تقدمت القوات البرية بقيادة ابنه عبد الرحمن الى سيراكوزة عاصمة صقلية ، فسقطت تلك المدينة بأيدي العرب المسلمين. وقد صمم حبيب الفهري على البقاء في صقلية حتى يحتل جزر البحر المتوسط الغربية الاخرى ، الا أن والي شمال افريقيا استدعاه وقواته الى تونس ليساعده في اخماد ثورة البربر والخوارج التي نشبت آنئذ في شمال افريقيا(٣٥) . هذا وقد ادى انشغال العرب المسلمين باخماد ثورة البربر والخوارج في شمال افريقيا الى توقف نشاط الاسطول التونسي في حوض البحر المتوسط الغربي طيلة اثني عشر عاما. فالمصادر التاريخية لم تعد تذكر شيئا عن عمليات الاسطول التونسي في البحر المتوسط حتى سنة ٧٥٢ . ففي تلك السنة قاد عبد الله بن حبيب الفهري حملة الى صقلية ، فغنم منها مالم يغنمه غيره من قبل(٣٦) . وفي سنة ٧٥٣ (١٣٦ هـ) ايضا قاد عبد الرحمن بن حبيب الفهري حملة بحرية الى سردينيا وفرض الجزية على سكانها(٣٧) .

كان الهدف من تتابع الحملات البحرية العربية على جزر البحر المتوسط الغربية في الربع الثاني من القرن الثامن هو تحقيق أهداف ستراتيجية ـ عسكرية واقتصادية. لقد أراد العرب المسلمون السيطرة على تلك الجزر لاستخدامها كقواعد عسكرية لهم ينطلقون منها الى الشواطىء الاوروبية والبيزنطية ، كما أرادوا أيضا حماية خطوطهم التجارية البحرية الممتدة من اسبانيا حتى سورية .

على أن انشغال العرب المسلمين باخماد ثورة البربر والخوارج في شمال افريقيا مكن البيزنطيين من توطيد سلطتهم في صقلية وتقوية وسائل الدفاع عنها . ففي سنة ٧٣٢ ضمت هذه الجزيرة مع جنوب ايطاليا الى الممتلكات البيزنطية ، بعد أن كانت تابعة لبابا روما ، وذلك بسبب الخلاف الذي نشب بين البابا والامبراطور البيزنطي ليون الايسوري حول تقديس الايقونات . وفي عهد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس ٧٤١ ـ ٧٧٥ سيطرت القوات البيزنطية سيطرة تامة على جزيرة صقلية ، ويشير المؤرخ ابن الاثير الى ذلك فيقول: عندما انشغل والي افريقيا بالصراع مع البربر صار سكان صقلية يعيشون بأمان ، حيث أن البيزنطيين أقاموا فيها حصون دفاعية ودعموها بالمقاتلين ، كما أخذت سفنهم تقوم بدوريات حراسة حول الجزيرة ،

فتأسر ما تصادف من سفن التجار المسلمين(٣٨) . كما أننا نعلم من المصادر اليونانية أن البيزنطيين قد شكلوا في صقلية (في منتصف القرن الثامن) ثغرا بحريا مستقلا يتولى الدفاع عن الجزيرة . وعلى هذا ساد الهدوء تقريبا في مياه حوض البحر المتوسط الغربي طيلة النصف الثاني من القرن الثامن . لقد توقف نشاط الاسطول التونسي في تلك الفترة بسبب ازدياد قوة الدفاع البيزنطية في صقلية من جهة ، واضطراب الاوضاع الداخلية في شمال افريقيا من جهة ثانية . وتجدر الاشارة الى ان الاسطول التونسي سيجدد نشاطه في حوض البحر المتوسط الغربي في بداية القرن التاسع أثناء حكم الاغالبة في شمال افريقيا ، كما سينشأ اسطول عربي آخر في اسبانيا ويقوم بعمليات حربية في حوض البحر المتوسط الغربي في أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع .

* * *

مصادر ومراجع

(١) الدكتور نعيم فرح : اطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ البيزنطي من جامعة لينينغراد سنة١٩٧١ موضوعها : ((العلاقات البحرية بين بيزنطة والعرب في القرنين السابع والثامن)) ، وهي مكتوبة باللغة الروسية (غير مترجمة) وتتضمن دراسة لأوراق البردي المصرية المكتوبة باللغة اليونانية . والتي تتحدث عن بناء السفن الحربية في مصر في بداية القرن الثامن الميلادي : الاطروحة صفحة ٢٦٧ - ٢٩٣ .

الحواشي :

(٢) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٥٨٨ - ٥٩١ .

(٣) Nicephori Archiepiscopi Constantino-politeni, Historica, edidit, Carolvs de Boor, Lipsiae, 1880, P. 52-53.

نقفور - بطريرك القسطنطينية ، تاريخ ، ص٥٢ - ٥٣ ، انظر الترجمة الروسية في المسلسل البيزنطي B.B الجزء الثالث ، ص ٣٧٣ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، أخبار سنة ٩٨ هجرية .

(٥) Bury. J. B. History of Later Roman Empire, 1, 1931, P. 388.

(٦) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص . ٦٠٧ - ٦١١ ، نقفور بطريرك القسطنطينية : تاريخ ، ص ٥٢-٥٥ .

(٧) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص ٦٠٧ - ٦١١ .

(٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (أخبار سنة ٩٨ هجرية) .

(٩) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص ٦٠٧ - ٦١١ .

(١٠) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٠٧ - ٦١١ .

(١١) المصدر نفسه والصفحات نفسها .

(١٢) الدكتور ابراهيم أحمد العدوي : الامويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٢٣ .

(١٣) تيوفانس : خروذوغرافيا ، ص ٦١٣ - ٦١٤ .

(١٤) Ekkehard Eickhoft, Seekrieg und Seepolitik Zwischen, Islam und Abendland das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonie (650-1040), Berlin, 1966, S. 32-35.

(١٥) البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة السعادة بمصر ، ص ١٣٩ .

(١٦) El-Kindi, The Governors and jadges of Egypt. Leyden, 1912, P. 70.

(١٧) Wiet. G. S., Egypt Arabe, Paris, 1937, P. 56.

(١٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٥٩ ١.

(١٩) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٢٣ – ٦٢٤ .

(٢٠) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ .

(٢١) الكندي : كتاب الولاة والقضاة في مصر ، لندن ١٩١٢ ص ٧٩ .

(٢٢) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، بولاق ١٨٥٣ ، ص ٩ .

(٢٣) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٣٣ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ((وحدثني هشام بن عمار الدمشقي قال : حدثني الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو : ان معاوية بن ابي سفيان غزا قبرس بنفسه ومعه امراته ففتحها الله فتحا عظيما وغنم المسلمون غنما حسنا ، ثم لم يزل المسلمون يغزونهم حتى صالحهم معاوية في ايامه صلحا دائما على سبعة الاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين وانذارهم عدوهم من الروم هذا أو نحوه . قالوا : وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك أجلى منهم خلقا الى الشام لامر اتهمهم به فانكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم ... وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده ، قال: لم يزل اهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم . ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردها فجرى ذلك الى خلافة أبي جعفر المنصور ، فقال : نحن أحق من انصفهم ولم نتكثر بظلامهم فردهم الى صلح معاوية)) .

(٢٥) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٥٣ .

(٢٦) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٨٨ – ٦٩٠ .

(٢٧) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٧٢٠ – ٧٢١ . انظر ، فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، الكتاب الاول ، ص ٣٨٤ .

(٢٨) انظر ، الدكتور أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

(٢٩) النويري : .... : ج ٢ ص ٢٥٢ ؟

(٣٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، طبعة برلين ١٨٧١ ، ج ٥ ، ص ١٠٨ .

(٣١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

(٣٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٣٧ .

(٣٣) ابن عذاري : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٩ .

(٣٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤١ - ١٤٥

(٣٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤١ - ١٤٥

(٣٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

(٣٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

* * *

مَعَانُ وَجِوَارُهَا

« استِعراضٌ تاريخي »

د . محمد عدنان البخيت

الجامعة الاردنية

تفيد المادة التاريخية المتوافرة في المصادر العربية الاسلامية أن عددا من العشائر العربية كانت قد انتشرت بشكل كبير ووسع في مناطق جنوبي بلاد الشام جوار أيله(١) ، معان(٢) ، الشوبك ، الطفيلة والكرك(٣) . وكان أهل الحجاز عشية الدعوة النبوية ، وخاصة أهالي مكة المكرمة ، على اتصال مع تلك العشائر عن طريق التجارة ، كما وانهم كانوا على المام بجنوبي الشام(٤) . ومن العشائر التي تذكرها المصادر اضافةالى عشائر الغساسنة(٥) ، عشائر : لخم(٦) ، جذام(٧) ، بلقين(٨) ، وبلي(٩) .

ونظرا للزيادة المستمرة في اعداد هذه العشائر ، فقد رأى البيزنطيون تنظيم علاقات هذه العشائر مع جهازهم الاداري ذي الصبغة العسكرية ، لتوفير الأمن والاستقرار في تلك التخوم المجاورة لجزيرة العرب . فنصبوا شخصا من قبيلة جذام اسمه فروة ابن عمرو بن النافرة الجذامي ، ليكون عاملا للبيزنطيين على العرب . « وكان منزله في معان وما حولها من أرض الشام » .

ويستفاد من أخبار العهد النبوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد راسل فروة هذا وبعث اليه السائب بن العوام ، اخا الزبير حيث اعتنق فروة الاسلام على يديه . كما وأن فروة أرسل من جانبه رسالة الى الرسول (صلعم) مع هدية . وجاء في رسالته تلك ما يلي :

« لمحمد رسول الله :

اني مقر بالاسلام مصدق به . أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، أنت الذي بشر بك عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام » .

وأجاب « صلعم » من جانبه بهذا الكتاب

« من محمد رسول الله الى فروة بن عمرو

اما بعد ، فقد قدم علينا رسولك ، وبلغ ما ارسلت به ، وخبر عما قبلكم ، واتانا باسلامك وأن اله هداك بهداه ، ان اصلحت واطعت الله ورسوله واقمت الصلاة واتيت الزكاة » .

وكما يظهر فان المسؤولين البيزنطيين كانوا قد علموا باسلام فروة هذا ، فالقوا القبض عليه وحبسوه ثم صلبوه عند ماء عفراء بالقرب من الطفيلة .

ويورد لنا أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ/ ٨٢٨م) نقلا عن محمد بن اسحق (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) شعرا قاله عندما قدم للصلب ، منه :

بلـغ سـراة المسلمـين بأننـي سلم لربي أعظمي ومقامي(١٠)

على أية حال ان كان فروة قد قال هذا الشعر أم قيل نيابة عنه ، فـان المادة التاريخية المتوافرة في المصادر سواء كانت على شكل حكايات وقصص أو ما جاء منها في أشعار حسان بن ثابت ، جميعها تشير الى أن أهالي مكة كانوا على معرفة بجنوبي بلاد الشام وعلى المام بمعان كموقع ومنزل على طريق مكة . كما وأنها تدل على أن معان في المرحلة السابقة لانتشار الاسلام لم تكن دار حجر بل كانت منطقة تجمع للعشائر تطؤها بحثا عن الماء نظرا لوفرة ينابيعها .

وتبين المصادر الاسلامية المبكرة أن المسلمين عند خروجهم سنة ٨هـ / ٦٢٩م ، في حملة مؤته ، كانوا قد ساروا حتى نزلوا في معان وأقاموا فيها ليلتين لينظروا في أمرهم ، حيث أن الأخبار كانت قد جاءتهم عن وجود تحشدات لعشائر لخم وجذام وبلقين وبلي مع جيش البيزنطيين لمواجهة حملة المسلمين . وبعد مداولات قادة الحملة استقر الرأي على مواجهة البيزنطيين . وتورد المصادر هنا شعرا منسوبا لعبد الله بن رواحة الانصاري الخزرجي ، شاعر الرسول ، واحد قادة تلك الحملة ومن الشهداء الذين سقطوا فيها ، يذكر فيه معان ومآب حيث يقول :

جلبنـا الخيـل مـن أجأ وفرع تغـر من الحشيش لهـا العكـوم
أقامت ليلتيـن علـى معـان فأعقـب بعـد فترتهـا جمـوم
فـلا وابـي مـآب لنأتينهـا وان كانـت بها عرب وروم(١١)

بعد قيام خلافة بني امية في دمشق الشام ، بدأ قسم من العشائر العربية ، خاصة الموالية لبني امية ، بالاستقرار في جنوبي الشام ، كما أن عددا من زعماء بني امية استقروا في تلك البقاع . فمثلا يذكر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) أن ابان بن سعيد بن العاص بن أحيحة كان ينزل في أيلـه للعزلة (١٢) وان عددا كبيرا من بني امية والموالين لهم سكنوا في معان وتصف المصادر التاريخية معان على أنها « مدينة صغيرة عمّرها طائفة من بني أمية وسكنوها وأنها على شفير البادية » بل زيادة على ذلك تضيف المصادر قولها « وفيهم لبني السبيل مرفق »(١٣) .

ومن المواقع التي استقطبت العشائر للسكن حولها والاقامة فيها كانتا أذرح والحميمة ، فمن المعروف أن علي بن عبد الله بن العباس كان قد أقام بعد سنة ٧١ هـ/٦٩٥ م في الحميمة . كما وأن ابنه محمد كان قد اتخذ له فيما بعد ، مقرا جديدا في موقع كداد . ويلاحظ أنه عندما قصد أحد دعاة العباسيين واسمه بكير ، بلاد الحميمة متخفيا على هيئة عطّار مرّ في طريقه ببعض قرى الشراة(١٤) . من كل هذا يتضح لنا أن المناطق الجنوبية لبلاد الشام كانت قد عرفت الاستقرار السكاني في القرى ، وأن العرب ، سواء المستقر منهم أو الذي حافظ على بداوته ، هم العنصر السكاني الغالب في تلك المنطقة .

من الملاحظ أن عدد أفراد العشائر في بادية الشام قد ازداد آنذاك مع استقرار الحكم لبني أمية ، مما اضطر الامويين الى بناء عدد من القصور والقلاع على سيف الصحراء ليكونوا على مقربة من مراكز تجمع العشائر لسهولة ضبط تحركاتها والسيطرة عليها(١٥) . ولكن محاولة استقرار العشائر التي بدأت في العهد الاموي لم يكتب لها النجاح ، لسقوط الخلافة الاموية ونجاح بني العباس في دعوتهم من جهة ، وكذلك لانتقال العاصمة من دمشق الى الكوفة ومن ثم الى بغداد من جهة أخرى . هذا مما ادى الى قيام عدد من العشائر الموالين لبني العباس في الانتقال الى بلاد العراق . كما وأن اضطراب الامن الناتج عن سقوط الخلافة وانتقال العاصمة ، أدى الى خراب المراكز الناشئة مثل معان ، حيث يصفها الجغرافيون ، فيما بعد ، كأبي الفداء بقوله : « وهو معان حصن من الشراة أقول وهي الان خراب ليس فيه أحد » . وتحولت معان من مدينة صغيرة الى منزلة على آخر حدود بلاد الشام تطؤها الحجاج و « تقام بها سوق في غدوهم ورواحهم »(١٦) .

اذا ما تقصينا كتب التراجم والطبقات فاننا لا نجدها تذكر أسماء من معان او من نواحيها ، اللهم الا الحسن بن علي بن عيسى الازدي المعاني الذي يجيء ذكره

في مصادر أخرى على أنه من أهالي القسطل جنوبي عمان حاليا . ويذكر على أنه من رواة الحديث المجرحين الذين لا يؤخذ عنهم بأي حال من الاحوال بالرغم من زعمه نه روى عن ثقات . لذا نجد أن الامام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤ هـ/٩٦٥ م) يحذر من الرواية عنه ، ويوردحديثا مرويا بسنده على النحو التالي :

« روي عن مالك عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج ، فاذا كان ليلة المزدلفة غفر الله عز وجل للتجار ، فاذا كان يوم منى غفر الله للحمامين ، فاذا كان يوم جمرة العقبة غفر الله عز وجل للسؤال ، فلا يشهد بذلك الموضع أحد الا غفر له »(١٧) . ويورد محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) ، حديثا برواية الحسن الازدي المعاني هذا ، بالنص التالي :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا الشجرة وفاطمة أصلها وعلي لقاحها ، والحسن والحسين ثمرها »(١٨) .

فقدت معان مكانتها وأهميتها بحيث أن المصادر لم تعد تذاكرها . فاذا ما عدنا الى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، عندما كانت بلاد الشام الجنوبية تحت الحكم الفاطمي ، نجد أن المنطقة وقعت تحت سيطرة عشائر طيء . الا أن فروع جذام حافظت على وجودها في منطقة مدين وأيلة ومعان واذرح والشراة . لكنها في ذات الوقت لم تكن صاحبة نفوذ سياسي على غرار ما بلغت عشائر طيء التي يتزعمها آل الجراح بقيادة حسان ابن الجراح(١٩) . ومما يذكره الامير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحي (ت ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م) ، في أخبار سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م ، أن حسان نهب أيلة « وأخذ منها نحو الثلاثة آلاف دينار وما وجده بها من غلة وسبى نساءها وأطفالها » . زيادة على ذلك تعرضت العشائر العربية على طريق الحاج المصري لقائد الحاج من المغاربة والمصاروة بحيث اضطر « للعودة الى القاهرة على أقبح صورة وبطل حجهم وحج غيرهم من مصر في هذه السنة »(٢٠) .

بقيت المنطقة تعاني من الاضطرابات على يد العشائر العربية الى أن قامت امارة الايوبيين في بلاد الكرك . عند ذلكبدات حدتها تخف تدريجيا ، خاصة بعد القضاء على الوجود الافرنجي سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م في تلك الديار(٢١) . وعلى الاغلب أن الايوبيين قد نجحوا في وضع حد لتعاون العشائر العربية في تلك المنطقة

مع الفرنجة(٢٢) . كما وانهم تمكنوا أيضا من ضبط تعديات هذه العشائر على قوافل الحاج والتجار وهي في طريقها الى مصر أو الى الحجاز .

وعندما آل الامر الى المماليك أبقوا التقسيمات الادارية لبلاد الشام على ما هي عليه ، ومنها نيابة الكرك أو مملكة الكرك(٢٣) ، كما تسميها بعض المصادر . والمعروف أن معان كانت تشكل ، في ذلك الوقت ، العمل الرابع في نيابة الكرك . الا أن المصادر المملوكية الموسوعيه منها تؤكد على أن معان قد « خربت هي وعملها ولم يبق بهـا أحـد »(٢٤) .

ويستفاد من كتب الانساب أن سكان المنطقة في العهد المملوكي كانوا من عشائر جذام التي ينتسب اليها بنو صخر ، وكذلك من عشائر بني عقبة الجذامية ايضا التي كانت منازلها تمتد من الكرك الى الازلم في برية الحجاز . كما وتشير المصادر أيضا الى وجود عشائر بني لام(٢٥) .

وتجيء أخبار المصادر عن معان وما جاورها من الاماكن على شكل نتف متفرقة. فعلى سبيل المثال يذكر أبو الفداء اسماعيل بن عمر الشافعي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢ م) ، في أخبار سنة ٦٩٢ هـ/١٢٩٢ م ، أن ريحا عاتية كانت قد هبت على الحجاج في معان « مات بسببها جماعة وحملت الريح جمالا عن أماكنها وطارت العمائم عن الرؤوس واشتغل كل احد بنفسه » ، والجدير بالذكر أن الشيخ تقي الدين احمد بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨ هـ/١٣٢٨ م) كان من المرافقين للقافلة في تلك السنة (٢٦) . ويورد شمس الدين محمد بن طولون (ت ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م) ، في أخبار ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م ، أن تاجرا شاميا كان قد فقد في معان عند عودته مـن الحجاز مع قافلة الحاج(٢٧) . وتكرر مثل هذا الامر ، ولكن على نطاق واسع سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ م ، حيث هاجمت الاعراب الحجاج قرب معان و « قبض العرب عليه (الحاج) وعلى أكابره . أما أمير الركب قاتله الله فكابر وبرز بحريمه وجماعته من الحاج ، فطمع فيه ، ثم اشترى الحاج نفسه بمال كبير ثم لما وصلوا الى الحسا نهب المال والحريم ولم يدخل الى دمشق جمل من الحاج ، ومات نساء كثير ، بردا وجوعا وكذلك الاطفال وذهب جماعة منهم الى الشوبك ولم نسمع بمثل ما جرى عليهم ولا قوة الا بالله »(٢٨) . وعن هذا الاعتداء يقول مجير الدين العليمي الحنبلي (ب ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م) : « وكان عدة جمال الركب ثلاثة عشر ألف جمل لم يسلم من ذلك سوى ستة عشر جملا من غير أحمال وهلك من الرجال والنساء والاطفال خلق لا يحصيهم الا الله تعالى وأخذت الاموال وسبي الحريـم وكانـت حادثـة فاحشـة . . . »(٢٩) .

نظرا للهجمات المتكررة التي قام بها البدو على قافلة الحاج فان نائب الشام جان بلاط قام بشن حملة(٣٠) على عرب بني صخر سنة ٩٠٥ هـ/١٤٩٩ م ، ولكنها لم تكن رادعا كافيا لهم ، اذ أن هذه العشائر عادت في العام التالي وهاجمت الحجاج عند الحسا . لذا ، رات الدولة أن تعمد الى أسلوب جديد يتمثل في ارسال عساكر الى كل من الحسا ومعان لاستقبال قافلة الحاج وحراستها في طريق عودتها .

اضافة الى ذلك قامت الدولة المملوكية بتكثيف حملاتها على العشائر العربية لتضع حدا لاعتداءاتها المستمرة على القوافل . ففي سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وصلت أنباء الى نائب الشام تفيد بأن أمير العرب المعروف باسم جغيمان قد أقام على معان بنية مهاجمة قافلة الحاج أثناء عودتها . فبادر نائب الشام ، بمؤازرة نائب القدس ، بالاعداد لمباغتة امير العرب . وعندما علم جغيمان بوصول النائب قرب معان ، هرب بعربة الى بلاد الجوف . الا أن النائب تمكن من الظفر ببعض عرب جغيمان وغنم اعدادا من الجمال والغنم ، وعاد برفقة القافلة(٣١) .

ومن أجل قطع دابر الاعراب خرجت سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م قوات من كل من دمشق والقاهرة لتأديب العشائر العاصية . وتمكنت جيوش السلطنة من الانتصار عليها . وما أن وصلت أخبار هذا الانتصار الى القاهرة حتى « أمر السلطان بدق الكوسات بالقلعة وكانت القاهرة مزينة من حين دخل العسكر فصارت الفرحة فرحتان »(٣٢) .

لقد تميز القرن السادس عشر الميلادي ، من مطلع العهد العثماني في بلاد الشام ، بالاستقرار وبضبط حركات العشائر العربية واعتداءاتها على قافلة الحاج الشريف ، وذلك بانشاء شبكة من القلاع الممتدة على موازاة طريق القافلة . فيذكر نجم الدين محمد الغزي (ت ١٠٦١ هـ/١٦٥٠ م) عن الاجراءات التي قام بهاالسلطان سليمان القانوني في سنة ٩٦٧ هـ/١٥٥٩ م ما يلي :

« وصل أمر شريف من قبل المرحوم السلطان سليمان ... الى دمشق بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامي وتعيين صنجق لكل قلعة وفي صحبته سباهية ومعلمون وفعول ومعهم ما يكفيهم من الزاد ، واحدة بالقطرانة وثانية بمعان وثالثة بذات حج ورابعة بتبوك ، فعمرت وبقي الانتفاع بها الان »(٣٣) .

كما ويذكر حجيج بن قاسم الوحيدي الحلبي (ت ح ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م) في رحلته الى مكة المكرمة سنة ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م) في رحلته الى مكة المكرمة سنة

٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م ، أسماء عدد من المواقع التي مر بها فيقول : « ... ثم سرنا الى المفرق ، ثم الى الزرقاء وبها قصب المواصيل يذهب به الى سائر البلاد وبها نهر عظيم ماؤه يشفي السقيم ... ثم سرنا منها الى الزيزة ثم الى القطرانة وبها بركة عظيمة تروي الظمآن والظمآنة » « ثم سرنا الى غدير السلطان ثم الى الحسا ولها ثلاث قليات عظيمات ... وبها ماء طيب ، ثم الى عنزة وبها بركة وقلعة ، ثم الى معان وبها بركة وقلعة ثم الى عبارة وهي ظهر العقبة ولهذا يقال ما بعد عبارة قرية تحذيرا » للحجاج(٣٤) .

ويذكر الشيخ حسن بن محمد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ/١٦١٥ م) وكان قاضيا لقافلة الحاج الشامي لسنة ١٠٢٠ هـ/١٦١١ م ، منازل الحج من بينها انه مر بالمفرق والزرقاء حيث يشير لقصر شبيب ، ومن هناك توجه الى البلقاء فالقطرانة ليصل بعد ذلك مع القافلة الى الحسا ثم توجه منها الى أرض عنزة ، ويذكر معان بقوله(٣٥) :

وجئنا معانا منشدين لما أتى   به قبلنا في الشعر شيخ المعرة

اما في المصادر التاريخية المعاصرة فقد ورد ذكر قلعة معان أثناء الحديث عن اخبار الامير علي بن فخر الدين المعني . حيث ورد انه في سنة ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م تحالف الامير علي مع كل من الامير حمدان بن قانصوه الغزاوي ـ أمير عشير عجلون ، والشيخ عمر بن جبر ـ شيخ عرب المفارجة للقضاء على منافسهم الشيخ رشيد بن سلامة بن نعيم ـ شيخ عرب السردية . فسارع عرب الكرك الى مساندة الشيخ رشيد بعد أن علموا أن فروخ بك مرجان ، أغا صوباشي الكرك من المعاضدين له . الا أن الامير علي بن فخر الدين وحلفاءه انتصروا على الشيخ رشيد وأعوانه .

على أثر هذا الانتصار بادر والي دمشق الشام الى تنظيم قوة من عشير جبل عجلون تساندهم قوات نظامية بقيادة كل من أمير لواء عجلون ، وفروخ بك أمير الحاج . وانضم الى فروخ هذا عشائر البلقاء وكذلك الامير مدلج الحياري .وتوجهوا جميعا الى الكرك لحماية قراها من هجمات الامير علي بن فخر الدين وحلفائه من عشائر منطقة الكرك ، أمثال عشائر بني عطية والوحيدات .

وما أن علم الامير علي بعظم القوة المتجهة اليه حتى أدرك انه ليس بمقدوره التصدي لها لمجابهتها . فاتجه الى معان حيث تزود بالماء من قلعتها ، ومنها قصد الجفر حيث سار من هناك الى بئر باير ومنها الى قلعة الكاف ثم اتجه منها الى حوران(٣٦) . من هنا يمكننا القول أن عشائر الوحيدات وبني عطية قد برزت لتلعب دورا على الساحة المحلية في منطقة معان والكرك .

ان ما ذكره الوحيدي والبوريني عن معان جاء موجزا . الا ان هناك ثلاثة من الرحالة الذين مروا بمعان واطنبوا في توفير المعلومات عنها . أحدهم محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي المعروف باسم ابن كبريت المدني (ت ١٠٧٠ هـ/١٦٥٩م) وكان قد مر ١٠٣٩ ـ ١٠٤٠ هـ/١٦٢٩ ـ ١٦٣٠ م بهذه المواقع أثناء عودته من القسطنطينية الى مكة المكرمة ، فيذكر ما يلي :

« ثم أتينا على القطراني ... وهو واد فيه قلعة وبركة ماء تفيض على مثلها . ثم أتينا على الحسا ! من أعمال الكرك وفيه نهر لطيف وملاقاه ، ثم أتينا على عنيزة وهناك البرد الشديد وبه خان قديم ، ثم أتينا على معان من أعمال الكرك به ضيعة وقلعة وآبار ماؤها ليس بالجيد ، ثم أتينا على عقبة الصوان .. »(٣٧) . أما الرحالة ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (ت ١٠٨٣ هـ/١٦٧٢ م) فقد وصف معان بدقة أكثر ، خاصة عندما يذكر :

« فاذا قرية مشتملة على بويتات وبييتينات وقلعة قائمة البناء يسكنها جماعة من أهل البلاد لا طائفة من العسكر كغيرها من القلاع لعدم الاعتناء . واذا بها سوق قائمة وخيرات عامة أكثر ما فيها يباع الشعير والمعبوك والتين وما يناسب الجمال والاتباع . وبها الغنم السمان من المعز والضأن والبيض الكثير والالبان وبها بعض الفاكهة كالعنب الكمثري والتوت وغيرها لم يدرك زمن ينوعها ... فجيء لنا بالكمثري صغارا لم تنضج وبالكرم حصرما » . ويصفها بقوله أيضا « وهو واد عذب الهواء حلو الماء ماؤها يوجد نبعا واستنباطا من الوهاد بحيث اذا حفر نحو الذراع أو أكثر قليلا ظهر الماء ونبع » . كما ويشير الى أنه أثناء وجوده في معان وصل جماعة كثيرون يحملون الميرة والمؤن من الخليل ويعود ليؤكد على أنه « أعمر البنادر للبيع والشراء » . ولا يفوته هنا أن يشير الى ما كان يهدد الحجاج من غارات البدو ، خاصة عشائر المفارجة الذين كانوا يهددون سلامتهم . وفي احدى السنين ، لم يحددها ، يذكر أنهم لم يسمحوا للحاج بالمرور الا بعد أن قبضوا ثلاثة وثلاثين ألفا من القروش الاسدية .

ويذكر الخياري أنه بعد مغادرته مع قافلة الحاج الى معان مر بالحسا ، فيذكر ماءها ويشير الى الاعراب الذين كانوا ينقلون الميرة من الدقيق والشعير والمعبوك لعلف الجمال . أما القطرانة فيذكر قلعتها وأن « بها جماعة من أهلها مقيمون بها يبيعون منها التبن وما يشابه بالتدلي من أعلاه . والى جانبها بركة عظيمة الوضع كثيرة النفع أخبرني بعض من ذرع جهاتها الاربع انه تسعون ذراعا بذراع العمل وأن عمقها سبعة أذرع » ويذكر مرة أخرى ان الميرة والمعبوك والدجاج واللبن كانت

تباع عندها . من خلال استقراء معلومات الخياري نجد انه يؤكد على النشـاط التجاري المرتبط بقافلة الحاج ، كما ويكثر الاشارة الى البرك وما فيها من ماء ، ومثل هذه الاشارة لها ما يبررها نظرا لقلة الينابيع هنالك . الا أنه من الملاحـظ غياب العناصر العسكرية العثمانية الرسمية من القلاع حيث نجد أن الاهالي يحلون محلهم في حراسة القلاع(٣٨) .

اما الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣ هـ/١٧٣١ م) فقد مر بمعان برفقة قافلة الحاج عائدا من أداء فريضة الحج الشريف سنة ١١٠٥ ـ ١١٠٦ هـ/١٦٩٣ ـ ١٦٩٤ م ، ويذكر ما يلي :

« فأشرفنا على قلعة معان وعلى بساتينها ودورها وبيوتها الحسان ، وهناك آبار ماء كثيرة ، ومياه غزيرة فجاء أهل القلعة وباعوا على الحجاج من المأكل والفواكه وعلف الدواب وما هو بقية المحتاج ، وحصل هناك كمال السرور وتمام الحضـور وقلنا في ذلك من النظام على حسب ما اقتضاه المقام .

في طريق الحجاز من نحو شام — قلعة مرسها الشهير معـان
كل من جاءها على قصـد حج — فهو من مالك الملـوك معـان

فلما طلع صباح يوم الخميس التاسع والسبعين وتلثمائة وهو اليوم الخامس والعشرون من المحرم صلينا صلاة الصبح ولم نزل هناك الى أن صلينا صلاة الظهر ، ثم ركبنا وسرنا في ذلك الوادي المسمى بوادي المسوخ (بالخاء المعجمة) وهو واد صلب كثير الاحجار ، الكبار والصغار ، على صور الرؤوس الممسوخة ... » . والجدير بالذكر أنه عند مروره بعنيزة يصفها بقوله « وهي برية واسعة ليس فيها ماء ولا بيوت ولا دور » . أما فيما يتعلق بقلعة القطرانة فيروى أنه كان فيها « طائفة من عسكر الشـام ينظرون الماء فيها »(٣٩) .

حرص العثمانيون على أن يوفروا كل أسباب الراحة والطمأنينة لقافلة الحاج الشريف في ذهابها وايابها الى ومن المدينة ومكة المكرمة ، وذلك بارسالهم حملـة عسكرية لملاقاة الحجاج في طريق عودتهم ، اطلقوا عليها مصطلح الجردة . وبالرغم من كل تلك الاحتياطات الا أن قافلة الحاج تعرضت سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م لهجوم مخطط له من قبل العشائر العربية بقيادة بني صخر وبزعامة شيخها قعدان الفايز . ويصف لنا رسلان بن يحيى القاري تفاصيل هذا الهجوم ، ويذكر أن عدد القبائل التي شاركت فيه كان خمسة وثلاثين قبيلة . « كل قبيلة تزيد على ألفي فارس » .

وكان الهجوم موجها ضد الجردة الخارجة من دمشق بقيادة أمير الامراء موسى باشا المعراوي . ووقع التصادم بينهما قرب الحسا وتمكنت القبائل من الاجهاز على افراد الجردة . « وقد دارت عليهم العرب من اكل مكان وهم يضربون بهم بالسنان حتى قتلوا اكثرهم وشلحوا الباقين والجردة من اخرهم »(٤٥) .

اما وقع الخبر في دمشق ، فيصفه لنا مشاهد عيان هو احمد بدير البديري الحلاق (ت ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م) بقوله : « لما وصلوا (العناصر العسكرية) في الجردة الى القطرانة خرجت عليه (موسى باشا المعراوي ، قائد الجردة) العرب شلحوه ونهبوا الجردة وكل ما فيها ، حتى شلحوه لباسه وخاتمه من أصبعه وأنزلوه من تخته وركبوا مكانه في التخت ، واخذوا طبوله واطواخه ومدافعه »(٤١) . أما من كتبت له الحياة فقد هرب اما الى معان أو الى غزة وبعضهم الى القدس . ومن الذين تمكنوا من الوصول الى معان ابن أمير الجردة الذي هرب والده الى قرية داعل بحوران حيث توفي هناك ونقل جثمانه ليدفن في دمشق الشام(٤٢) .

عندما وصلت أنباء ذلك الهجوم الى دمشق وعلموا بما حصل لتلك الجردة ، ارسلت على الفور جردة ثانية برئاسة شيخ الشام ، الا أنها لم تتجاوز البلقاء وذلك لوصول أنباء تفيد بأن العشائر قد تجمعت في الطريق متربصة بالجردة الثانية تربصها بالجردة الاولى . أثناء ذلك وصلت الانباء الى قافلة الحاج وكانت بأمرة والي الشام حسين باشا ابن محمد مكي ابن فخر الدين فجمع الحجاج في بلدة العلا لمدة واحد وعشرين يوما . وكان طبيعيا أن يلحق بالحاج الضنك والخوف والمشقة بسبب قلة المؤونة والعلف . فلجأ حسين باشا الى اعتماد عنصر المفاوضة ، فعرض على قعدان مبلغا من المال لم يقبله قعدان الذي كان قد نفذ صبره ، فأمر قبائله بالهجوم فورا على القوات المرافقة للقافلة ، فهاجمتها والحقت بها هزيمة كبيرة . ثم تحولت على الفور لنهب قافلة الحاج نفسه « واما العرب فانهم غنموا غنيمة لم يغنموها قبل . ولم يتركوا كبيرا ولا صغيرا » . وهرب الاحياء من الحجاج على وجوههم الى عدة جهات ، قسم منهم ، كأمين الصرة والبلطجية وشقيقه السلطان عثمان هربوا مع خمسماية امراة الى غزة ولم يظهر لهم فيما بعد أي اثر . وهرب قسم اخر من الحاج الى معان حيث لاقى الامرين . ويصف البديري الحلاق ذلك بقوله :

« ثم اقام الحجاج اربعة أيام جوعا وعطشا لا ماء ولا زادا ومنهم من مات جوعا وعطشا وبردا وحرا . . . وما كفى جور العربان بل زاد عليهم جور أهل معان » (٤٣) . كما ووصلت مجموعة من الحجاج الفارين الى القدس . ويصف لنا محمد أبو النصر الملقب بمنجا الطرابلسي (ت ١١٧٧ هـ/١٧٦٣ م) وصول الحجاج الهاربين

من تلك الغارة بقوله : « لما وردت الحجاج من كل فج وطريق مشلحين بلا زاد ولا رفيق ، وكنت اذ ذاك في القدس الشريف لدى حضرة ذي القدر المنيف (عبد اللطيف ابن عبد الله بن عبد القادر القدسي والد المؤلف) ... السيد عبد اللطيف نقيب الاشراف بالقدس وشيخ حرمه ... فرأيت الحجاج يأتون اليه افواجا ويأمون فردا وازواجا ، وهو يتلقاهم بصدر رحيب ويوسع لهم الحبا ويمنحهم التقريب حتى غدت داره لهم دارا ومنزله محلا لهم وقزارا يطعم الجائع ويكسو العاري ولسان كل حال ينشد ويماري .

ماذا أقول لسيد متفضل لما أساء الي دهري احسننا(٤٤)

اما أمير القافلة ووالي الشام حسين باشا ابن مكي فانه قدهرب متخفيا الى قلعة تبوك ومنها تسلل الى غزة حيث أقام فيها الى ان عين واليا برتبة وزير على مدينة مرعش . الا ان مقامه فيها لم يطل اكثر من عام ، اذ اعيد تعيينه مرة اخرى في غزة. لكن غزة عادت وتعرضت سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٥ م لغزوة من عشائر الوحيدات وبني صخر ، فهب حسين باشا لمقاتلة تلك العشائر الغازية . الا أنه قتل أثناء ذلك في يوم الخميس ٢٥ ربيع الاول من العام ذاته/١١ أيلول سنة ١٧٦٥ م وتم ضبط امواله لجهة الدولة(٤٥) .

لا شك ان تلك المجزرة التي لحقت بالحجاج لم تكن لتمر دون ان تحدث ردة فعل لدى المسؤولين العثمانيين . ففي العام التالي ، ١١٧٢ هـ/١٧٥٩ ، قام والي الشام الجديد عبد الله باشا الشتجي على رأس مجموعة كبيرة من العساكر مزودة بمدفعين لفتح قلعة الكرك ، فتم له ذلك ، وأقام فيها جزءا من القوة الانكشارية(٤٦) . كما وانه عند عودة الحاج أرسل جردة قوية ومعززة بقيادة عبد الرحمن باشا ابن الكوبريلي لحراستها . ولم يتوقف الامر عند ذلك الحد فقد قام والي الشام المعروف باسم عثمان باشا بتعمير سبع قلاع على امتداد طريق القافلة ، ومهد المناطق الصعبة لازالة العقبات من طريق الحاج . ويذكر بأن « .... له في طريق الحاج تسع عشرة خيرية ما بين عمارة قلاع وتعزيل وقطع صخر وانفق مالا لا يعد ولا يحصى »(٤٧) . وعندما جاء والي الشام محمد باشا العظم (ت ١١٩٧ هـ/١٧٨٢ م) حذا حذو سابقه عثمان باشا ، فعمّر بير الزمرد على طريق الحاج(٤٨) . ويلاحظ ان المسؤولين في تلك الفترة حرصوا على تزويد الجردة بالماء والغذاء والكساء . كما وان بعض امراء الجردة كان يصل جنوبا حتى هدية في سبيل دفع اذى الاعراب عن الحاج(٤٩) .

يتضح لنا من المعلومات المتوفرة أن معان كانت تعتمد في وجودها الى حد بعيد ، على مرور قافلة الحاج الشريف بها ، حيث تنتعش تجارتها وتزداد مواردها

لقاء تقديمها الخدمات للقافلة . فعندما توسع القائمون على أمر الحركة السلفية التي توصف عادة بالحركة الوهابية ، كان توسعهم على حساب الحجاز مما ترك آثارا سلبية على معان . كما وانه عندما قامت قوات الامام سعود بن عبد العزيز (ت ١٢٢٩ هـ/١٨١٣ م) بمهاجمة الحجاز واحتلال بعض اطرافه ، انقطعت قافلة الحاج المصري والشامي سنة ١٢٢٣ هـ/١٨٠٨ م عن المرور بمعان ، وأدى ذلك الى نتائج سيئة على المدينة وأهلها .

ويذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (ت ١٢٣٧ هـ/١٨٢٢ م) في أخبار تلك السنة ما يلي : « ومنها انقطاع الحج المصري والشامي وانقطع عن اهل المدينة ومكة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التي كانوا يتعيشون منها ، خرجوا من أوطانهم باولادهم ونسائهم ولم يمكث الا الذي ليس له ايراد من ذلك واتوا الى مصر والشام ومنهم من ذهب الى اسلامبول يتشكون من الوهابي ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها من اجراء الارزاق .. »(٥٠) . ويشير الرحالة السويسري جون لويس بيركهارت (ت ١٨١٧ م) عند مروره بمعان في شهر آب سنة ١٨١٢ م الى الخراب الذي أصاب المنطقة بسبب تحركات الوهابيين واغتنام القبائل البدوية لتلك الفرصة للقيام بالغزو والنهب . ويذكر أن جميع القلاع ما بين الطريق بالقرب من المفرق شمالا وما بين المدينة المنورة جنوبا باستثناء معان كانت مهجورة . ويبين أن معان كانت جنة بسبب الينابيع الموجودة فيها . وأن اهاليها كانوا يشترون السلع من الخليل وغزة ويبيعونها ، مع ما يجمعون من معان من أعشاب برية وفواكه ، على الحجاج . ويذكر بشكل خاص مشمش ودراقن ورمان معان الذي استحوذ على انتباهه حتى ان حبة الرمان الواحدة كانت تباع بقرش

ان توقف قافلة الحاج عن المرور بمعان احدث تذمرا لدى اهاليها وبدأوا يضيقون بأنفسهم ، حتى أن الكثير منهم تحولوا الى باعة متجولين يذهبون الى القرى المجاورة للمدينة . كما وهاجر بعضهم اما الى الطفيلة او الى الكرك .

وان الخطر الذي كان يواجه الحجاج كان فعليا بحيث أن قافلة الحاج المغربي التي قامت باداء فريضة الحج قد تعرضت للفتك وتوفي عدد من افرادها . وكان مرورها بمعان قد أوجد بعض النشاط التجاري . ومما يعود اليه بيركهارت ليذكره من جديد ، هو انه اذا استمر انقطاع مرور القافلة عن معان ، فان معان ، بلا ريب ، مهددة بالاندثار .

ومن حسن الحظ فان بيركهارت يذكر لنا ان عدد سكان البلدة كانوا مائة بيت ، موزعين ما بين تلتين تفصل بينهما طريق الحاج ، التلة الشرقية تعرف بالشامية

والغربية تذكر باسم معان الحجازية . كما وانه لاحظ أن عددا من ابناء البلدة يعرفون الكتابة والقراءة وان عددا من الافراد كانوا يجودون القرآن الكريم ، وان قسما من الذين يعرفون القراءة والكتابة كان يعمل لدى شيوخ البدو في ضبط حساباتهم وكتاباتهم . والظاهر ان عناية الاهالي بزراعة المحاصيل كانت ضئيلة فبجانب التجارة كانت عنايتهم مركزة على اشجار الفواكه من الرمان والتين والخوخ . اما حبوبهم فكانوا يشترونها من الكرك لتقوم نساء معان بجرشها ويباع قسم منها للحجاج . ويشير بيركهارت الى عرب الحويطات الذين كانوا يسيطرون على منطقة العقبة وكانوا على اتصال مصر . كما يشير الى وجود عرب الحجايا في منطقة الحسا حيث كان الفلاحون يفلحون قطعا من الاراضي هناك ، وتأخذ عرب الحجايا نصف محصولهم . ولا يفوته أن يذكر بأن قلعة القطرانة كان يحرسها جنود نظاميون من انكشارية دمشق وأن رئيس تلك الفئة العسكرية كان يشتري القمح من الكرك ويبيعه على الحجاج بربح وفير(٥١) .

كانت بلاد الشام قد خضعت لمحمد علي باشا (١٨٣١ – ١٨٤٠ م) . وعني ابراهيم باشا بتعمير القلاع والبرك والمنازل الواقعة على امتداد طريق الحاج الشامي. ونجد في وثائق عابدين تقريرا مقدما في ٢٧ صفر سنة ١٢٥١ هـ/٢٤ حزيران ١٨٣٥ م الى محمد علي باشا متضمنا عدد المنازل والبرك والقلاع التي نالها الترميم أو اجرى عليها الكشف مثل : الرمثة ، عين الزرقاء ، البلقاء ، القطرانة ، الحسا ، ظهر عنيزة ومعان ، التي يصفها التقرير بما يلي :

« معان : اسم لمرحلة تقع على مسافة ١٠ ساعات من قلعة ظهر العنيزة وتقوم على هضبتين . وهناك قريتان الواحدة تجاه الاخرى بنيتا بالطوب التي على شكل القلاع وهذه المرحلة بالنسبة الى البادية معمورة وينتج فيها من أنواع الفاكهة الرمان، والسفرجل والتين وتوجد بجوار هاتين القريتين فيبطنواد هناكعدة ينابيع صغيرة. كما يوجد في القرية الثانية عدة آبار تقعبينها بركة ماء طولها ٣٥ ذراعا وعرضها ٢٥ ذراعا وعمقها ١٥ ، تغذى بالماء من الابار بواسطة الشواديف وليس ثمة ايةضائقة والحمد لله من ناحية الماء في هذه المرحلة » .

ويصف بعد ذلك قلاع العقبة ، المدورة ، تبوك ، الاخيضر ، بركة المعظم ، الدار الحمراء ، مدائن صالح ، بئر الزمرد ، بئر الوالدة ، الهدية ، النخلتين ، أبيار نظيف ثم المدينة المنورة . فاذا ما دققنا في المعلومات الواردة في ذلك التقرير فاننا نجدها تلخص لنا الوضع العمراني للقلاع والبرك وتوافر المياه ، وعن الترميم الذي قام بن الموكولون بأمر الكشف(٥٢) .

كانت معان وما جاورها ، من ضمن المناطق التي شملتها اجراءات ما يعـرف اصطلاحا باسم التنظيمات العثمانية التي طبقت في بلاد الشام وفي غيرها من بلدان السلطنة العثمانية . فبموجب سالنامة سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٤ م ، العائدة لولاية سورية ، نجد ان معان كانت تشكل مركزا لناحية تابعة لسنجق (لواء) البلقاء . وكان لهذه الناحية مدير يعرف باسم محمد علي أفندي يساعده معاون له اسمه الشيخ علاء الدين أفندي . اضافة الى هؤلاء كان هناك مجلس مهمته معاونة المدير مؤلف من اربعة أشخاص من أهالي البلدة(٥٣) .

وبموجب سالنامة سنة ١٣١١ هـ/١٣٩٣ م ، لم تعد معان ناحية بل تحولت الى مركز متصرفية (سنجق) يتبع لها كل من قضاء الطفيلة وقضاء الكرك . وبجانب المتصرف ، حسين حلمي أفندي ، كان هناك محاسب يعرف باسم جمال بك(٥٤) .

أما سالنامة العام التالي فانها تبين لنا أن مركز المتصرفية تحول الى الكرك ، الا ان اللواء بقي معروفا باسم معان وأصبحت معان نفسها مركز قضاء يديره قائمقام يساعده نائب ومدير مالي ومدير تحريرات . وكان هناك مجلس ادارة القضاء المؤلف خصيصا الى أصحاب المناصب الآنف ذكرهم يعاونهم ثلاثة من الاهالي هم : خليل افندي الشلبي وعبد الغني النسعة وعلي أفندي كريشان . أما من حيث الخدمات فيشار الى وجود مكتب للبرق (تلغراف) في معان(٥٥) .

وتشير السالنامات الاحدث من السالنامات المذكورة سابقا الى وجود أمين صندوق ومأمور تحصيلات وكاتب للمحكمة الشرعية . والاهم من ذلك فانها تشير الى وجود مدرسة (مكتب) ابتدائية في معان ، اضافة الى وجود عيادة طبية (خسته خانة) مناطة بوكيل طبيب اسمه شوكت أفندي . ومن المراكز الاخرى التي تذكرها السالنامات وجود ثلاثة جوامع في البلدة ومسلخ وقشلة (سجن) . ولا يفوت هذه المصادر الرسمية أن تدون لنا أن عدد سكان معان كان ٣٣٠ خانة موزعين ما بيـن معان الحجازية والشامية . وأن قسما من أهاليها كانوا يتعاطون زراعة الحنطـة والشعير . وان تسع قرى تتبع لها . كما وتعدد لنا العربان القاطنين حولها والتابعين لها . وهي عـربان : الرشايـدة ، العمارين ، السعيديـن ، النعيمـات ، البـدول وبنـو عطيـة(٥٦) .

كان مطلع القرن العشرين مرحلة جديدة في تاريخ معان ، اذ دخلت المدينة في طور النمو والاتساع . وارتبط ذلك بانشاء الخط الحديدي الحجازي . ففي أيلول من عام ١٩٠٤ م تم وصلها مع عمان ودمشق بخط طوله ٤٥٩ كم . وبعد ذلك بسنتين

تم ربط المدورة بمعان . وكان طبيعيا ان تفيد معان من تدفق الاعداد الكبيرة عليها من العمال والفنيين والمهندسين والاطباء ، الذين قدر عددهم بالف شخص واتخذوا منها مركزا لهم . وبذلك توسعت اتصالاتها التجارية أصبحت حاجاتها من السلع والبضائع تأتي من الخليل والعقبة والكرك ودمشق . ودخلت الى معان سلعة جديدة هي السياحة ، فازداد عدد الزوار الى البتراء ، وادى ذلك الى انشاء فندق فيها ومستشفى . هذا بالاضافة الى بناء مستودع لقطع الغيار والصيانة . وكان هذا الازدهار كفيلا باستقطاب عدد من أهالي دمشق للقدوم الى معان والاقامة فيها .

لم تكن كل تلك الحقبة من الزمن سعادة وهناء ، بل ان المنطقة تعرضت للامراض الفتاكة ، منها الكوليرا التي أودت سنة ١٩٠٢ م بحياة عدد كبير من العمال ومن اهالي المنطقة . زيادة على ذلك ، وبالرغم من كل الاحتياطات الامنية فان غارات العناصر البدوية على العمال والفنيين وسكان القرى لم تتوقف نهائيا . اذ رات تلك العناصر ان في الخط الحديدي تهديدا لموارد رزقهم المتحصلة لهم من وارد تأجير الجمال وتقديم بعض الخدمات . لذا ، بادرت الدولة العثمانية الى تعيين قوات عسكرية لحماية العاملين في تمديد الخط الحديدي(٥٧) . بل زيادة على ذلك ولتبيان ان هذا العمل شرعي قام أحد علماء دمشق ، السيد محمد عارف ابن السيد أحمد المنير الحسيني الدمشقي (ت ١٣٤٢ هـ/١٩٢٣ م) وعلى الاغلب ، وبناء على تكليف من الدولة نفسها سنة ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ م بوضع كتاب سماه : كتاب السعادة النامية الابدية في السكة الحجازية الحديدية . يذكر فيه صراحة وبعنوان بارز أحد مواضيعه « في بيان ما يستفيد بدو الشام من انشاء هذه السكة »(٥٨) . ومن الملاحظ أنه بعد انجاز تمديدات الخط الحديدي أخذت أعداد كبيرة من العمال والفنيين بمغادرة المدينة(٥٩) . وبذلك بدات معان تفقد تدريجيا بعضا من ازدهارها ورخائها .

وكانت اكبر ضربة تلقتها معان هي تخريب الخط الحديدي وتوقف مرور الحجاج بها من بلاد الشام وبلاد الاناضول ، وذلك بعد اعلان الشريف حسين الثورة على رجال الاتحاد والترقي الذين اغتصبوا السلطان العثماني سلطاته الشرعية(٦٠) . وعلى اثر ذلك وجه الشريف حسين جيشه بقيادة ابنه فيصل نحو بلاد الشام ، فتحولت معان عندئذ الى نقطة تجمع للعساكر العثمانية .

تمكن الجيش الشمالي للشريف الحسين بن علي بقيادة ابنه الثالث الامير فيصل من ان يحتل الوجه في شمالي الحجاز وذلك في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩١٧ ، ويتخذ من جيدا مركزا لقيادته(٦١) . ومن هنا بدأ فيصل باجراء اتصالات مكثفة مع زعماء المناطق في جنوبي بلاد الشام ، خاصة زعماء عشائر الحويطات والرولة

وعنزة وبني صخر(٦٢) . وكان أبرز هـؤلاء الرؤساء ، بلا شك ، عودة أبو تايه مـن زعماء عشيرة الحويطات ، الذي اسـتطاع أن يحرز انتصارا سريعا على القـوات التركية في ٢ تموز سنة ١٩١٧ م في موقع أبي اللسن . اما خسائر الاتراك فقد قدرت بنحو ثلاثمائة جندي بالاضافة الى اسر ما يقرب من مائة وستين عنصرا عسكريـا منهم(٦٣) . وبعد ذلك بأربعة أيام تمكن من احتلال العقبة بعد أن قصفها الاسطول البريطاني مرتين . وكانت خسائر الاتراك جسيمة اذ أنها قدرت بستماية قتيـل وسبعماية وثمانين اسيرا . وكان طبيعيا ان يتحول الامير فيصل الى العقبة فدخلها في ٢٣ آب من العام ذاته . ومن العقبة بدأ فيصل باعادة نشر قواته النظامية منها والمتطوعة خاصة من العناصر البدوية ، لمهاجمة الخط الحديدي الحجازي بهـدف ايقاف وصول المؤن الى القوات التركية المحصورة في المدينة المنورة وفي معان ذاتها . كما وانه أرسل قوات لتطويق كل من الطفيلة والشوبك . ولقد تمكنت قواته من احتلال الطفيلة في ١٤ كانون الثاني ١٩١٨ م ، الا أن الاتراك عادوا واستعادوها في ١٧ آذار لتسترجعها قوات فيصل مرة اخرى في اليوم التالي(٦٤) .

بالرغم من المحاولات العديدة التي قام بها فيصل شخصيا وغيره من قادته ، الا انه لم يتمكن من احتلال معان التي كان يتحصن فيها القائد التركي علي وهبـي . ويرجع ذلك الى أن القوات الركية كانت متفوقة على الجيش الشمالي عددا وعـدة ونوعية . وقد أوردت التقارير(٦٥) تعداد القوات على النحو التالي :

العساكر الشريفية	العساكر التركية	البلدة/الموقع
٣٥٠٠	٤٠٠٠ (بالمتاريس)	معـان
٧٠٠	—	الوهيـدة
٨٠٠	١٥٠	جـرذون
٦٠٠	٤٠٠	جرف الدراويش
٧٠ (مع الشريف ناصر)	—	الحسـا
٤٠٠ بدوي	٥٠٠	عنيـزة
—	٨٠٠٠	عمـان

نقل الامير فيصل مركز قيادته من العقبة الى القويرة ، لوصول الاخبار اليه بانسحاب الاتراك من أبي اللسن ، فاستبشر فيصل بذلك خيرا . وجاء في رسالة له وجهها الى أخيه الاصغر الامير زيد بتاريخ ١٩١٨/١/٣ م ، أنه يعتبر ذلك حسن توفيق الله ويطلب منه في رسالته هذه القدوم عليه « لان الشغل قد ابتدأ وابتدأت

الحركات »(٦٦٦) . وبعد ذلك بخمسة أيام كان وصول الامير زيد الى اخيه فيصل في القويرة حيث سافر من هناك الى وادي موسى فالشوبك ومنها الى الطفيلة حيث وصلها وباشر بمحاصرتها في السابع عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩١٨(٦٧) . وفي شهر شباط من العام نفسه كان الامير فيصل قد فشل في احتلال مركز فصوعه الواقع على بعد ٤٠ كم الى جنوبي معان ، وذلك بسبب تراكم الثلوج وشدة البرد اللذين لم يكن جيشه قد اعتادعليهما . ويذكر في أحد تقاريره الى والده انه لـم يوفق « من شدة البرد وضياعنا قسم مهم من وسائط نقلنا »(٦٨) .

وبعد مهاجمة الجيش البريطاني للسلط ، نجد ان القوات التركية تحاول أن تحد من انتشارها وأن تتجمع في مراكز رئيسية . فكان تجمعها في كل من معـان والكرك(٦٩) . عندئذ اضطر فيصل الى تكثيف تجمع عساكره حول معان ليتمكن من مهاجمتها على عدة محاور ومن عدة جهات . فانضم اليه الامير زيد بأبي اللسن ، وذلك في الاول من شهر نيسان من ذلك العام . وانتقلت قوات الجيش الشمالي بقيادة فيصل من القويرة الى وهيدة . وكان الهجوم الاول على القوات التركية في الحادي عشر من نيسان عام ١٩١٨ م ، بقيادة الشريف فهد ونوري السعيد والحويطات بقيادة عودة أبو تايه ، تعاونهم مفرزة فرنسية قوامها ٣٠٠ جندي نظامي . ولقـد تمكنت هذه القوات من احتلال موقع غدير الحاج الى جنوبي معان ونجحت في أن تأسر ١٥٠ جنديا تركيا بالاضافية الى تخريبها ٢٣ كم من السكة . وعادت بعد ذلك الى مقر القيادة في وهيدة(٧٠) .

أما الهجوم الثاني فكان بقيادة كل من الامير زيد وجعفر العسكري على راس قوة قوامها ٥٠٠ جندي نظامي ، تساندهم أربعة مدافع ، وركزوا هجومهم على محطة أبو الجرذون الواقعة على بعد عشرين كيلومترا الى الشمال من معان . وغنمـوا في ذلك الهجوم ٣٠٠ بندقية و (٣) رشاشات كبار ، ووقع في أيديهم مائة وعشرون أسيرا من القوات التركية . والهجوم الثالث كان موجها الى تلول السمنات حيث تم أسر عشرة جنود أتراك وتم الاستيلاء على ماية بندقية ورشاشين . وخربت هذه القوات مـرة اخرى ، جزءا من سكة الحديد(٧١) .

أما الهجوم الكبير على معان فتم ما بين ١٥ ــ ١٧ نيسان بقيادة الامير فيصل نفسه . وبالرغم من الجهود التي بذلها فيصل الا انه لم يتمكن من دخول معان ، اذ ان القوات التركية المستحكمة استطاعت ان ترد فيصل الى تلول السمنات مرة أخرى بعد أن فقد ثلاثماية من جنوده ما بين قتيل وجريح ، اضافة الى نفاذ ذخائره . وحسب ما جاء في رسالة مـن الكولونيل لورانس : « ... وما يمكن لاي قائد اليـوم

ان يهجم على قوة مستحكمة الا اذا عنده على الاقل نوبتين أو ثلاث نوبات قد القوة المحصورة » . أما رأي لورنس بالعناصر البدوية في جيش فيصل فكان على النحو التالي ، وفقا لما جاء في نفس الرسالة : « أما البدو ما ينفعوا للمداومة على الحصار ولا يبغون يهجمون على استحكامات ، والحويطات وبني صخر وغيرهم من العربان اللي عند سيدي فيصل ما اشتركوا في معان »(٧٢) . ونتيجة لهذا الانتصار الذي احرزه الاتراك فقد تمكنوا من اصلاح وترميم ما تخرب من الخط الحديدي ، وبذلك اصبح بمقدورهم أن يحصلوا على المؤن والعتاد من الشام الى معان(٧٣) .

لم يكتف الاتراك بهذا النصر بدفع فيصل بل بدأوا بقصف مخازن الوقود ومستودعات المؤن والذخائر بالمدفعية . ويلاحظ في الرسائل المتبادلة ما بين الامير فيصل والقائد التركي المحصور علي وهبي وورود اتهامات متبادلة حول اساءة التصرف . فيرجو القائد التركي من فيصل أن يكف عن قصف معان « التي ليس فيها سوى الاطفال والنساء وهذا ما أتمناه من شرافتكم »(٧٤) . أما جواب فيصل فقد نفى ذلك وبين المعاملة السيئة التي يلقاها أسرى جيشه على يد القوات التركية، حتى أن الجنود الاتراك كانوا يمثلون بالاسرى العرب . وبالمقابل فانه يطلب من علي وهبي ان يسأل الاسرى الاتراك حول المعاملة الطيبة التي يلقونها من جيش فيصل . ويعود ويؤكد لعلي وهبي ما يلي :

« اننا سنداوم على ضرب معان حتى تقلعوا عن ضرب مضارب البدو بالطائرات وعلى جميع أسلحتكم وعبدي أفندي وجنوده أن يبادروا لاخلاء معان »(٧٥) . ولم يتوقف الاتراك عن تعزيز مواقعهم بالرغم من استمرار قصف معان ، حتى انهم تمكنوا من استعادة طابية الحمراء ، ما بين معان والجرذون(٧٦) . ولا شك أن الوضع النفسي لقوات فيصل قد تحسن بعد سقوط المدورة بتاريخ ١٩١٨/٨/٨ بيد قائد الهجانة البريطانية الموجودة هناك ، بيك باشا(٧٧) . الا أن المعركة تحولت لصالح الجيش التركي ، فاستطاع بعد قتال دام ثلاثة أيام مستمرة من استرجاع الحسا في ١٩١٨/٩/٦ م ، لتنسحب القوات العربية المرابطة هناك الى الشوبك(٧٨) . وبعد ذلك بيومين نجح الاتراك في احتلال موقع السمنتين . الا أن الامير زيد استطاع ، فيما بعد ، استرجاعها(٧٩) .

ازاء هذا الوضع على جبهة معان ، وبسالة مقاومة الاتراك ، وجد الامير فيصل نفسه مضطرا للتوجه الى الشمال حيث كانت الامور أفضل نتيجة للانتصارات التي أحرزها الجيش البريطاني في منطقة البلقاء واحتلاله كل من العفولة ، طولكرم ، بيسان ، الناصرة وحيفا بالاضافة الى عمان والسلط . وترك فيصل المسؤولية على

جبهة معان لاخيه الامير زيد الذي استطاع ، مع عشائر الجازي من الحويطات وعشائر ابن هداية(٨٠) ، من اشغال القوات التركية التي بدأت في الانسحاب لانقاذ نفسها من خطر تطويق العساكر البريطانية والعناصر البدوية لها . فانسحب الاتراك من الرشادية والقطرانة والطفيلة في ١٩١٨/٩/١٦ م . ثم ما أن علموا بسقوط عمان حتى انسحبوا في ١٩١٨/٩/٢٤ من معان ، فدخلها الامير زيد في اليوم التالي وغنم ما تركه الاتراك من أسلحة .

ولقد جاء في وصف الامير زيد للاستحكامات التركية ما يلي : « وقد وجدنا استحكامات معان مبنية على اخر طراز من الفن »(٨١) . وتلى سقوط معان استسلام القوات التركية في تبوك ، للامير زيد في الخامس عشر من شهر تشرين الاول ١٩١٨ م(٨٢) .

وبعد أن أمن زيد الجبهة الجنوبية ، غادر معان يوم التاسع من تشرين الثاني ومر في طريقه بالكرك ، ومنها الى عمان التي وصلها يوم السابع عشر من الشهر ذاته ليتركها في اليوم التالي الى درعا حيث تابع سيره الى دمشق فوصلها في ١٥ صفر ١٣٣٧ هـ/١٩ تشرين الثاني ١٩١٨ م ، ليجتمع هناك مع أخيه الامير فيصل(٨٣) .

يلاحظ من خلال استقراء أوراق كل من الاميرين فيصل وزيد أنهما كانا دوما بحاجة الى العتاد والمؤن ، اضافة الى المال وذلك لاستجلاب خاطر العشائر ، ولضمان ولائها لكثرة تقلب مواقفها من ثورة الشريف الحسين بن علي . ومما زاد في الصعوبات التي واجهها فيصل عدم الانسجام ما بين اكبار ضباطه مما أضعف روح الضبط والربط العسكري في جيشه . كما أن العناصر البدوية لم تكن معدة ومهيأة للقتال الطويل ، بل كانت أميل الى مبدأ الغارة السريعة . زيادة على ذلك لم يكن يتوفر لفيصل أجهزة للاتصال المباشر مع والده في مكة المكرمة بل كانت معظم الاتصالات بينهما تتم عن طريق المعتمد البريطاني بجدة . ومن هنا يتضح لنا انه لم يتيسر لفيصل أن يحافظ على سرية حركاته العسكرية ، فأصبح الانكليز على اطلاع شبه كامل عليها(٨٤) .

ويجب أن نتذكر هنا الحملة الاعلامية التي شنها القائد التركي جمال باشا الكبير ضد الثورة . كما وانه لم يكتف بذلك بل قام باجراء اتصالات مع ضباط فيصل محاولا ثني عزمهم عن الاستمرار في الخدمة مع جيش الثورة العربية . ونراه يستمر في خطته حتى انه كاتب فيصل نفسه على أمل اقناعه بالعودة عن الثورة(٨٥) .

بعد قيام المملكة العربية في دمشق بقيادة فيصل كانت معان وما جاورها تعتبر جزءا من تلك المملكة . وعين فيصل لها قائمقام اسمه عبد السلام كمال . الا انه بعد سقوط مملكة فيصل ، على اثر انتصار الفرنسيين في معركة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠م ، فقد اعتبر الشريف حسين معان والعقبة جزاء من مملكة الحجاز ، وعين لهما منير عبد الهادي كقائمقام . وشارك منير هذا في استقبال الامير عبد الله عند قدومه الى معان في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ م(٨٦) .

بقيت كل من العقبه ومعان تابعتين للحجاز حتى بعد قيام امارة الشرق العربي ، الى أن تم الحاقهما بهذه الامارة سنة ١٩٢٥ م .

عندما اندلعت الاضطرابات في حوران وجبل الدروز ، ونجم عن ذلك مقتل اثنين من الوزراء السوريين ، استأذن الامير عبد الله ، الابن الثاني لشريف مكة ، والده في أن يسافر الى بلاد الشام لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، ولقد جاء في مذكرات الامير عبد الله ما يلي : « وطلب أهل الاخلاص من المشتغلين في القضية العربية في سوريا ارسال من ينوب عن الملك فيصل من الشخصيات الملكية في البيت الهاشمي . فاستأذنت والدي وطلبت ان يحملني تبعات هذه الحركة شخصيا ، فأذن لي . وتوجهت من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ومنها بالخط الحديدي الى معان فوصلنا بعد شهر وبعد مشقة شديدة بسبب خراب السكة . وكان الوصول في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٣٩ هـ الموافق ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ م . واستقبلني اهل معان وباديتها بكل محبة وحماسة »(٨٧) . ومن معان بدأ الامير عبد اللهباجراء اتصالاته مع مختلف الزعامات المحلية السورية . ودعا الضباط للالتحاق به ، وكانت الاستجابة لدعوته ، كما يذكر الامير عبد الله ، ضعيفة سواء من شيوخ العشائر أو الضباط ، وذلك لقلة المال من جهة ولتخوفهم من اخفاق الحركة من جهة ثانية . « ولكن الامر كان على خلاف ذلك في شرق الاردن . فقد هرع الناس الي يدعونني الى عمان وكنت أجيبهم بأنني فاعل ان شاء الله »(٨٨) .

والجدير بالذكر أن الامير عبد الله أصدر ، اثناء وجوده في معان (١٠/٢١/ ١٩٢٠ ــ ١٩٢١/٢/٢٨) جريدة سماها « الحق يعلو ، جريدة عربية ثورية تصدر مرة في الاسبوع » . وتضمنت الجريدة خطاب الامير عبد الله الذي القاه في معان . وكذلك نشرت فيها أشعار للامير وأخبار الوفود التي قدمت عليه . ولم يصدر من تلك الجريدة الا خمسة أعداد فقط(٨٩) .

غادر الامير عبد الله معان يوم الاثنين في ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣٣٩ هـ/ ٢٨ شباط ١٩٢١ م متوجها الى عمان حيث توقف في القطرانة ليتلقى وفود الكرك

والطفيلة . كما وتوقف ايضا في الجيزة حيث كانت عشائر بني صخر وغشائر العجارمة وأهالي تلك المنطقة في استقباله أيضا . أما وصوله الى عمان فكان بعد ظهر يـوم الاربعاء الموافق ٢٢ جمادى الثانية ١٢/١٣٣٩ آذار ١٩٢١ م(٩٠) .

بعد تنازل الملك الحسين بن علي عن عرش الحجاز لابنه الامير علي ، غـادر مكة المكرمة الى العقبة وأقام فيها قرابة ثمانية اشهر ، ثم غادرها في ٢٦ ذي القعـدة ١٣٤٣ هـ/١٧ حزيران ١٩٢٥ م الى قبرص . بعد ذلك باسبوع (١٩٢٥/٦/٢٤ م) ، اصدر الامير عبد الله ارادته بضم كل من العقبة ومعان الى امارة شرقي الاردن . وجاءت ارادته على النحو التالي :

« نظرا لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية الملك علي المعظم ملك البلاد المقدسة الحجازية ضم ولاية معان والعقبة الى امارتنا اقتضى اصدار ارادتنا اليكم اعلانا بذلك مع الشكر الدائم لجلالته الملوكية الهاشمية منا ومن شعبنا ومن حكومتنا » . وفي اليوم التالي قام الامير عبد الله يرافقه رئيس نظاره آنذاك رضا باشا الركابي ، وتراس مراسيم الانضمام الرسمي واعتبر يوم ٢٥ حزيران التاريخ الرسمي لانضمام العقبة ومعان الى امارة شرقي الاردن(٩١) . والجدير بالذكر أن سلطان نجد عبـد العزيز بن سعود لم يعترف رسميا على هذا الضم ، وانما اضطر للسكوت عليه نظرا لتوقيعه معاهدة جدة في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٥ م التي بينت الحدود ما بيـن شرقي الاردن ونجد ، والتي بموجبها أعطيت قرية الكاف للسعوديين . كمـا أن شرقي الاردن ضمن اتصال حدوده مع مملكة العراق ، بالرغم من اصرار السعوديين في أن يكون لهم حدود مباشرة مع سورية . كما وضمنت بريطانيا لنفسها خطا جويا دون أن يضطر الانكليز الى المرور فوق أراض نجدية ، حيث أن بريطانيا كانـت تفاوض ، في حينها ، نيابة عن الاردن بوفد يرأسه السيد جلبرت كلايتون(٩٢) يعاونه جورج انطونيوس(٩٣) .

وبانضمام معان الى امارة شرقي الاردن بدأ فصل جديد من تاريخها المعاصر يدرس ضمن اطار التكوين السياسي الجديد .

★ ★ ★

الهوامش والملاحظات

(١) ايلة : حول تاريخ هذه البلدة التي تذكرها المصادر الجغرافية العربية على انها مدينة على شاطىء بحر القلزم وبانها كانت ملتقى « يجتمع فيها حجيج الشام ومصر ومن جاء بطريق البحر » ، انظر هذه النصوص لدى الاب .ا.س.مرمرجي الدومنيكي ، بادانية فلسطين العربية ، مطبعة جان دارك ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ١٤ ـ ١٦ ، كذلك راجع مقالة
H. W. Glidden, « al-Akaba », EI. 2, vol.1,pp314-315
ومقالة نفس المؤلف المعنونة باسم :
« Ayla, » EI. 2, vol. i., pp 783 - 784.

(٢) حول النصوص المتعلقة بمعان في عدد من المصادر الجغرافية العربية ، راجع ما جمعه عنها الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص٢٢ ، كذلك انظر المادة المذكورة لدى جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب ، مادة « معن » .

(٣) حول المادة العائدة لكل من الشوبك والطفيلة والكرك في المصادر الجغرافية العربية ، انظر عنها ما جمعه الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص ١٢٦ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٧ ، كذلك راجع محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، مطبعة الجمعية العلمية الملكية ، عمان ، ١٩٧٦ ، وراجع ايضا يوسف درويش غوانمة ، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٧٩ ، ص ٣٢ .

(٤) من المعروف ان الصنم المعروف باسم « هبل » كان قد جيء به من بلاد مؤاب ونصب في جوف الكعبة، كما ان عددا من الاصنام كان قد جيء بها قبل ذلك من البلقاء بالشام ونصبت حول الكعبة ، حول ذلك انظر هشام ابن محمد بن السائب الكلبي، (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩م) ، كتاب الاصنام حققه احمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (١٩٢٤) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٥ ، ص ٨ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ . وانظر ايضا مقالة :
T. Fand « Hubal » E.I.2 vol. III, pp. 536 - 537
ويورد أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود البغدادي البلاذري ، (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) ، على لسان عثمان بن عفان الخبر التالي : « وقال عثمان يا رسول الله قدمت حديثا من الشام، فلما كنت بين معان وموضع سماه اذ مناديناد ي ، ايها النيام هبوا ان احمد قد خرج بمكة فقدمنا فسمعنا بك فلم اتمالك أن جئتك » هذا بالاضافة الى ان شاعر الرسول حسان بن ثابت (تح ٤٠هـ/٦٦٠م قال يمدح جبلة بن الايهم صاحب التاج الغساني بقوله :

« لمن الدار اوحشت بمعان — بين اعلا اليرموك فالخمان
فالقريات من بلاس فداريا — فسكاء فالقصور الدواني
فقفا جاسم فاودية الصفر — مغنى قنابل وهجان »

انظر ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، راجعه حسن كامل الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ٣٢٣ ، كذلك انظر البلاذري ، انساب الاشراف ، ق٤ ، ج١ ، تحقيق احسان عباس ، منشورات جمعية المستشرقين الالمان ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، ص ٤٨٢ .

(٥) حول الغساسنة وهم فرع من عشائر الازد منجنوبي الجزيرة ، راجع مقالة
Irfan Shahid « Ghassan » E.I.2, II, pp. 1020 - 1021
وراجع ايضا مادة « غسن » في لسان العرب .

(٦) لخم من القحطانية كانت مساكنها متفرقـــةواكثرها بعد الاسلام ما بين الرملة ومصر ومنها في الجولان ، وحول نوى ، ومن مراكزها فيفلسطينحول رفح وحدس ونزل قسم منهم بمنطقة القدس ، راجع مخطـوط المختصر من جمهرة النسب ،لمؤلف مجهول ، راغب باشا ، اسطنبول ، رقـم ٩٩٩ تاريخ ، ص ٢٤١ ، كذلك راجع محمدبن جرير الطبري(ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ، تاريـخ الرسل والملوك ، ١٠م ، تحقيق محمد ابـوالفضل ابراهيم ، دار المعارف ، م ٤ ، ص ٣٧٧ ، كذلك راجع عمر رضا كحالة ، معجم قبائلالعرب القديمة والحديثـة ، المكتبة الهاشميـة ، دمشق ، ١٩٤٩ - ١٩٧٥ ، ٣م ، ص ١٠١١ - ١٠١٢ .

(٧) جذام : قبيلة من قضاعة من القبائل اليمنيةوديارها حول ايلة ، كانت لهم رئاسة في معان وما حولها ومن بطونها فرعان بنو عائد في اعمال مصر الشرقية والبطن الثاني يعرف ببني عقبة ، وهم من الكرك الى الازلم عرفت حسمى بهم « حسمىجذام » ، انظر مخطوط النسب الكبير ، رقم 1698 لهشام ابن محمد الكلبي مكتبة الاسكوريال ،ص ١٣٥ - ١٣٨ ، الطبري ، المصـدر نفسه ، ٧م ، ص ٢١٦ ، C. E. Bosworth, « Djudham » E.I.2, vol. ii, p. 573
انظر لسان العرب مادة « جذم »

(٨) باقين : من قبائل العرب المستعربة انضمتالى هرقل سنة ٨هـ/٦٢٩ م في غزوة مؤته ، عمررضا كحالة ، المرجع نفسه ، ١م ، ص ١٠٤ .

(٩) بلي : من قبائل اليمن من قضاعة كانت قدنزلت بتيماء وتهودوا ، وحدد مساكنها « ما بين المدينة ووادي القرى من منقطع دار جهينة الىحد دار جذام بالنبك على شاطيء البحر ، ثم عينونا من خلفها ثم لها حياض البر الى حد تبوك ثم الى جبال الشراه ثم الى معان ثم راجعا الى ايله الى أن نقول المغار وهو منزل للخم » . انظر : هشام بن محمد الكلبي ، النسب الكبير ، مخطوط الاسكوريال رقم 1698 ص ٤٠٥ - ١١٥ ، عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م) ، معجمما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، ٤م ،حققه مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التاليفوالترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ - ١٩٥١ ، ١م ،ص ٢٧ - ٢٩ ، لسان العرب ، مادة « بلا » ومقالة J. Schliefer. عن قبيلة بلي ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، ٤م ، ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(١٠) حول اخبار فروة واسلامه وما أرسله للنبيمن هدايا راجع عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري (ت ٢٠٣ هـ / ٨٢٨م) ، السيرة النبوية ،٤م ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى الحلبيالبابي ، ١٩٣٦ ، ٤م ، ص ١٦ - ١٨ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، الطبري ، المصدر نفسه ، ١م ، ص٣٧ - ٣٨ ، عز الدين علـي بن ابي الكرم الشيباني المعروف بابن الاثير ، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)،الكامل في التاريخ ، ١٣م ، تحقيق Carolus Johannes Tornberg بريل ١٨٥٣ ، اعيد نشر هذه الطبعة وتنقيحها من قبل دار صادر ، ودار بيروت ، بيروت ،١٩٦٥ - ١٩٦٧ ، ٢م ، ص ٢٣٥ ، وكذلك انظر

محمد ابن عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦ م؟) الروض المعطار في خبر الاقطار ، حققه احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت،١٩٧٧،ص ٥١٧ ، ص ٥٥٧ ، ص ٥٦٥ ، ص ٦١٨ ، وانظر ايضا حول نص الرسائل محمد حميد الله ،مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط٣ ، دار الارشاد ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٩٦ (رسالة رقم ٣٥ – ٣٦) .

(١١) انظر ديوان عبد الله بن رواحه الانصاري الخزرجي دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجوده ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ،١٩٧٢، ص ١٠٢ – ١٠٣ ،

(١٢) راجع البلاذري ، انساب الاشراف ، ج٤ ،ق٢، حققه Max Schloessinger القدس ، ١٩٣٨ ، ص ١٤٨ .

(١٣) انظر على سبيل المثال ما ذكره ابراهيم بن محمد الاصطخري المعروف بالكرخي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) ، مسالك الممالك تحقيق M. J. De Goeje ليدن ، بريل ، ١٩٢٧ ، صورته كتابخانة بطهران ، لا . ت،ص ٤٨ ، محمد ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧) ، صورة الارض ، ص ١٥٤ ، ص ١٦٩ – ١٧٠ ، حيث يذكرها بقوله : « ومعان مدينة صغيرة على شفير البادية ايضا سكانها بنو أمية وفيهم لبني السبيل مرفق ومغوثه » راجع أيضا البكري ، المصدر نفسه م٤ ، ص ١٢٤١ – ١٢٤٢ ، ويلاحظ انه ضبطها بضم الميم ، وراجع كذلك النصوص التي جمعها الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ .

(١٤) حول ذلك انظر اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده ، لمؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري ، تحقيق عبد العزيز الدوري ،وعبد الجبار المطلبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٩٧ ، ص ٣٩٢ ، ويلاحظ ان ياقوت لا يذكر كداد في معجمه .

(١٥) حول هذه القلاع والقصور الصحراوية راجع فواز أحمد طوقان ، الحائر ، بحث في القصور الاموية في البادية ، عمان ١٩٧٩ .

(١٦) انظر حول ذلك شمس الدين محمد بن ابي طالب الانصاري المشهور باسم شيخ الربوة (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، نشره م مهرت ، المطبعة الاكاديمية ، بطرسبرغ ، ١٨٦٥ ، ص ٢١٣ وراجع كذلك عماد الدين اسمعيل ابن الملك الافضل نور الدين ابن ايوب المشهور بابي الفداء ، (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١) ، كتاب تقويم البلدان ، حققه م. رينود والبارون ماك كوكن دى سلان ، المطبعة الملكية ، باريس ، ١٨٤٠م ، ص ٢٢٩ ، وانظر ايضا أحمد القلقشندي ، (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٤م ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب ، ١٩١٣ – ١٩١٩ . م٤، ص ١٠٧ ، وراجع كذلك النصوص التي جمعها الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص٢٢٠ .

(١٧) محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ / ٩٦٥ م) كتاب المجروحين ، حققه عزيز بيك القادري ، المطبعة العزيزية ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، م١ ، ص ٢٢٥ .

(١٨) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ٤م تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، م١ ، ص ٥٠٥ .

(١٩) راجع مصطفى الحياري ، الامارة الطائية في بلاد الشام ، منشورات وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٣٤ – ٣٥ .

(٢٠) راجع عز الملك محمد بن عبيد الله بن احمد المسبحي ، (ت ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) تاريخ المسبحي، تحقيق ايمن فؤاد السيد ومسيو بيانكه ، منشورات المعهد الفرنسي ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢ – ٢٣ ، ص ٣٤ – ٣٥ ، ص ٧٥ .

(٢١) حول الامارة الايوبية في الكرك ، راجع يوسف درويش غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص ١٥٩ – ١٦٢ .

(٢٢) انظر بدر الدين ابن قاضي شهبه (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩ م) الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٢١٦ ، حيث جاء في اخبار سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢ م ، ما يلي : ((وكان جماعة من العربان نازلين بارض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج ، واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين وقتل بعضهم واجلى من بقي عن ارض الكرك ، ثم عاد الى مصر)) .

(٢٣) حول هذه النيابة أو المملكة راجع محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، عمان ، ١٩٧٦ ، وكذلك راجع يوسف درويش غوانمة، شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاول (القسم الحضاري) منشورات وزارة الثقافة ، عمان ١٩٧٩ ، وكذلك القسم السياسي – ونشر في نفس العـام .

(٢٤) راجع القلقشندي الذي ينقل عن احمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) ، عن كتابه مسالك الابصار في ممالك الامصار ، صبح الاعشى ، م٤ ، ص ١٥٧ ، ص ٢٤٢ ، ويلاحظ انه يوردها بضم ميمها ((معان)) .

(٢٥) حول العشائر في تلك المنطقة ، راجع محمـد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، ص ٢٣ – ٢٥ ،

(٢٦) ابو الفداء اسماعيل بن عمر الشافعي ابن كثير ، (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢) ، البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤م ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩ – ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ، م١٣ ، ص٣٣٣.

(٢٧) شمس الدين محمد بن طولون الصالحي ، (ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ٢م ، حققه محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ – ١٩٦٤م ، م١ ، ص ١٠ .

(٢٨) ابن طولون المصدر نفسه ، م١ ، ص ١٦١ .

(٢٩) مجير الدين العليمي الحنبلي (٩٢٧هـ /١٥٢٠ م) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ٢م ، نشرته مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٧٣ ، م٢ ، ص ٣٧٢ .

(٣٠) راجع ابن طولون ، المصدر نفسه ، م١ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٣١) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٧٧ ، م٢ ، ص ٩١ ، وانظر كذلك لنفس المؤلف ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م ،

(٣٢) محمد بن أحمد بن اياس (ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٣م) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، م٢ — م٥ ، حققه محمد مصطفى المنشورات الاسلاميــة لجمعية المستشرقين الالمانية ، ١٩٦٠ ــ ١٩٦٥ ، م٤، ص ١١٧ .

(٣٣) نجم الدين محمد الغزي (ت ١٠٦١هـ/١٦٥٠م)، الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة ، ٣م ، حققه جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٤٥ ــ ١٩٥٩ ، م٣ ، ص ١٥٧

(٣٤) انظر حجيج بن قاسم الوحيدي الحلبي (تح ٩٩٢هـ/١٥٨٤م ؟) رحلته المحفوظة في مكتبة معهد الاستشراق بلننغراد ، تحت رقم 8800 ورقة ٢٧ ب ، ٢٨ أ ، انظر ملاحظات اغناطيوس كراتشكوفسكي عن هـذه الرحلة في كتــابه : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ٢م ، نقلـه الـى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، م٢ ، ص ٦٨٩ ــ ٦٩٠ .

(٣٥) حسن بن محمد البوريني (ت ١٠٢٤هـ/١٦١٥م) ، تراجم الاعيان من ابنـاء الزمان ، الجزء الاخير من الكتاب والذي ما يزال مخطوطا ، نسخة فينا Cod. Arab. Mixt 346 ورقة ١٢٣ ب ــ ١٢٥ أ .

(٣٦) أحمد بن محمد الخالدي الصفدي ، (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤م) تاريخ الامير فخر الدين المعني ، المنشور باسم لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني ، حققه اسد رستم وفـؤاد افـرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنـانية ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦ ــ ٢٧ ، حول رشيد بن سلامة بن نعيم ، انظر ايضا البوريني ، المصدر نفسه ، حققه صلاح الدين المنجد ، ٢م ، منشورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م٢ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ .

(٣٧) محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي ، الشهير بابن كبريت المدني ، (ت ١٠٧٠ هـ / ١٩٥٩م) ، رحلة الشتاء والصيف ، حققها وقدمهـــا وفهرسها محمد سعيد الطنطاوي ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م ، ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ .

(٣٨) ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (ت ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢ م) ، تحفه الادباء وسلوة الغرباء، ٣ م ، سلسلة الكتب والتراث وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٦٩ ــ ١٩٨٠ ، م١ ، ص ٨١ ــ ٨٦ .

(٣٩) عبد الغني النابلسي ، (ت ١١٤٣هـ/١٧٣١م)، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، مخطوط مكتبة اسعد افندي رقم ٢٣٧٦ ، توجد عنها صورة مصورة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الاردنية ، تحت رقم ٥٧٣ ، ورقة ٣٨٣ أ ــ ٣٨٣ ب ،

(٤٠) رسلان بن يحيى القاري الشاغوري (لا تذكر كتب التراجم تاريخ وفاته وهو من اهالي القرن الثالث عشر الهجري) ((الوزراء الذين حكموا دمشق)) ، نشرها صلاح الدين المنجد مع كتـاب الباشات والقضاة لمحمد بن جمعة المقار باسم ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ص ٨٠ ــ ٨١ .

(٤١) الشيخ احمد البديري الحلاق (ت ١١٧٥هـ / ١٧٦١م) ، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤هـ - ١١٧٥هـ ، نقحها الشيخ محمد سعيد القاسمي (ت ١٣١٧هـ / ١٨٩٩ م) ، حققها احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٤٢) رسلان القاري ، المصدر نفسه ، ص٧٩ - ٨٠ .

(٤٣) البديري ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ - ٢١١ ، ولمزيد من المعلومات راجع ايضا ترجمة حسين باشا بن محمد مكي بن فخر الدين الذين اشتهر نسبهم بالفخر الغزي ، لدى السيد محمد خليل المرادي (ت ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١م) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤م ، تصوير مكتبة المثنى ، بغداد ، لا . ت ، م٢ ، ص ٦٠ - ٦٢، راجع كذلك المعالجة الوافية لهذا الهجوم لدى
A. Rafeq, **The Province of Damascus 1723 - 1873,** Bayrut, 1970, p. 213
Karl k. Barbir, **Ottoman Rule In Damascus 1708 - 1858** Princeton University Press N. J. 1980, p. 175

(٤٤) حسن بن عبد اللطيف الحسيني ، تراجم اهل القدس في القرن الثاني عشر ، مخطوط المتحف البريطاني OR 3047 ورقة ٣٠ أ ، ومخطوط المتحف الفلسطيني (القدس) ، ص ١٢٣ - ١٢٤ وكذلك المرادي ، المصدر نفسه م٤ ، ص ٢٤.

(٤٥) المرادي ، المصدر نفسه ، م٢ ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(٤٦) القاري المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(٤٧) القاري ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(٤٨) القاري ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٤٩) يلاحظ ان عددا من الولاة قادوا قافلة الحاج من امثال احمد باشا الجزار ، كما اولى الولاة عناية فائقة لسلامة الحجاج ، انظر القاري : المصدر نفسه ، ص ٨٥ - ٨٦ ، ص ٨٨ .

(٥٠) عبد الرحمن بن الحسن بن ابراهيم الجبرتي (ت ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢ م) تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ٣م ، دار الفارس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، م٣ ، ص٢٤٧ - ٢٤٨، انظر ايضا النصوص التي جمعها محمد اديب غالب ، من اخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٧٥ ، ص ١١٥ - ١١٨ ، ص ١٥٥ ، راجع ايضا سليمان بن محمد الغنام ، قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (١٨١١ - ١٨٤٠) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا ، دار تهامة ، جدة ١٩٨٠ ، ص ٢٦ - ٣٤ .

(٥١) John Lewis Burckhart, **Travels In Syria and The Holy Land,** London, 1822. pp. 436 - 437.

كان بيركهارت قد تسمى باسم ابراهيم بن عبد الله ، وزار مكة المكرمة حيث ادى فريضة الحج، توفي بالقاهرة في ١٦ ذي الحجة ١٢٣٢ هـ ، راجع خير الدين الزركلي ، الاعلام ، م٩ ، ص ٣٥٠.

(٥٢) التقرير مفصل وتاريخه ٢٧ صفر سنة ١٢٥١هـ/٢٤ حزيران ١٨٣٥م ، ومحفوظ ضمن وثائق عابدين، محفظة رقم ١٨ ، وهو مقدم الى محمد على باشا .

(٥٣) انظر : سالنامة ولايت سورية ، سنة ١٣٠٢هـ، ص ١٧٣ ـ ١٨٠ ، حول اهمية السالنامات في بحوث تاريخ الجزيرة ، راجع مقالة ، محمد حرب ، « السالنامة العثمانية واهميتها في بحوث الخليج والجزيرة العربية » ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد ٣٣ ، السنة التاسعة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ، ص ١٤٥ ـ ١٧٥ .

(٥٤) سالنامة ولايت سورية ، سنة ١٣١١ هـ ، ص ٢١١ ـ ٢١٦ .

(٥٥) سالنامة ولايت سورية ، ١٣١١هـ ـ ١٣١٢ هـ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٨ .

(٥٦) انظر سالنامة سنة ١٣١٦ هـ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٣٠ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤ ، سالنامة سنة ١٣١٧ هـ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٦ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٨٠ ، ص ٢٩٩ ص ٣٦٧ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

(٥٧) راجع منيب الماضي وسليمان موسى ، تاريخ الاردن في القرن العشرين ، عمان ، ١٩٥٩ ، ص١٣ ـ ١٥ ، انظر ايضا :
William Ochsenwald, **The Hijaz Rail Road,** University Press of Virginia, 1980, pp. 135 - 136.

(٥٨) راجع السيد محمد عارف ابن السيد احمد المنير الحسيني الدمشقي ، (ت ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م) السعادة النامية الابدية في السكة الحجازية الحديدية ، حققه وترجمه الى الانجليزية Jacob M. Landau ونشرته مطبعة جامعة ، Wayne state University، في ديترويت ١٩٧١ ، ص ٧ ـ ٢٨ ، ص ١٥ ، ص ٤٤ ، ص ٧٤ ، ص ٧٨ من النص العربي .

(٥٩) William Ochsenwald, **The Hijaz Rail,** 1980, pp. 135 - 136.

(٦٠) راجع منشور الثورة الاول ٢٦ حزيران ١٩١٦ حيث جاء فيه « ... الى ان نشات في الدولة جمعية الاتحاد وتوصلت للقبض على ادارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة فحادوا عن صراط الدين ومنهج الشرع القويم ، ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار ائمته وسلبوا شوكة السلطان المعظم ما له من حق التصرف الشرعي القانوني ايضا .. » انظر : الثورة العربية الكبرى وثائق واسانيد ، تحرير سليمان موسى ، منشورات دائرة الثقافة والفنون ، عمان ١٩٦٦ ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٦١) راجع التفاصيل لدى سليمان موسى ، الحركة العربية : سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ، ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ ، دار النهار للنشر، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ .

(٦٢) سليمان موسى ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(٦٣) سليمان موسى ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٢ .

(٦٤) سليمان موسى ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٢ ـ ٣١٠ .

(٦٥) التقرير مرسل من الكولونيل لورنس بتاريخ ١٧ رمضان ١٣٣٦هـ/٢٥ حزيران ١٩١٨م والرسالة بخط لورنس نفسه ، وباللغة العربية ، راجع سليمان موسى ، المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨ ، عمان ١٩٧٣ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

(٦٦) سليمان موسى ، المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ص ١٦٢ ، نص الرسالة موجه من فيصل الى زيد من القويرة تاريخها ٢٠ ربيع الاول ١٣٣٦هـ/٣ كانون ثاني ١٩١٨ ، وهي اصلا ماخوذه عن أوراق الامير زيد .

(٦٧) انظر يوميات الامير زيد التي نشرها مع قسم من اوراقه ، سليمان موسى تحت عنوان الثـورة العربية الكبرى ، الحرب في الاردن ١٩١٧ – ١٩١٨ ، مذكرات الامير زيد ، عمان ، ١٩٧٦ ، ص ١١٤ – ١١٥ .

(٦٨) راجع المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ص ١٨١ – ١٨٢ ، ص ١٨٥

(٦٩) انظر المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ص ١٨٥ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ – ١٩١ ، اوراق الامير زيد ، ص ١١٦ ، جاءت تفاصيل هذه الهجمات في رسالة صادرة من سمنه ٢ رجب ١٣٣٦هـ/ ١٣ نيسان ١٩١٨ موجهه من الامير فيصل الـى الملك حسين .

(٧٢) المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

(٧٣) راجع تقرير باست الى الملك حسين تاريخ ٢٦ شوال ١٣٣٦هـ/٣ اب ١٩١٨ ، حـول سير المعارك ، المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨، ص ٢٠٩ .

(٧٤) راجع المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ص ١٩٩ . رسالة علي وهبي صادره عن معان بتاريخ ٣٤/٦/١٤ رومي ، ١٩١٨/٦/١٨ .

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ وهي اصلا موجودة ضمن اوراق الامير زيد .

(٧٦) المراسلات التاريخية ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ص ٢٠٩ ، كان احتلال الاتراك لطابية الحمراء في ٢٦ تموز سنة ١٩١٨ وفي ١٩١٨/٨/١ قصفت الطائرات التركية معسكر زيد بالقرب من الطاحونة الحمراء، راجع اوراق الامير زيد ، ص ١٢٣ .

(٧٧) أوراق الامير زيد ، ص ١٢٣ .

(٧٨) اوراق الامير زيد ، ص١٢٥ .

(٧٩) اوراق الامير زيد ، ص ١٢٥ .

(٨٠) اوراق الامير زيد ، ص ١٢٧ .

(٨١) اوراق الامير زيد ، ص ١٢٨ .

(٨٢) أوراق الامير زيد ، ص ١٣٠ .

(٨٣) اوراق الامير زيد ، ص ١٣٢ .

(٨٤) راجع المراسلات التي اوردها سليمان الموسى في كتاب المراسلات التاريخية ، ص ١٧٣ ، ص ١٨٤ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ ، ٢٠٩ .

(٨٥) المراسلات التاريخية ، ص ١٥١ ، ص ١٥٢ – ١٥٣ ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٦ ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨، ص ١٩٥ ، ص ١٩٦ ، ص ٢١٠ .

(٨٦) خير الدين الزركلي ، عامان في عمان ، المطبعة العربية بمصر ، ١٩٢٥ ، ص ٩ – ١٤ .

(٨٧) عبد الله بن الحسين ، الاثار الكاملة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ص ١٥٦ .

(٨٨) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٨٩) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

(٩١) ارتجل علي رضا باشا الركابي خطابا في معان تورده جريدة الشرق العربي : الجريدة الرسمية لحكومة شرقي الاردن ، بعددها رقم ١٠٩ ، تاريخ ٢٤ ذى الحجة ١٣٢٣ هـ / ١٥ تموز ١٩٢٥ ، وكان هذا الخطاب بمثابة بيان لعمل وزارته ، وينصح بمراجعته لاهميته .

(٩٢) Sir Gilbert Falkingham Clayton, ,An Arabian Diary UCLA Press , 1969 pp. 99 - 129.

راجع نصوص المعاهدة في جريدة الشرق العربي، عدد ١١٩ ، تاريخ ١٩٢٥/١٢/١٥ ، ص ١٢ – ١٤ ، وكذلك راجع غالب ابو جابر ، المعاهدات الاردنية ، ٣م ، عمان ١٩٧٥ ، م١ ، ص ١٢ ، أنظر ايضا علي المحافظة ، العلاقات الاردنية البريطانية ، من تاسيس الامارة حتى الغاء المعاهدة ١٩٢١ – ١٩٥٧ ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٦٢ – ٦٣ .

(٩٣) حول حياة جورج انطونيوس (١٨٩٣ – ١٩٤٢م) ، صاحب كتاب يقظة العرب ، راجع خير الدين الزركلي ، الاعلام ، م٢ ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

★ ★ ★

الدولة الرستمية في تيهرت

د . سهيل زكار

جامعة دمشق

بعدما قامت الخلافة العباسية ، وقعت هذه الدولة أسيرة لمشاكل الشرق الاسلامي ، مما اضطرها في كثير من الاحيان الى عدم الاهتمام بمشاكل الغرب الاسلامي ، ولهذا نلاحظ أن قوى كثيرة نشطت في أجزاء من الغرب ، واستطاعت اقامة دول مستقلة عن الخلافة العباسية .

ومن الملاحظ أن الغرب الاسلامي ، بعدما دخل في الاسلام ، قامت فيه حركات كبيرة معارضة للحكم الاموي ، وكان جل هذه الحركات في بداية القرن الثاني يؤمن بأفكار الخوارج ، وينتسب الى احدى فرقهم ، وقد نجم عن حركات الخوارج نتائج كبيرة ، كان أبرزها قيام دولة الائمة الرستميين في تيهرت (بعمالة وهران الحالية في الجزائر) ودولة بني مدرار في سجلماسة في المغرب الاقصى ، ويمكن أن نضيف اليهما دولة برغواطة في المغرب الاقصى على شواطىء الاطلسي ، ايضا .

ودولة الائمة الرستميين الخارجية ، هي أول دولة « فارسية » تأسست في الاسلام ، وقد أسس هذه الدولة سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م عبد الرحمن بن رستم ، الذي كان ايراني الاصل ، قدم المغرب بعد فتحه ، والتحق بجماعات الاباضية من خوارج المغرب ، وكان رأسهم يعرف بأبي الخطاب ، وقد استقر أبو الخطاب في وقت تأسيس الدولة العباسية في طرابلس الغرب .

وفي هذا الوقت كان قد تغلب على جزء كبير من المغرب حبيب بن عبد الرحمن الفهري ، وظل هكذا حتى قهرته قبيلة ورفجومة البربرية ، وغلبته على أمره ، وقامت هذه القبيلة بزعامة عاصم بن جميل باقتحام مدينة القيروان ، فقتلت كل قرشي كان فيها ، واستباحتها واستهانت بحرمة مساجدها .

واغضبت هذه الفعلة الشنعاء أبو الخطاب الاباضي ، فتحرك من طرابلس الى القيروان فاحتلها ، وجاء هذا في وقت وصلت فيه أخبار افريقية الى مسامع أبي

جعفر المنصور ، فقام بارسال جيش كبير بقيادة محمد بن الاشعث ، نحو المغرب ، وكلفه بابعاد خطر الخوارج عن مصر ، والعمل على تشتيت قواهم في المغرب .

وحين علم ابو الخطاب بأخبار حملة ابن الاشعث ، غادر القيروان نحو طرابلس، واناب في القيروان عبد الرحمن بن رستم ، وبعد معارك طاحنة هزم ابن الاشعث جيوش الاباضية ، وقتل زعيمهم أبو الخطاب ، ثم توجه نحو القيروان ، فخرج منها ابن رستم فارا مع ثلة من رجال الاباضية ، ولاحقته قوات ابن الاشعث ، ولم يكن معه ورجاله الا فرس واحد ، فمات ببعض الطريق ، ودفنوه مخافة ان يقتفى اثرهم ، فيطمع فيهم من يتبعهم ، ويجتهد في طلبهم ، ان علم بموت فرسهم ، وقد ضعفت قوة الشيخ عبد الرحمن فصار يحمله عبده تارة وابنه تارة ، فـاذا حمله العبد قال له عبد الوهاب : ان أدركنا العدو فلا تضعن أبي الا دون خمسمائة أو نحوها ، فاذا أعيا العبد حمله عبد الوهاب ، فقال له العبد مثل ذلك » .

وتابع عبد الرحمن فراره حتى التجأ الى جبل اسمه « سوف اجج » وكـان جبلا منيعا ، ومن هناك راسل بقايا أباضية افريقية واباضية نفوسة طرابلس ، فلحقوا به ، وكثر من جديد عدد أتباعه « وتسامع ابن الاشعث بخبر عبد الرحمن ، واجتماع الناس عليه فأقبل مجدا في طلبه ، فأخبر أنه في جبل منيع يقال له سوف أجج ، فقصده حتى وصله ، وحاصر عبد الرحمن بن رستم وأحدق على عسكره في حصاره اياه ، مخافة أن يفاجئهم عبد الرحمن ومن معه ... ويطرق عليهم بليل ، فأطال المقام تحته ، فوخم عسكر ابن الاشعث ، ووقع فيه الجدري ، فمات منهم بشر كثير ، وجمع ابن الاشعث أصحابه وقال لهم : ان هؤلاء القوم في جبل منيع .. لا يدخله الا دارع ، أو مدجج ، ماذا ترون فاشار عليه بعضهم بالاقامة ، وأشـار عليه آخرون بالارتحال عنهم ، فأخذ برأي الذين أشاروا عليه بالارتحال ، فارتحل الى مدينة القيروان ، وقد أيس من عبد الرحمن وأصحابه » .

وبعد رحيل ابن الاشعث نزل عبد الرحمن بن رستم من الجبل ، وشـرع بارتياد مكان في الداخل يتخذه الاباضية مقرا لهم ، بعيدا عن القيروان وغيرها من الحواضر ، قريبا من منازل القبائل . لذلك اتجه نحو الغرب ، وأرسل رجالا مـن ذوي المعرفة وفرقهم في الجهات ، ولدى استكمال عملية البحث هذه نزل كما هو مرجح سنة ١٦١ هـ/٧٧٨ في غيضه في سفح جبل جزول ، فاختار منها موضعا مربعا لا شعراء فيه ، فنزل فيه ، فقالت البربر : نزل تيهرت (وتفسيره الدف لتربيعه). واختط عبد الرحمن موضع مدينة جديدة ، أو بشكل أدق موضع معسكر جديد للاباضية ، واستعمل خشب الغابة في بناء المسجد وأكواخ المعسكر ، وسرعـان

ما تطور هذا المعسكر وتحول الى مدينة ذات منازل واسعة وقصور واسواق ، وطارت شهرتها .

وفي الادب التاريخي للاباضية روايات ضافية التفاصيل حول تأسيس تيهرت ، متأثرة بالروايات التي تحدثت عن تأسيس القيروان من قبل عقبة بن نافع ، ففي كتاب طبقات المشايخ للدرجيني ، أن الاباضية عندما « اتفقوا على عمارتها (تيهرت) امروا مناديا ينادي بسباعها ووحوشها وهوامها أن اخرجوا ، فانا أردنا عمارة هذه الارض ، فأجلّوها ثلاثة أيام ، وبلغنا انهم رأوا وحوشها تحمل أولادها خارجة بها منها ، فكان ذلك سما رغبهم في عمارتها ، وقوى عزمهم على انشائها » . ولعل الذي سبب خروج الحيوانات من وسط الغابة التي اختيرت لتكون أرض معسكر ، ثم مدينة جديدة ، هو أن الاباضية « أطلقوا النيران فاحترقت أشجارها » والطريف هنا ما تجمع المصادر المبكرة في الحديث حوله : مسألة التخلص من جذور الاشجار بعد احراق جذوعها ، فقد جاء أن الاباضية « عمدوا الى حيس (دقيق) فلثوه بعسل وجعلوا تحت أصل كل شجرة منها شيئا قليلا ، فلما جن الليل طرقت الخنازير تلك الاصول ، فجعلت تتبع رائحة الحيس ، وتحفر تحت الاصول ، حتى اتت على آخرها ، فلما أصبحوا وجدوها مقتلعة ، فعمدوا الى مكان فأصلحوه لصلاتهم ، فلما أرادوا بناءه ، وقع اختيارهم على أربعة مواضع فأقرعوا عليها ، أيها يجعل المسجد الجامع ، فوقعت القرعة على المكان الاول ، الذي أصلحوا الصلاتهم ، فبنوا الجامع به» .

وعندما وقع الاختيار على موقع المدينة الجديدة ، روعيت مسألة توافر المياه ، ولهذا وصفت فيما بعد بأنها واقعة « على نهر يأتيها من جهة القبلة ، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع ، تسمى (نافس) ومنها شرب بساتينها ، وهي في شيء ، وفيها جميع الثمار ، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم ، والثلج » وقد وصف أحد شعراء تيهرت مدينته في القرن الثالث بقوله :

ما أحسن البرد وريعانه	وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت	كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة	تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت	كفرحة الذمي بالسبت

وبرد تيهرت مرده الى أنها تقع على ارتفاع /١١٠٠ م/ وكانت تشرف على منطقة سهول منداس ، وعلى الطريق الموصلة من هذه المنطقة الى ساحل البحر الابيض المتوسط ، عابرة لسهول وادي شلف . وجعل منها وجودها قرب منطقة سباسب

شاسعة صالحة للرعي ، مركزا لاتصال مستمر بين البدو الرحل ، وسكان المدن والبلدان والقرى . وكان هذا من العوامل التي ساعدت فيما بعد على ازدهار الحركة التجارية فيها . يضاف الى هذا أنه انتهى قرب تيهرت طرف جبل ونشريس ، الذي سكنته قبائل من البربر كثيرة .

خطط للمدينة الجديدة أربعة أبواب ، وواضح أن عبد الرحمن بن رستم لم يؤسس مدينته الجديدة في بقعة غير مأهولة ، بل في منطقة كثيفة السكان ، لكن بلا حواضر كبيرة ، يضاف الى هذا أن اختيار عبد الرحمن لموقع مدينته لم يأت بدعا ، فعلى بعد خمسة أميال فقط من مدينته الجديدة ، كان يوجد بقايا مدينة عرفت في عهود ما قبل الاسلام ، وربما في العصر الروماني ، وباتت تدعى الان باسم تيهرت القديمة .

لحسن الحظ أن الادب الاباضي غني بالكتابات التاريخية المفيدة ، لكن من المفيد أن نبين هنا أنه على أهمية المواد الاباضية ، فان أحسن المواد عن تيهرت وتطور تاريخها نجده لدى واحد من المؤرخين الافارقة من غير الاباضية ، وهو ابن الصغير المالكي القيرواني . عاش ابن الصغير بين الاباضية ، وجمع أخبار دولة تيهرت ، وتحرى في سردها الصدق والحياد ، بعدما أخذ على نفسه : « لا أحرفها عن معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها اذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات ، ولا من أخلاق ذوي الديانات ، وان كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين ، ولمذاهبهم مستقلين ، فنحن وان ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا ، وعدلهم فيما ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ، ولا حسن سيرهم ، لما نعلمه من براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه » .

وبعدما استقرت أحوال الاباضية في تيهرت « اجتمع رؤساؤهم فقالوا : قد علمتم أنه لا يقيم امرنا الا امام نرجع اليه في أحكامنا ، وينصف مظلومنامن ظالمنا ، ويقيم لنا صلاتنا ، ونؤدي اليه زكاتنا ، ويقسم فيئنا ، فقلبوا امرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان ، أو أكثر يدبر أمر القبيل ، ويستحق امر الامامة ، وقال بعضهم لبعض أنتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ، ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم ، فتفسد النيات ، ويكثر الاختلاف ، ويقل الائتلاف ، ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ، ولا عشيرة له تحميه ، وقد كان الامام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا ، فقلدوه أموركم ، فان عدل فذلك الذي أردتم ، وان سار فيكم بغير عدل عزلتموه ، ولم تكن له قبيلة تمنعه » .

وهكذا قام خوارج تيهرت بمبايعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة ، وعلى هذا أسس ابن رستم في آن واحد مدينة جديدة ، ودولة جديدة ، وحتى أسرة حاكمة جديدة .

وانتشرت بسرعة أخبار تأسيس الامامة الجديدة مع قيام تيهرت ، فنالت الولاء من خوارج المغرب الادنى والاوسط ، خاصة من سكان جبال نفوسة وأهل جزيرة جربة ، وبلغت هذه الاخبار مسامع الخوارج في المشرق ، خاصة في البصرة وعمان ، فجمع خوارج البصرة « أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم ، وقال بعضهم لبعض : قد ظهر بالمغرب امام ملأه عدلا ، وسوف يملك المشرق ويملأه عدلا ، فانهضوا اليه بما معكم من هذه الاموال ، حتى تردوا المدينة التي سكنها ، فان كان على ما نقل لنا من حسن طريقته ، وصحة سيرته ، فادفعوها اليه ، وان كان على غير ذلك فانظروا الى أفعاله وما يتولاه من الاحكام بين رعيته ، ثم اتونا بذلك كله ، فمضى القوم حتى أتوا المدينة ... فأناخوا جمالهم ، ووضعوا أحمالهم ، وتقدموا .. يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الامام عبد الرحمن حتى وقفوا عليها ، وأصابوا عند بابها غلاما يعجن طينا ، ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه ، والغلام يناوله ما يصلح به ، فسلموا على الغلام ، فرد السلام ، ثم قالوا : هذه دار الامام ؟ فقال : نعم ، فقالوا له : استأذن لنا ، وأعلمه أنا رسل اخوانه اليه من البصرة ، فرفع الغلام رأسه الى سيده ، وقد علم أنه سمع كلامهم ، فقال قل للقوم يصبرون قليلا ، ثم أقبل على ما كان عليه من اصلاح عمله ، حتى انقضى ، والقوم ينظرون اليه ، وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا ، حتى نزل عن سطحه الى داره ، فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة فأذن للقوم ، فدخلوا عليه ، فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره ، فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل اخوانه اليه ، فأمر غلامه باحضار طعامه ، فأتاه بمائدة عليها قرص سخّنت وسمن وشيء من ملح ، فأمر بتلك القرص فهشمت ، وأمر بالسمن فلثت به ، ثم قال على اسم الله ادنوا ، وكلوا ، ثم أكل معهم بأكلهم ، فلما انقضى طعامهم قال : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ » وقبل أن يجيبوه « استأذنوا للتنحي عنه للنجوى ، فأذن لهم ، فتناجوا واتفقوا أن يدفعوا له المال ، وأنهم بما عاينوه من أحواله راضون » فلما وصلت الاموال أعطيت لعبد الرحمن ، فقام بناء على مشورة أصحابه بتوزيع بعضها على الفقراء واشترى بالباقي سلاحا ومعدات .

وكان لهذه الصورة العمرية بمثاليتها عظيم الآثار ، حيث لما رجعت الرسل الى المشرق طارت أخبار عبد الرحمن وامامته ومدينته ، فقصدها مجموعات كبيرة

من خوارج المشرق ، مع جماعات من الايرانيين ، الى دعاة لمختلف أحزاب وفرق العالم الاسلامي ، وخاصة الواصلية من المعتزلة ، إلى بعض التجار وأصحاب الصناعات وأرباب الحرف .

ونشطت حركة الهجرة الى هذه المدينة الناشئة ، وعظم عدد المهاجرين اليها من غير الخوارج ، وصار المهاجرون والتجار يبنون فيها البيوت الضخمة والقصور والاسواق ، والمتاجر . وصحيح أن المدينة قامت في الاصل لتلبية حاجات الاباضية ، لكن سرعان ما استقر بها فئات من السنة والمعتزلة ، خاصة الواصلية ، وبنى هؤلاء مساكنهم ومساجدهم . ويقول ابن الصغير واصفا سرعة تطور تيهرت : « وأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار ، وأقاصي الاقطار ، فقال ليس أحد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين أظهارهم لما يرى من رخاء البلد ، وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه نفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل الى بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الامتعة» .

وبسرعة مدهشة تحولت المدينة الجديدة من معسكر عبد الرحمن الى مدينة كبيرة ، ومن مقر امامة مثالية زاهدة الى مقر دولة ودار ملك فخم ، وكثرت الاموال وعظمت الثروات ، وبينما هذا كله يحدث في المغرب ، كان خوارج المشرق يعيشون مع الصورة التي حملها اليهم الرسل ، وكانوا يقولون بعضهم لبعض : « امامكم بالمغرب ، خلف من أبي بلال مرداس بن ادبه ، ومن أبي حمزة الشاري » . واستمرت أعمال جمع الاموال لتبعث الى تيهرت للمساعدة ، وبالفعل تجمعت لدى خوارج البصرة كمية من المال قرروا مجددا ارسالها الى المغرب .

وحين قرر البصريون بعث المال : « أرسلوا الى رسلهم الاولين وأعلموهم بما جمعوه من المال ، وأن ذلك كله في سر وخفاء من العمال والاجناد ، لئلا يطلعوا عليهم ، فيهلكوهم ، وسألوهم كتمان ذلك ، فأجابتهم الرسل الى ما دعوهم اليه من حمل الاحمال وتوجيههم بها الى عبد الرحمن ، فلم تزل بذلك حتى أتت البلد ، ونزلت بالموضع الذي نزلت به أولا ، ثم توجهت نحو عبد الرحمن ، فوجدوا الامور قد تبدلت ، وأحوال المدينة والاشياء قد حالت ، وذلك أنهم نظروا الى قصور قد بنيت ، والى بساتين قد غرست ، والى ارحاء قد نصبت ، والى خيول قد ركبت ، والى حفدة قد اتخذت الستور والعبيد ، والخدام قد كثرت ، فلما رأوا ذلك تحولت نياتهم » . ومع ذلك قصد الرسل دار عبد الرحمن فوجدوها قد تحولت

الى قصر منيف ، ومع هذا فقد لقوا عبد الرحمن « على ما عرفوا من التواضع » وتيقنوا بعد السؤال أنه « ما تغير ولا تبدل » فعند ذلك اعلموه بسبب قدومهم ، وما حملوه معهم من الاموال ، فرفض قبولها ، وطلب ردها لتصرف بين فقراء خوارج المشرق وقال : « انما كنا قبلنا ما قبلنا ... للحاجة التي كانت بنا .. والفاقة التي لزمت عوام اخواننا ، فالان اننا مستغنون عن أموال غيرهم » .

وتبعا لما لحق تيهرت من تطور تطورت فيها الحياة الاجتماعية ، وقام فيها نشاط تجاري وزراعي كبير ، وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية ، وتطورت بها في نفس الوقت حركة ثقافية واسعة ، فغدت مركز اشعاع حضاري نحو قلب أفريقيا ، وباتت تعرف باسم « عراق المغرب » و « بلخ المغرب » .

وسادت الحرية الدينية في عاصمة الاباضية ، ومع ذلك لم ينس عبد الرحمن ابن رستم تعاليم دعوته ، والمخاطر القادمة من القيروان ، لذلك استمر يحارب حكام القيروان ، وقام بانشاء حلف مع خوارج سجلماسة على أطراف صحراء المغرب الاقصى ، وحقق بذلك ، وبحسن سياسته ، وبفضل سلوكه الشخصي ، وتقشفه في ملبسه ومأكله ومسكنه وتواضعه ، وكفاءة ادارته ، الاستقرار والقوة لدولته ، فتألفت عليها القلوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات والاصول ، فكان بها خوارج من أباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزلة ، يمثلون مختلف قبائل البربر مع جماعات من العرب والعجم .

ولما أدركت عبد الرحمن الوفاة سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م جعل الامر من بعده «شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه» وكماأدخل عمر بن الخطاب ابنه عبد الله معالشورى له حق الترجيح دون الترشيح ، أدخل عبد الرحمن ابنه عبد الوهاب انما مع حق الرشيح والانتخاب . فلما توفي عبد الرحمن ، وتداول القوم فيما بينهم ، أختار اكثريتهم ابنه عبد الوهاب وهكذا تغلبت فكرة التوريث على فكرة الانتخاب . وانكر بعض الاباضية ذلك ، فانفصلوا عن اباضية تيهرت ، فعرفوا بعد ذلك بالنكار . وسيكون لهؤلاء دور كبير جدا فيما بعد في الثورة ضد الخلافة الفاطمية في المهدية .

وفي عودة الى الادب التاريخي الاباضي ، وهو أدب غني فيه مواد رفيعة ، نجد أن النكار أعلنوا أولا عن معارضتهم لبيعة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كلاميا فقالوا : « نبايعه على شرط أن لايقضي أمرا دون جماعة معلومة » فقيل لهم « لانعلم في الامامة شرطا غير أن يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه » . ولم يقنع النكار وأثاروا

جدلا طويلا حول مسألة الامامة وأحقية الوصول اليها ، والشروط التي ينبغي أن يتمتع بها الامام . لقد كان الصراع بين الاباضية صراع بين الخوارج « الجمهوريين » والخوارج « الملكيين » ، ومثل الفئة الاولى رجال القبائل ، ومثل الفئة الثانية غالبية أهل مدينة تيهرت .

وكان من عادة قبائل البربر الانتجاع في مطلع الربيع من كل سنة نحو تيهرت . فلما كان ربيع السنة التي اختير فيها عبد الوهاب انتجعوا « أكمل انتجاع انتجعوه قط » وكان على رأس القبائل المنتجعة مزاته وسدراته ، ودخل زعماء هذه القبائل الى تيهرت فاجتمع اليهم زعماء المعارضة ، وقالوا لهم : « ان الامور قد تغيرت ، والاحوال قد تبدلت ، قاضينا جائر ، وصاحب بيت مالنا خائن ، وصاحب شرطتنا فاسق ، وامامنا لايغيرن من ذلك شيئا » وذهب زعماء القبائل الى الامام عبد الوهاب ورفعوا اليه ما سمعوه فتجاوب معهم وأظهر أنه على استعداد لتغيير سياسته وعزل من رغبوا بعزله ، وقال لهم : « قدموا من رأيتم واخروا من رأيتم ، فدعوا له وأثنوا عليه ، فقالوا خيرا ، ثم انصرفوا ، فلما انصرفوا دخل على عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده وأهل بطانته ، فقالوا : ما بال اخواننا أتوك اليوم باجمعهم ، فأخليت لهم مجلسك ، وحجبت من سواهم ، فذكر لهم ما قالوا له ، وما أشاروا عليه ، فقالوا له : وما أجبتهم به فذكر لهم جوابه ، فقالوا له : أسأت الى نفسك والينا ، والى جميع اخوانك ورجالك ، فقال : وكيف ذلك ، وما سألوا شططا ، وما قالوا الا خيرا فقالوا : ليس نظرهم عندما قلت ، ولا معناهم عندما رأيت ، ولكن سألوك أن تعزل قاضيك وصاحب بيت مالك ، والقائم بشرطتك ، فاذا فعلت ذلك شكروك وحمدوك ، ثم أتوك بعد ذلك ، فقالوا لك : ان المسلمين قد نقموا عليك أشياء ، أو على ولديك ، فان أجبتهم الى ذلك شكروك وحمدوك ، وان أبيت لهم من ذلك خلعوك ونبذوك ، ثم لا تأمن ، ولو اجبتهم الى كل ما سألوك أن يأتوك فيقولوا لك : ان المسلمين في ابتداء امرك لم يجتمعوا عليك ، فانخلع واردد اليهم امرهم ، فان اجتمعوا عليك جملة فزت بحظك ، وكان ذلك زيادة لك في شرفك » .

وانصت عبد الوهاب لهذه الآراء وبدل مواقفه ، وهكذا اشتد الجدل بين الإباضية وقاد ذلك الى انشطارهم الى فئتين : وهبية ، ونكارية ، وتزعم النكارية احد رجال الستة من الشورى واسمه يزيد بن فندين ، وكان يزيد هذا من كبار شيوخ الخوارج ، وممن عارض بيعة عبد الوهاب ، وطالب بتأسيس مجلس من أهل الحل والعقد يعهد اليه بمهمة اختيار الامام ، الذي عليه أن يخضع لاوامره ، وهكذا لما رفض رأيه ، وأخفقت ضغوطه القبلية حمل هو وانصاره السلاح في وجه عبد

الوهاب وشيعته . والمدهش في هذا النزاع هو تورط الفئات الاخرى من غير الاباضية فيه .

فقد كان من أكبر الفئات في ضواحي تيهرت جماعة الواصلية من المعتزلة ، وقد رأى الواصلية ما رآه النكار وابن فندين ، وجرت بين ابن فندين وبين عبد الوهاب معارك طاحنة قتل فيها ابن لعبد الوهاب ، وكاد ابن فندين أن ينتصر فيها ، لولا أن تجارب التاريخ الاسلامي أعادت هنا نفسها ثانية بشكل غريب جدا ، فمسألة الشورى العمرية نالها بعض التعديل ، لكن المسألة الان هي أن الاباضية استعاروا تجربة التحكيم ، وهي تجربة رفضت من قبل أسلاف الخوارج ، لقد لجأ عبد الوهاب ابن رستم الى التحكيم ، ناسيا وشيعته أو متناسيا أن الاصل في قيام الخوارج ، هو الخروج على قرار التحكيم يوم صفين . وكما حدث في التحكيم الاول حين رجحت كفة البراعة السياسية المدعومة بالقوة المنظمة ، رجحت الان كفة عبد الوهاب ، وانهزم المنشقون مستنكرين لما حصل ، متنكرين لامامة عبد الوهاب ، وانعزلوا عن الامامة الرستمية ، وهكذا غلب عليهم اسم « النكار » .

لقد انتصر عبد الوهاب بن رستم ، بدهائه وحنكته وقوته ، على خصومه ، وكما قال ابن الصغير : « استملك الامر لعبد الوهاب ، وبقيت حزازات النفوس في قلوب عشائر من قتل ، ثم اشتد أمر عبد الوهاب ، وقوى عليه ، وانتقل من حال الامامة الى حال الملك » . .

ومع تحول عبد الوهاب « من حال الامامة الى حال الملك » عمل على معالجة مشكلة القبائل البربرية التي أشار ابن الصغير الى بقاء حزازات في قلوبها ، معالجة سياسية بارعة ، فسعى الى اخضاع جميع القبائل التي ، رغم هزيمتها ، رفضت الاعتراف به ، وظلت شاهرة السلاح في وجهه . وحسب الاعراف البدوية فان القبائل تتكتل باحلاف مصالح ومصاهرة لا بعقائد ، وكان عبد الوهاب يدرك هذا ، وكان يعرف الوضع القبلي حول تيهرت ، فقد كانت أعظم القبائل حول المدينة كل من : هوارة ولواته . وعرف عبد الوهاب بمحاولات لانشاء حلف بين هاتين القبيلتين، فخاف ذلك ، وعلم أيضا أن زعيم هوارة خطب ابنة زعيم لواته لنفسه ، فسارع عبد الوهاب ، فأحضر شيخ لواته « وخطب اليه ابنته ، فزوجه اياها » واغضب هذا زعيم هواره « فقال : عمل علي في جارية خطبتها ورضي الى بتزويجها ، فانتزعها مني بسلطانه ، لاسكنت بأرض هو بها ، وغضبت عشيرته لغضبه ، فارتحل نحو المغرب حتى نزل بوادي هوارة ، وبينه وبين المدينة نحو من عشرة أميال أو أكثر » .

اقامت هوارة معسكرا كبيرا انحشرت اليه جميع فروع القبيلة ، وتحول هذا المعسكر الى شبه مدينة جديدة مهددة لحياة ووجود تيهرت . وقام عبد الوهاب بحشد الجيوش ضد هوارة ، وزحف ضد معسكرها ، وكانت معركة دموية . ويقول ابن الصغير الذي شهد هذه الاحداث : « فكان قتال شديد ، له غبار سد ما بين الخافقين ، قال : وعبد الوهاب ينظر يمينا وشمالا أو قلبا ، فاذا صرف نظره ذات اليمين رأى فارسا ، فيقول : من الفارس هذا قد جفل الناس ؟ فيقال له : ابنك أفلح ، قال : واذا صرف بصره ذات اليسار رأى مثل ذلك ، فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك أفلح ، قالوا : اذا صرف بصره في القلب رأى مثل ذلك فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك أفلح ، قال : لقد استحق أفلح الامامة ، فكان أول يوم عقدت له الامامة » ، وبعد طول قتال انتصر عبد الوهاب ، « وقتل في ذلك اليوم خلق كثير وامم من الامم ، وكان القتل في هوارة أفضح وأشنع » .

لقد رأينا حتى الان كيف تطور الحال بهذه الدولة ، فبعد ماكان عبد الرحمن بن رستم قد بدأ بمثالية عمرية ، تحول وتغير ، انما ظل يختار لدولته ذوي المقدرة والكفاءة من الرجال المتصفين بالعدل والانصاف ، صار ابنه عبد الوهاب لا يهمه من هذا كله الا ما كان فيه التدعيم لسلطانه ودولته التي قبض على ناصيتها بكلتا اليدين ، ومع أنه كان في عهد أبيه مثالا للرجل الصالح ، لدرجة أنه كان قد رشح الى منصب الامامة عن جدارة منذ أيام أبيه ، لكنه ما أن ولي الحكم ، وقامت في وجهه أعمال المعارضة والثورات حتى خلع عن نفسه جلباب المثالية ، وتحول من الامامة الى الملك ، فتدرع بدرع السياسة الفولاذي الذي لا مكان للعواطف لديه ، ولا يتأثر الا بما تمليه المصلحة ، ولا تنفذ فيه سهام الخلق والضمير وغير ذلك من أسلحة الضعفاء ، فبرز عبد الوهاب على المسرح رجلا جبارا عنيدا ، وسياسيا قويا لا يتريث ولا يتردد في ضرب الرؤوس بعضها ببعض ، ولا يتورع عن الاعتماد على سياسة فرق تسد ، فهو على هذا حين حول الامامة الرستمية الى ملك مثل غيره ، سهل عليه السير على طريق الملوك الذين ترتبط سياستهم بمصالح الملك لا بمبادىء العقيدة ، ذلك أن السياسة لدى الائمة مفترض أنها ترتبط بمثل العقيدة ، وهذا التحول يجعل المؤرخ يواجه مشكلة تحتاج الى حل مقنع وتفسير مسوغ بشكل منطقي : هل تحول السلطة الرجال وتقلبهم مما يشبه الايمان الى مايشبه الكفر ، من الاستقامة الى الاعوجاج ، من المثل الى الدهاء والبراعة ؟

المفترض أن السلطة وسيلة لتنفيذ المبادىء وطريق نحو العدالة والمساواة ورفع الحيف ! واذا كان التأريخ تدوين أخبار ما وقع لا ما يتمناه المرء لو أنه وقع ، فهذا ماحصل في تجربة الامامة الاباضية ، وقد حدث نظيره في مختلف بقاع وادوار تاريخ العرب والاسلام ...

لقد حارب عبد الوهاب بن رستم المنشقين عليه من الاباضية ، وهادن في نفس الوقت السلطات العباسية في القيروان ، فوادع روح بن حاتم بن قبيصة المهلبي سنة أحدى وسبعين ومائة (٧٨٧ م) ، وبذلك أمن على دولته من ولاة أفريقية، وتفرغ لجمع جيش خاص به ولتنظيمه ، حتى « اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع للاباضية قبله ، ودان له مالم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة مالم يجتمع لاحد قبله » وامتد ملكه من طرابلس الى تلمسان ، فكان ملكه « ملكا ضخما ، وسلطانا قاهرا » .

ولدى شعور عبد الوهاب بأنه بات لديه ما يكفي من القوة والاستقرار ، تخلى عن موادعة أمراء افريقية ، وكان قد تأسس في القيروان ملك الاغالبة ، فقام عبد الوهاب سنة ١٦٩هـ/٨١٢م بمداهمة أبي العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلبي أمير افريقية ، وحاصره في مدينة طرابلس ، وشدد عليه الحصار وأطاله حتى توفي الامير ابراهيم الاغلبي ، فقام ابنه وخليفته المحاصر بالتفاوض مع عبد الوهاب ، وتم الاتفاق على رفع الحصار عن طرابلس على أن تبقىالمدينة وبحرها للاغالبة ، وما وراء ذلكلعبد الوهاب ، وعاد عبد الوهاب بعد ذلك الى جبال نفوسة ، وقد امتد سلطانه ، وانطوت القبائل البربرية تحت سلطانه ، حتى قبيلة هوراة نفسها التي كانت تحاربه أخذت تستنجد به في حروبها ضد الاغالبة ، وعلى الرغم مما حققه عبد الوهاب من انتصارات على الاغالبة ، فقدظل يخشاهم ، لذلك سعى الى حصار دولتهم بعدد من التحالفات ، فمد يده أولا الى دولة بني مدرار في سجلماسة ، ثم راسل الدولة الاموية في قرطبة الاندلس واتفق معها ضد الاغالبة ، وأرسل سفارة من لدنه الى قرطبة ، استقبلت لدى وصولها استقبالا حافلا .

وكانت مملكة الادارسة قد تأسست في المغرب الاقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة (٧٨٨م) وفي سنة / ١٧٣هـ / استولى ادريس الاول على تلمسان ووصل الى تخوم دولة تيهرت ، وفي هذا الوقت قامت بعض فروع قبيلة زناته البربرية بالعرض على عبد الوهاب بأن ينضم الى المولى ادريس ، ويوحد دولته ويدمجها في الدولة الادريسية الجديدة ، فرفض ذلك ، وكان بعد ما وصل ادريس الى منطقة جبال زرهون في المغرب الاقصى ، وصل أخوه سليمان من مصر ، وحل بتلمسان ، وأنشأ امارة صغيرة، وشغلت دولةتلمسان وظيفة الحجز ما بين الدولةالرستمية ودولة الادارسة، أي كانت أشبه بما يسمى الان Buffer state لذلك لم يسجل لنا المؤرخون أخبار مصادمات بين الرستميين والادارسة ، وعلى العموم دام أيضا السلم بين عبدالوهاب بن رستم وأمير القيروان أبو العباس عبد الله الاغلبي .

لقد توسطت دولة تيهرت الان بين الاغالبة والادارسة وآل سليمان، وتحالفت مع الامويين الذي رأوا في نشاط هذه الدولة ما يدفع عنهم خطر الاغالبة ولاة الدولة العباسية، وكان الاغالبة بدورهم وسط حصار بربري قبلي وسياسي دولي، فدول المغرب الاربع: الرستميون. بنو مدرار، السليمانيون، الادارسة، لم تدن بالولاء للعباسيين، وكان بنو الاغلب قد مارسوا البربر في حروبهم ضدهم، فأدركوا منها أن لا طاقة لهم بحصد شوكة القبائل البربرية، لذلك تركوها وشأنها، وانصرفوا عن محاربتها، مما أعطى الفرصة بعد فترة لدعاة الاسماعيلية للنشاط وسط كتامة، القبيلة القوية، واثارتها لاسقاط دولة الاغالبة، واقامة الخلافة الفاطمية.

لقد انصرف الاغالبة الى اصلاح شؤون دولتهم في الداخل، بدلا من اضاعة جهودهم في وسط المغرب بدون جدوى، وتوجهوا باهتماماتهم، كما فعلت قرطاج من قبل، نحو البحر الابيض المتوسط، وركزوا خططهم على فتح جزيرة صقلية وكان لهم ذلك، وكانت الخلافة العباسية في بغداد راضية عن سياسة الاغالبة، قانعة بدورها بأن تظل سدا بين ولاياتها في المشرق وبين الاندلس والدويلات المغربية الخارجة عن سلطانها، لهذا شجع العباسيون الاغالبة، وسمحوا لهم بالحكم على قاعدة قريبة من الاستقلال، وفي هذا الوسط السياسي المتداخل كان وجود الدولة الرستمية لازما للحفاظ على التوازن بين دول المغرب وقبائله، وعلى هذا الاساس نفهم رغبة عبد الوهاب بن رستم في موادعة حكام القيروان ومشاركة الاغالبة له في نفس الرغبة ومشاطرتهم له.

وكان عبد الوهاب بن رستم كأبيه عالما متضلعا في شؤون الدين، وبذلك احتفظ بمركزه في امامة الاباضية — ماعدا النكار — وقد صنف كتابا اسمه « مسائل نفوسة الجبل » وكان هذا الكتاب أساسا للمدرسة الاباضية الرستمية، وكان الى جانب ذلك يشجع الحركة العلمية في دولته، ويجلب الكتب من الشرق، وصار لديه مكتبة زاخرة بنفائس الكتب المتعددة الشاملة لمختلف الفنون والعلوم.

وبعد ماقضى عبد الوهاب أيام حكمه — وكانت زاخرة بجلائل الاعمال — توفي سنة ثمان ومائتين (٨٢٣م) فبويع ابنه ميمون أبو سعيد الافلح بالامامة بعده، وكان كذلك مرشحا للامامة في حياة أبيه، فلم يكن يقل عنه دهاء ومكرا وسعة حيلة، وعلى ذلك استطاع — باتباع تعاليم أبيه وسياسته المتقلبة — أن يقبض على زمام الملك طيلة خمسين سنة.

وفي البداية سالم الافلح جيرانه الاغالبة، لكن أبا العباس محمد بن الاغلب بن ابراهيم تصور أن بامكانه التغلب على دوله تيهرت، ووفقا لذلك أقدم على بناء مدينة

بجوارها وسماها « بالعباسية ». نسبة اليه ، واراد منها ان يأخذ بمخنق تيهرت ، فتوجه اليها الافلح واخربها سنة سبع وعشرين ومائتين (٨٤٢م) .

لقد سلف وأشرنا الى أن الاغالبة بعدما مارسوا البربر في الحروب الرستمية والادريسية أدركوا أن لاجدوى من محاربة هؤلاء ، وانه من الانفع لهم مسالمتهم والانصراف نحو اصلاح شؤونهم الداخلية ، فعملوا على ذلك ، ووطدوا العزم على اقرار دولتهم التي صارت تستقل عن بغداد شيئا فشيئا ، وتخلل ذلك بعض الفتن داخل البيت المالك ، لكن هذه القلاقل لم يطل بها الامد ، وسرعان ما رجعت الامور الى نصابها، واستعاد الاغالبة نشاطهم ، وثبتوا دعائم دولتهم من جديد ، وهنا امتدت انظارهم عبر البحار ، وصارت أساطيلهم تداهم بعض جزر البحر المتوسط مع شواطىء ايطاليا ، وقلبها حتى روما أحيانا ، ونشطت أساطيل الاغالبة القوية ضد صنقلية فسردينية وكورسيكا ولا شك أن هذا النشاط بعث السرور لدى العباسيين ونال رضاهم سيما والعلاقات العباسية البيزنطية كانت في غاية السوء ، والحروب بين الطرفين شديدة .

وفي هذا الوقت تمكنت جماعة اندلسية الاصل من احتلال جزيرة كريت ، واعترفت بسلطان الخليفة العباسي ، لكراهتها للحكم في قرطبة الذي أجبرها على الهجرة منها اثر حادثة الربض المشهورة .

وكان للنشاط الاغلبي في البحر المتوسط ردات فعل حذره لدى الامويين في الاندلس ، فهم باتوا يخشون على شواطئهم ، وخافوا أن يستولي الاغالبة على جزر البليارد التي دانت بالطاعة لهم ، لهذا نجد الامير الحكم الربضي واصل الادارسة فبعث بوفد الى المولى ادريس الثاني هنأه بمبايعته بالخلافة والامامة، وفاتحه بالتحالف ضد الاغالبة والعباسيين ، لكن العلاقة بين الادارسة والامويين لم يتح لها التطور والتعمق ، فالمولى ادريس الثاني قام بانشاء مدينة فاس في بقعة كانت موطنا لجماعات من أهل ربض قرطبة الذين ثاروا على الأمير الحكم وطردوا من الأندلس . ثم ان مدينة فاس — أو بالحري شطر من شطريها — صار دار هجرة لجماعات قدمت من القيروان (هي التي أسست جامع القرويين الشهير) ، وقد عادى هؤلاء الحكم الاموي في قرطبة .

وبعد وفاة الحكم الربضي (٢٠٦هـ/٨٢١م) ثم المولى ادريس الثاني (٢١٣هـ/ ٨٢٨م) تحسنت العلاقات بين الاندلس ودول الشمال الافريقي : الادارسة ، الرستميون، برغواطه، سجلماسة ، النكور ، وصار هناك تفاهم سياسي ضد الاغالبة ، وكان الوضع الداخلي في الاندلس يعاني من الاضطرابات ، ولم يكن الامويون يملكون

قوة بحرية تعادل قوة الاغالبة ، وباتت شواطىء الاندلس معرضه لخطر الاغالبة ، وخطر اوربي جديد جاء مع أساطيل الفيكونغ ، لهذا جهدت قرطبة في الضغط على الاغالبة من داخل المغرب .

ويروى انه عندما اخرب الرستميون مدينة العباسية سارعوا الى إخبار قرطبة وزفوا اليها البشرى ، فبعثت بمعونة مالية قدرها /مائة الف دينار/ للامير الرستمي مكافأة له على الايقاع بالاغالبة .

وسلف بنا القول بأن أفلح بن عبد الوهاب كان لايقل في دهائه عن أبيه ، ومفيد ان نضيف الى هذا أنه كان لايقل عنه علما ، وانه اشتهر بالادب وتذوقه اكثرمنه. وتحدث الدرجيني في كتابه طبقات المشايخ عن هذا بشكل مفصل ، وأثبت له الباروني قصيدة طويلة في فضل العلم ومزاياه والحض على نيل العلم واكتساب المعرفة ، وبعلمه صار أفلح رأسا للخوارج الاباضية والصفرية بالمغرب ، وبالعلم أيضا صار راسا للواصلية المعتزلة .

ووادع افلح جيرانه ماوادعوه وتقرب من حكام الاندلس ، واعتمد في سلطانه وادارته على الفرس الذين كثرت أعدادهم في تيهرت ، وأسند لهؤلاء الفرس قيادة قواته مع أسمى المناصب في الدولة ، كما أن المرافق الاقتصادية والتجارية والاموال صارت حكرا على الفرس ، وكون الفرس في هذا الوسط الغريب نوعا من الاستقلال الخاص ، حتى أن أحد التجار منهم واسمه ابن وردة بنى سوقا سماه باسمه ، وكان له حرسه الخاص ، وتمتع في نفس الوقت بمنصب رئيس الشرطة لذلك سخر فرقة من الشرطة لحماية سوقه وحراسته .

واعتماده على الفرس أفاده كثيرا ، ومكنه من النجاح السياسي والاستقرار الداخلي ، فنعم بالهناء والرخاء في قصده ، وشمل هذا الهناء شعب تيهرت ، واتباع الدولة فركنوا الى الراحة والدعة ، وانتشر في تيهرت البذخ ، وعم الترف ، فقاد ذلك الى حياة اللهو والمجون ، وانغمس الناس في هذه الحياة ، مما كان له سيء الآثار . فقد بدأت بوادر الانحلال تلوح في الافق ، ولحق هذا ظهور الخصومات خاصة بين الفرس ورجال قبائل زناته ، وهنا عادت تلك السياسة التي خطها أبوه عليه وعلى الدولة بالوبال ، ذلك أنه لم يتمكن من الافادة منها كما فعل أبوه ، لانه كان يعوزه تلك الشخصية القوية التي تركب الصعاب وتواجه معقدات الامور بعزم وقوة وثبات وصرامة ، فالدهاء لوحده مدعوما بالمكر غالبا مايأتي على صاحبه بأسوأ العواقب ، ومع هذا واجه أفلح بدايات المشاكل واستطاع ان يؤجل انفجارها لكنه ما أن قضى

نحبه حتى ثار بركان الفتن ، وصار ملوك تيهرت في وسط تيار الخصومات تتقاذفهم الامواج وتعبث بهم أيدي المتخاصمين والمتآمرين ، وانبعثت الخصومات القبلية من جديد وبشكل حاد ، وقويت القبائل بعضها على بعض ، ففرض المنتصر ملكا جديدا بعدما عزل واحدا قديما ، وذلك بصرف النظر عما تمتع به هؤلاءالملوكمنمواهب، ان وجدت المواهب ، لهذا عجز ملوك تيهرت بعد أفلح عن السيطرة على المواقف ولم يستطيعوا الصمود في وجه الحوادث والتصدي لها .

توفي ابو سعيد ميمون الافلح سنة ٢٥٨هـ/٨٧٢م ، فقام بالامر من بعده ابنه ابو بكر ، وكان هذا الامام ميالا الى الراحة والدعة مولعا بالادب ، لهذا ترك لاخيه أبي اليقظان وصهره محمد بن عرفة أمر تسيير دفة الدولة ، فكانت النتيجة عدم رضا رؤساء الدولة من المشايخ ، فعملوا على اغتياله ، بعدما فجروا ضده فتنة أخرجته من تيهرت ، فاستولى عليها محمد بن مسالة الهواري بعد حروب شديدة ، وكان أصل هذه الفتن أن حاشية أبي بكر وبطانته نفسوا على صهره ابن عرفة مكانته من الدولة ، فأوعزوا الى أبي بكر أن يتخلص منه بحجة الخيانة ، فلما كان في أحد الايام في صلاة المغرب طعنه خادم لابي بكر ، فاستفظع الناس هذه الفعلة ، وثاروا بأبي بكر ، وقامت الحرب بين أنصار الحكومة وخصومها ، وكان بجانب الحكومة قبيلة نفوسه الجبل والفرس ، فتغلب عليهم خصوم الحكومة ، وعليه تفرق رجال الدولة في أقاصي البلاد، واستولى ابن مسالة على تيهرت ، فأجلى لواته عن المدينة . فاجتمعت هذه القبيلة بقواها حول أبي اليقظان ، فذهب بهم مع أنصاره نحو تيهرت ، وانضمت اليه نفوسه طرابلس ، فتقوى بها ، وحاصر المدينة التي فتحت له أبوابها بعد سبع سنين من الحصار ، وبذلك فقد أبو بكر امامته بعدما مكث بها مدة عامين .

وتولى الامامة أبو اليقظان ، وكان ابو اليقظان قد ذهب في أيام أبيه الى المشرق بقصد الحج ونيل المعرفة ، فقبضعليه العباسيون، واودعه الخليفة الواثق في السجن، وهناك تعرف الى المتوكل ، فلما آلت الخلافة الى المتوكل أطلق سراحه وأحسن اليه ، فعاد الى تيهرت ، واستولى عليها كما رأينا ، وأمسك مجددا بزمام السلطة ، وظل في مركز الامامة مدة أربعين سنة ، كان خلالها مثلا أعلى للعلماء الزهاد ، فافتتنت به نفوسة الجبل ، وصار رجالها يعتقدون فيه أعتقادات ساعدته على أن يحتفظ بمنصبه ومكنته من صيانة الدولة ، وهكذا مكث مقدسا مبجلا حتى توفي سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م بعد ماعمر مائة سنة .

وبويع ابنه أبو حاتم يوسف بالامامة ، وكان أبو حاتم يوسف كثير المروءة واسع الاحسان ، ومع ذلك اضطربت عليه الامور ، فأخرج من المدينة ، ثم عاد اليها ، وائتمر

به بعض قرابته فقتلوه سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧م ، وكان بكر بن حماد ، وهو من أكبر علماء عصره ، ممن اوضعوا في الفتنة أول الامر ، لكنه عاد واعتذر اليه بقصيدة وذلك بعدما عاد الى تيهرت ، كما نازعه عمه يعقوب في الحكم ، فارتحل الى قبيلة زواغة ، رافضا بيعة ابن أخيه ، وبعد ما أخرج أبو حاتم من تيهرت استقدم أهل المدينة العم يعقوب وبايعوه ، فوقعت الحرب بينه وبين ابن أخيه ، وتدخل شيوخ الاباضية بين الامام وعمه فتوقف القتال ، وتألف الامام الناس فتمكن من العودة الى تيهرت التي غادرها يعقوب الى زواغة مرة جديدة بعدما اقام اميرا أربع سنوات ، وكان يوسف بعيد الهمة ، نزيه النفس ، عاش حتى استولى الفاطميون على تيهرت ، فارتحل الى برقة وهناك عرض عليه أهلها البيعة فرفض قائلا « لايستتر الجمل بالغنم » ، ثم توجه الى مصر ليستقر نهائيا بعدما أقام بجبال نفوسه وافريقية ضاربا في البلاد متنقلا ، ولم تطل الحياة بأبي حاتم حيث قتله بعض قرابته سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧ ، فخلفه بالامامة أخوه أبو اليقظان بن ابي اليقظان الذي لاحقته الجيوش الفاطمية حتى تمكنت من قتله سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م وبذلك انطوت آخر صفحات تاريخ الامامة الرستمية في تيهرت ، انما كدولة فقط ، حيث انتشرت فلول الرستميين في انحاء البلاد ، واحتفظ بعضهم بمكانة دينية وقدسية خاصة .

لقد انطوت صفحة دولة الائمة الرستميين في تيهرت انما ليس معنى هذا ان السلالة الرستمية قد اندثرت وانقضى امرها من الشمال الافريقي ، لكننا نجد أفرادا منها يتجهون ، بسبب الملاحقة الفاطمية ، نحو الشرق ، حيث تمركزوا وأتباعهم في واحة ورجلة ، وظل نشاطهم مستمرا هناك حتى داهمتهم جيوش المرابطين ، فهجروها واستقروا في « مزاب » حيث شمروا عن سواعد الجد ، وحفروا الابار وبنوا الدور ، فحولوا تلك الصحراء الى واحات غنية ، ولم يمض طويل وقت حتى صارت واحات الاباضية أشبه بالقرى العظيمة وبذلك نالت اسم « سبع مدن » .

ونجد ابن خلدون يتحدث عنهم في أكثر من مكان من تاريخه ، ويستخلص من كلامه انهم في ايامه كانوا قائمين في بعض الجهات يعيشون في شبه استقلال ، وفي القرن التاسع هـ/الخامس عشر م نجد بعض الرحالة يسميهم « المرتجين المحمديين »ويسجل لهم أن « الامانة هي الطابع الخلقي في تجارتهم ، والايمان يجعل من لهجتهم ومن حياتهم الاجتماعية مغزى نبيلا » وما زالت دول : ليبيا ، تونس والجزائر فيها أعداد كبيرة من الاباضية ، لهم نشاط متميز ، وادوار خاصة .

لقد كانت دولة الائمة الرستميين أباضية المنشأ والعقيدة ، ومع هذا آمنت بحرية المعتقد ، فتألفت حولها القوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات

والجنسيات ، فكان فيها خوارج من اباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزله مثلوا جميعا قبائل من البربر كان على راسها زناته مع جماعات من الفرس والعرب عاش الجميع في وئام ، حتى راينا بعض الائمة الرستميين لاتقتصر امامتهم على الاباضية بل تزعموا الصفرية والواصلية من المعتزلة في ذات الوقت .

ولقد كان الدور الحضاري للدولة الرستمية عظيما ، لم يقتصر تأثيره على الشمال الافريقي بل امتد الى قلب القارة الافريقية .

ومن المفيد ان نشير في نهاية هذا البحث الى أنه في الوقت الذي كانت فيه المملكة الرستمية تلفظ أنفاسها تحت ضربات جيوش الخلافة الفاطمية الناشئة ، كانت جماعات النكار الاباضية تجمع قواها وتلتف حول زعيم لها اسمه أبو يزيد مخلد بن كيداد الملقب « بصاحب الحمار » فقد ثار أبو يزيد على الفاطميين أيام القائم ، الخليفة الفاطمي الثاني واستولى على معظم الاراضي الفاطمية ، وحصر الفاطميين في مدينة المهدية ، وحاول اعادة بناء الدولة الاباضية ، وبعد جهود تمكن المنصور اسماعيل الخليفة الفاطمي الثالث من القضاء على هذه الثورة ، حيث قبض على زعيمها فقتله وشتت أتباعه . وفي الحقيقة ان الحديث عن ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد موضوع مستقل ، يحتاج الى مكان مستقل غير هذا المكان ، ولربما يتاح لنا ذلك في المستقبل ان شاء الله تعالى ويسر(*) .

★ ★ ★

(*) أخبار الدولة الرستمية موزعة في التواريخ العامة للشمال الافريقي وخاصة تاريخ ابن خلدون انما نجد في الادب الاباضي كتابات تاريخية عالية القيمة تقدم لنا صورة مشرفة لتاريخ الدولة الاباضية في تيهرت ، ويتقدم المصادر الخاصة لهذه الدولة ما كتبه ابن الصغير القيرواني ، ويلي ذلك كتاب سير الائمة وأخبارهم لابي زكريا يحيى بن أبي بكر ، ثم كتاب طبقات المشاريخ للدرجيني ، ثم السير للشماخي ، وكلها مطبوعة ، ولدى الباروني وهو كاتب حديث ، مواد جيدة عن الرستميين اودعها في أكثر من كتاب تاريخي له .

الوطن العربي
بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة
في الفترة بين الحربين العالميتين

د . خيرية قاسمية

جامعة دمشق

عاش العرب في أطار الدولة العثمانية الاجنبية عنهم ، لانها ظلت في اذهانهم استمرارا للتاريخ الاسلامي العام . واستمرت الوحدة قائمة نوعا ما خلال الحكم العثماني ، نظرا لوجود منظمة سياسية مركزية واحدة تجمع الاقطار العربية في آسية واقعا ، وفي افريقية اسما(١) . مع ذلك وجد عند العرب احساس غامض مستمر بأنهم شعب يتميز عن سواه من شعوب الدولة العثمانية باللغة والتراث والتقاليد التاريخية المشتركة . واتسم هذا الاحساس منذ منتصف القرن التاسع عشر بطابع ثقافي اخذ يدعو الى احياء اللغة العربية والتاريخ العربي ويؤكد على الحضارة العربية(٢) .

ومع التدهور المستمر في قوة الدولة العثمانية في الجبهات الخارجية ، شارك المفكرون العرب في الحركة الاصلاحية الداعية الى تبني مبادىء جديدة ، تتيح للدولة استعادة القوة اللازمة لمواجهة التفوق الاوروبي ، ولكن دون تمزيق للوحدة العثمانية او فصل الاراضي العربية عن الدولة العثمانية(٣) ، بل بخلق التماسك في دولة متعددة الاجناس والثقافات ، وذلك لمواجهة سيطرة الغرب ، واستعادة العالم الاسلامي لعظمته المهددة بالعدوان الاوروبي(٤) .

ويعتبر الكواكبي ، نموذجا للتيارات الاسلامية المجددة ، وكان أكثر المفكرين تطرفا في انتقاد الحكم العثماني ، فأنطلق يؤكد دور العرب الخاص ويطالب باستعادة مكانتهم في الخلافة(٥) . وترافقت الفكرتان الاسلامية والعربية عند الكواكبي ، ولكن

(*) اعد البحث للمؤتمر الثاني للعلاقات العربية التركية تصفية الترسبات الاستعمارية في تاريخ العلاقات العربية التركية) طرابلس ، الجماهيرية العربية الليبية ، ١٣-١٨ كانون أول ١٩٨٢ .

الواضح هو تأكيده على ضرورة القيادة العربية للفكرة الاسلامية دون قطع للوحدة العثمانية(٦) . كما ان نجيب عزوري الذي دعا الى تحرير العرب من الحكم العثماني قبل ارتباطا بالوحدة العثمانية بشكل ما ، فقد اقترح تقسيم الاراضي العربية الى قسمين : الجزيرة العربية ، التي هي مقر الخلافة ، وتصبح دولة اسلامية ، والهلال الخصيب ويصبح دولة علمانية حديثه(٧) .

واخذ النفور القومي يستحكم بين العرب والحكام الجدد الاتحاديين بعد ١٩٠٨ ، حين تبنى هؤلاء مبدأ العقيدة العثمانية لجمع عناصر السكان في الدولة ، وبالتالي لصهرهم في بوتقة الطورانية ، وكانت هذه المحاولة فاشلة نظرا لان التطورات المحلية في البلاد كانت تسير في اتجاه معاكس لا يأتلف مع هذه السياسة الجديدة ، كما أن اثارة المشاعر القومية كانت لعبة خطرة في امبراطورية متعددة العناصر والقوميات(٨) . واثارت محاولات الدمج مخاوف العرب من فقدان هويتهم الثقافية وبدأت ردود الفعل العربية ضد حركة التتريك تظهر بالتدريج ، كما بدأت حركة التململ والتذمر من الحكم العثماني تتخذ طابعا سياسيا ، وظهرت على شكل جمعيات واحزاب عربية وضعت مناهج محددة واضحة(٩) .

في هذه المرحلة من الحركة القومية ، ورغم تعدد الشكاوى ، لم تراود العاملين فيها فكرة الانفصال ، ولم تظهر الا في نداءات متفرقة ، بل كان همهم طلب الاصلاح الذي يضمن للعرب كيانهم القومي في الدولة ويعيد للعرب دورهم الذي فقدوه وهم اهل له ، وكان ذلك حرصا على الوحدة الاسلامية العثمانية لا اضعافا لها وخوفا من الاطماع الغربية التي بدأت تنفذ الى اجزاء كثيرة من الوطن العربي . ولم يكن لدى عرب الدولة العثمانية في ذلك الوقت مؤهلات كافية للاستقلال ولا وسائل كافية لحماية الوطن من غارات دول الغرب(١٠) .

وتجسد برنامج العمل القومي في مؤتمر باريس ١٩١٣ بطلب اجراء اصلاحات في الدولة العثمانية لمصلحة الجميع ، واعادة الاعتبار الى العنصر العربي . وكان العرب على استعداد للتعاون مع الزعماء الاتراك لو قبل هؤلاء بعض التنازلات ، ولربما اعطى اساسا لقيام دولة ثنائية القومية(١١) .

والملاحظ ان الفكرة القومية التي تبنتها الجمعيات والاحزاب العربية قبل الحرب الاولى لم تأخذ شكلا محددا ، فلم توضع الاشارات المتكررة الى الامة العربية بتعابير قومية واضحة او نظرية فكرية منظمة . ولم يكن الخط الفاصل بين الفكرة العربية والفكرة الاسلامية واضحا . واستمد المفكرون العرب ، مسلمون ومسيحيون،

في هذه الفترة الالهام من اللغة العربية والتراث العربي لتطوير الوعي القومي والدعوة الى هوية عربية متميزة عن الهوية العثمانية ، ونظروا الى الاسلام باعتباره ثمرة من ثمار التراث العربي ، كقوة روحية وكمجموعة من القيم الاخلاقية الضرورية للحياة لا يمكنهم الانفصال عنه(١٢) .

وكان هذا العنصر الثقافي الهام هو الذي دفع المفكرين العرب لاعتبار الاسلام كجزء مكون للقومية العربية . ويمثل الشيخ رشيد رضا التيار الفكري الذي كان مخلصا لكلا الولائين الاسلامي والعربي مؤمنا ان وحدة احدهما تدعم الاخرى . وكان الهدف النهائي لفكر رشيد رضا السياسي هو اعادة بناء دولة اسلامية حقيقية ورفض كل المحاولات لخلق دول في العالم الاسلامي لا تقوم على وحدة الدين ، رغم ذلك فان عنصر الشعور القومي في كتاباته كان قويا . ونظرا للمكانة الخاصة التي يحتلها العرب في « الامة » يرى ان القومية العربية يمكن ان تتفق مع الوحدةالسياسية بل ان احياء «الامة » يحتاج الى احياء العرب ، ولا يمكن للفكر الاسلامي ان يزدهر ما لم يزدهر اللسان العربي ، ولا يمكن الوصول الى وحدة « الامة » الا بوحدة اللغة . فاللغة العربية هي الخير المشترك لكافة المسلمين .

اقتصرت الدعوة القومية خلال الحكم العثماني على العرب المقيمين في منطقة الهلال الخصيب والجزيرة العربية (غربيها على الاقل) اي المناطق التي كانت لا تزال تحت الاشراف العثماني المباشر ، واعتبر بعض المفكرين ان مفهوم الوحدة يشمل سكان آسيا « الناطقين بالضاد » وبنوع خاص سكان سورية والعراق الذين كانوا أكثر استعدادا لتحقيق كيانهم السياسي واستقلالهم القومي . وظلت البلدان العربية في شمالي افريقية خارج نطاق اهتمامهم كقوميين عرب رغم كل العوامل الموحدة القائمة على عوامل الانتماء المشتركة للامة العربية من اطار تاريخي واحد وتراث مشترك ولغة مشتركة وشخصية عربية مشتركة ، ولم يكن ذلك الا بسبب احداث خاصة مرت في تلك الاجزاء من الوطن العربي في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وفصلتها عن الحكم العثماني واوقعتها في قبضة التدخل الاوروبي وابعدتها عن الاندماج في الحركة العربية(١٤) .

ويمكن اعتبار موقف اوروبا من محاولة محمد علي توحيد جزأين من الوطن العربي، ابان النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بداية الشقاق العقائدي بين الاجزاء الاسيوية والافريقية وله نتائج بعيدة المدى لانه وقع في زمن كان العرب يجتازون فيه تجربة تجدد شامل(١٥) ، وفرضت اوروبا على مصر منذ هذا الحادث انقطاعا نسبيا

عن الاجزاء العربية الاخرى ، واخذ بعض المفكرين في مصر يبحث عن مشكلات بلده ، وزادت حدة التيار بعد الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢ وانفراد مصر بمعركة تحرير وطني متميزة ضد الاحتلال البريطاني اتجهت الى ان تصبح مصرية من الناحية السياسية والفكرية تنظر الى كفاحها وتنظيمها وعملها انه كفاح وتنظيم وعمل مصري(١٦) .

وكذلك الامر بالنسبة الى بقية الاجزاء العربية في شمالي افريقية التي وقعت في قبضة التدخل الاوربي ، الفرنسي خاصة ، بمزيج من القوة والدبلوماسية(١٧) (الجزائر ١٨٣٠ ، تونس ١٨٨١ ، ليبيا ١٩١١ ، مراكش ١٩١٢ ــ ١٩١٤) ، ووضع الاحتلال هذه البلدان أمام قضية خاصة بها ، بعد ان كانت قد بدات تسهم في التيار الرئيسي للفكر العربي كحركتي الاصلاح والتفكير العصري اللتين عرفتهما تونس أواسط القرن التاسع عشر وكان لهما تأثير في المشرق العربي (١٨) . وفصلت هذه الاحداث الخاصة الاجزاء العربية في افريقية عن الحكم العثماني وابرزت فيها شعورا وطنيا خاصا اشبه بدعوة « الجهاد » السياسي لصد التدخل الاوربي ، وامتزج هذا الجهاد طبيعيا بالشعور الديني الاسلامي(١٩) ، واصبحت الجماهير الثائرة المنظمة تحت قيادة زعماء دينيين شديدة التعلق بالاسلام في اصفى مظاهره وانقاها ، اندفاعا منها في رد فعل الغاصب الاوروبي « المسيحي »(٢٠) .

وقد ظلت مصر وسائر بلدان شمال افريقية تعلق آمالها حتى الحرب العالمية الاولى على الدولة العثمانية للتخلص من الاجنبي ، ولم تنظر الى الحركة الوطنية في الاجزاء الاسيوية ضد العثمانيين بعين الرضى ، ووقفت الى جانب الوحدة العثمانية ضد التدخل الاجنبي(٢١) . هذه الظروف الخاصة لا الشقاقات العرقية ولا الخلافات العقائدية ولا النزاعات التاريخية ، هي التي عملت على انماء حركات وعقائد متضاربة في شطري العالم العربي الاسيوي والافريقي . وكان مقدرا لهذه التيارات في المشرق والمغرب ان تلتقي لتصبح قوة موحدة ، لولا الظروف التي اكتنفت سنوات الحرب العالمية الاولى .

المواجهة الوطنية مع قوى الغرب المستعمر :

انتهت الحرب العالمية الاولى والغرب يسيطر على اكثر البلدان العربية في آسيا وافريقية : فقد تقرر خلال السنتين اللاحقتين للحرب مصير المشرق العربي على اوجه بعيدة كل البعد عما كان العرب يرتقبونه ووجد الذين أيدوا الاتفاق مع بريطانيا اثناء الحرب ١٩١٦ ان التسوية مخالفة للتعهدات الغامضة التي قطعت لهم .

ووقعوا في مازق لا مفر منه ، وهو المأزق الذي يقع فيه كل ضعيف معتمد على دولة عظمى لتحقيق مآربه اذ يكون بحاجة الى قوة تلك الدولة وهو لا يستطيع ان يحملها على تفضيل مصالحه على مصالحها(٢٢) . وجرى التقسيم الاعتباطي للمشرق العربي الى دويلات تقع تحت سيطرة الدولتين الكبيرتين ، فرنسة وبريطانية بما لهما من مصالح مختلفة وحتى متناقضة(٢٣) . واطلق على هذه السيطرة اسم « انتداب » وهو حسب ميثاق عصبة الامم « وصايات مقدسة للتحضر والتمدن » ولم يمنع رفض هذه الوصاية اسداءها جبرا .

اما مصر ، فقد خابت آمالها بعد ثلاث سنوات من المظاهرات والتوتر السياسي ومع ان بريطانية وافقت على ان تغدو مصر دولة مستقلة ذات سيادة في الظاهر الا انها ظلت تحتفظ بقواتها فيها وتشرف على شؤونها الخارجية . وخرجت الاجزاء الاخرى من شمال افريقية وهي لا تزال ترزح تحت حكم الدول الكبرى ، اسبانية وفرنسة وايطالية ، دون اهتمام كاف بآمال العرب وطموحاتهم بل كانت الدول الاستعمارية متأثرة بمصالحها الاستراتيجية والتجارية والثقافية(٢٤) .

واتبعت تلك الدول اهداف واساليب واحدة من افقار وحرمان وترفع عنصري واستغلال اقتصادي ، ولم يمنع اختلاف تلك الدول وتناقضها عن تعاونها وتضامنها ضد العرب .

لقد كان في الامكان لولا التدخل الاجنبي ، ان يعيد العرب بناء حياتهم كلها على اسس قومية شاملة ، وان تتخذ خريطة الوطن العربي شكلا مختلفا . ولو اتيحت للعرب ، على الاقل عرب المشرق ، الظروف المناسبة ، لتمكنوا من ملء الفراغ الذي احدثه زوال الدولة العثمانية بدولة عربية موحدة لها مقومات الدولة الكبيرة ومواردها وامكانياتها ، حتى ضمن الحدود التي طلبها الشريف حسين ، فقد كان انشاء الدولة العربية هدفا اساسيا من اهداف الثورة العربية لا يقل اهمية عن التحرر من الحكم الاجنبي ، ولكن الذي حدث هو « بلقنة » الوطن العربي(٢٥) .

وكان لاصرار الغرب على السيطرة السياسية وعلى انكاره حق العرب بالوحدة والاستقلال وسعيه لخلق دول عربية صغيرة ضعيفة يسهل السيطرة عليها ، ان تميزت العلاقات بين الغرب والعرب بموقف من الشك المتبادل وعدم الثقة وضعت بذورهما من قبل . ومهما كانت الدرجة التي نجحت فيها القوى الغربية في الحفاظ على ما تملكه ، احيانا بمنح تنازلات متأخرة ، وفي اغلب الاوقات باستثمار اتجاهات انفصالية بين العرب من اجل ان تكسب اعجاب او دعم فئة ضد اخرى ،

فان هذه الحقيقة كان مقدرا لها ان تؤثر على موقف الشعب العربي نحو الغـرب لمدة طويلة (٢٩) . وكان ما يجعل العرب ، وخاصة في المشرق منهم ، يحســون بهول صدمة اخضاعهم للاجنبي ، هو انهم كانوا جزءا من العنصر المسيطر في الدولة العثمانية وانهم لعبوا دورا كبيرا في حكومتها طيلة نصف القرن السابق لزوالها(٣٠) . وقد حلت الخيبة والمرارة في اعقـاب الحرب العالمية الاولى محل التفاؤل المتوهج الـذي كان يفعم الحركة القومية العربية في بداية انطلاقها ، وراح المراقبون الغربيون يعزون هذه الظاهرة الى ما يفترضونه في الروح العربية من عـداء غريزي للغرب ، ولكن هـذا التأويل يعجز عن تفسير هذا الامر وهو : لماذا لم يحدث هذا العداء للغرب قبـل ان يفرض الغرب على العرب استعماره(٣١) .

وتعبيرا عن الرفض التام لحكم القوى الاوروبية شـهدت السنوات التاليـة لاعلان الهدنة ثورات شعبية وحركات وطنية توالت واحدة بعد اخرى للتخلص من الاستعمار الاجنبي ومقاومة ارهاب قوات الاحتلال الغربيـة وانضوت تحت قيادة رجالات الثورة ، ولعل افضل تعبير عن ذلك ما قاله المارشال ليوتي في وصفه الوطن العربي بأنه « صندوق اصوات متجاوبة » (٣٢) . وكانت ثورة العراق ١٩٢٠ رد الفعل الاول الجاد لتسـوية ما بعد الحرب ، وتبعتها ثورات سورية ١٩٢٠ و ١٩٢٥ واستمر التوتر في مصر بعد ثورة ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٣ ، وظل تاريخ فلسطين حافلا في العشرينات والثلاثينات باخبار الانتفاضات ، وقامت في الريف المغربي ١٩٢١ أعنف ثورة على الغرب اجبرت الاسبان على اخلائه وكان هذا اكبر نصر حازه جيش عربي على جيش اوربي ، واستمرت الثورة في ليبيا عشر سنوات . فعـل العرب ذلك وهم محرومون من جميع اسـباب القوة ، تسـيطر عليهم عوامل ومؤثرات داخليـة وخارجية لا طاقة لهم بها (٣٣) ، ولكن القوة العسكرية الغربية كانت اضخم مـن طاقتهم فخضع العرب للقوة ومكن الغرب لنفسه في بلادهم . وكانت هناك ارضية مشتركة بين القوى الاستعمارية اذ كان لا يمكن لاي منها وحدها ان تحافظ علـى موقعها الاستراتيجي بدون الوصول الى اتفاق عمل مع القوى الاخرى (٣٤) .

وهكذا لم يقدر للثورات الوطنية ان تحقق نجاحا عسكريا ولم تصمد طويلا امام الضربات التي وجهتها اليها القوى الاستعمارية ، وطال أمد الاحتلال العسكري حتى خيل للناس في فترة من الزمن انه احتلال ابدي لا طاقة للشعوب العزلاء بدفعه . ويعزو البعض النتائج الضئيلة التي أسفر عنها هذا الكفاح الى الاخطاء التي ارتكبت في التخطيط والاعداد من قبل الزعامات السياسية(٣٥) ، والى اسلوب البطش والتفتيت واضطهاد الزعامات الوطنية .

ويمكن ان يعزى فشل الثورات الوطنية الى التغير التدريجي في موقف الغرب المسيطر ، وموقف القيادات السياسية العربية : فقد واجهت الغرب المعارضة العربية للسيطرة الاجنبية ،ووجد أن سياسةالقوة والاحتفاظ بالجيوش المحتلةوالردع المسلح غالية التكاليف ضعيفة النتائج ، فلجأ الى التهدئة والمفاوضة والتسكين في محاولة للتوفيق بين الرأي القائل بكسب ثقة العرب وبين الانتداب والحماية ، فحصل على مكاسب اكبر مما حصل عليه عن طريق العنف(٣٦) .

وكان لادراك القيادات المحلية الوطنية التي شاركت في صفوف الحركة الوطنية خلال الحرب وبعدها ، حدود إمكاناتها العملية في مواجهة القوى الاستعمارية وصعوبة التخلص من قبضة السلطة الاوربية ، وعدم قدرة تلك القيادات على فهم طبيعة الاستعمار الغربي ومتطلباته الاستراتيجية والعسكرية ، أن جعلها اكثر تقبلا لصيغة المشاركة(٣٧) . ولم يكن لهذه القيادات ان تختار بين الاستعمار وبين الاستقلال الحقيقي ، بل بين درجات وانواع مختلفة من السيطرة ، فاصبح مفهوم الاستقلال بعد عام ١٩٢٥ في العراق ومصر وسورية محدودا ، ويعني الحصول على الحكم الذاتي الداخلي والانتماء الى عصبة الامم . لكنه لم يكن لينفي بقاء رابطة دائمة مع الدول المحتلة على شكل معاهدة تكون اقل اذلالا من الوصاية المباشرة ، تعطي بعض الحرية السياسية ولا تمس بمصالح الغرب(٣٨)، دون أن يمنع ذلك بروز نقاط خلاف بين حين وآخر يتجلى بقيام التظاهرات والانتفاضات ورفض التعاون واثارة الرأي العام .

واتخذ النضال في الجزائر وتونس طابعا سلميا عبرت عنه تلك الفئات المشبعةبالفكر الفرنسي ، واستهدفت اولا اسماع صوت البلدين في مؤتمر الصلح وكسب الاحزاب اليسارية في فرنسا ، ثم اقتصرت مطالبها على المساواة في الحقوق مع المقيمين الفرنسيين وفتح ابواب الوظائف للمواطنين(٣٩) ، ولم يكن مبتغاها الاستقلال التام بل مركزا افضل تحت نظام الحماية . الا ان هذه الفئات اتجهت بعد ان فقدت الامل « بالعدالة » اتجاها قوميا وبدأت في تنظيم حركات ثورية ضد الفرنسيين(٤٠) .

لقد خيل للساسة « المعتدلين » في عالم مابين الحربين ان السبيل الوحيد الذي يتيح للدول العربية فرصة الانضمام الى مجموع الامم هو اتباع اسلوب التريث والمهادنة والنفس الطويل والنقاش المنطقي مع ساسة الغرب وتصوير اماني العرب في صورة لا تثير مخاوف الغرب ومناشدة الوجدان الليبرالي الغربي والدعوة الى تقبل المنافع المادية للغرب ومحاولة اقتباس النظم والمؤسسات السياسية الغربية . ولم تكن هذه السياسة مقبولة لدى جماهير الشعب التي لم تعرف لها دورا غير دور النضال في سبيل ازالة النفوذ الاجنبي وتحقيق الاستقلال ، وساء موقف انصار

« الاعتدال » ولم تمنح الثقة الا للذين ربطـوا اهدافهم بالمصالح القومية وهاجموا النفوذ الاجنبي بعنف(٤١) .

معوقات العمل القومي الوحدوي :

نكبت الامة العربية باستعمار دول عديدة انشب مخالبه في مختلف الاجزاء في أزمنة مختلفة وظروف متباينة واشكال متنوعة من الاستعمار المباشر الى الانتداب والوصاية ، وكان اخطر ما في هذا الاستعمار تجزئة البلاد الى دويلات وفصلها بحدود مصطنعة وحواجز اقتصاديةهيحدود « الحبس الانفرادي »و« الاقامةالجبرية(٤٢) .» وجاءت هذه التقسيمات السياسية لتهدد الوحدة التي كانت قائمة نوعا ما في الفترة العثمانية ، ولتضع فكرة الامة العربية موضع التساؤل وتهددها بفكرة الامة السورية والمصرية والتونسية وغيرها(٤٣) .

رفضت بعض الافكار الغربية تحميل اوربة مسؤولية تجزئة الوطن العربي الى مجموعة دول منفصلة ، وعبرت عن « خرافة » الوحدة العربية مع اعترا فها بوجود روابط ثقافية وعاطفية وتاريخية بين العرب . ودعواها انه لم يكن بامكان أي سلطة عربية حاكمة ان تجمع البـلاد العربية في دولة واحدة ، وأن تحوز قبـولا شاملا أو تنشىء ادارة موحدة ، نظرا لعدم توافر شعور الالتحام السياسي ، ولان الولاء الاقليمي والمحلي لا يزالان اقوى من الشعور العربي العام(٤٤) . ولكن لا يشك احد ان المشاعر القومية التي كانت قد اخذت بالانتشار في الفترة التي سبقت الحرب كان بامكانها أن تصبح قوة موحدة لو تركت للتطور في ظروف طبيعية ، الا ان الدول الاوربية هي التي حالت دون قيام هذه الوحدة لانها تنظر للحركة القومية كمؤامرة لحرمانها من مصالحها (٤٥) ، ولان التجزئة كان من شأنها ان تخلق دويلات يسهل التحكم بمصيرها ومصير ابنائها .

أدت التقسيمات السياسية الى اقامة انظمة ادارية وتشريعية وتربوية متباينة ، أو بمعنى آخر نشوء نظام « الكيانات » ، حيث جعل لكل كيان نظام ودولة واسلوب في الحكم يختلف من مكان لاخر ، ولكل منها سلسلة من المعالم المادية تجسدت في رموز ملموسة وشعارات خاصة وجيوش خاصة وادارات وعملات وغيرها ، وبالنتيجة تهيئـة البيئة الصالحة لتنمية الروح الاقليمية لكل منها بحيث اصبح اهالي كل دولة يعتبرون انفسهم « أمة » قائمة بذاتها ومتميزة عن غيرها وتولد في كل واحدة منها نوازع المحافظة على الكيان السياسي القائم أو ما يسمى روح « الاقليمية » التي ليست الا مجموعة من النوازع تعمل في اتجاه يخالف مقتضيات الوحدة العربية ، ويعرقل

انطلاقها . وزاد في ازدهار الولاءات الاقليمية ان الاقطار العربية كانت قد وقعت تحت حكم دول اجنبية شتى تختلف لغاتها وتتباين مصالحا وتتغاير انظمتها وقوانينها وثقافاتها ، وانعكس هذا التباين على الاجزاء العربية في مرحلة تكونها(٤٦).

وقد وجدت مصالح قوية استثمرت الحدود السياسية ، التي هي من خلق اجنبي استعماري ، وارتبطت بدوام الكيانات الاقليمية : يمثلها فريق من الساسة استمدوا حياتهم من حقيقة وجود الكيانات ، وتقاعسوا بعد تسلم المسؤولية عن هدف الوحدة ، ومنهم تجار حصلوا على دخلهم من وجود حواجز جمركية وغيرها من عوامل التجزئة وضمنوا دوام المصالح الاجنبية والهيمنة الاستعمارية على ثروات المنطقة(٤٧). وبتآمر قوى خارجية مع قوى داخلية على الحس القومي اصبحت العلاقات قائمة بين الكيانات العربية على اساس المنافسات بين الاسر الحاكمة وعلى النفوذ على الكيانات العربية المجاورة(٤٨) .

وكان من الوسائل السياسية التي اتبعتها الدول الاجنبية لتقوية النزعات الاقليمية هي اثارة وتشجيع الانقسامات بين الفئات العرقية والدينية المختلفة وحماية العناصر الموالية من اقليات دينية وطائفية وتدعيم المواقف الانعزالية الانفصالية وفكرة القوميات الضيقة ، وتقوية اللغات واللهجات المحلية على حساب اللغة الام والهدف من ذلك توطيد سيطرة تلك الدول وعرقلة الوعي القومي(٤٩) .

وكان اخطر ما في التجزئة السياسية هي تجزئة الحركة العربية ايضا فتوزعت قوة المقاومة الى جبهات عديدة القي على عاتق كل منها مهمات مباشرة تختلف الواحدة عن الاخرى ، وشغلت بمشاكلها الخاصة وقضاياها المحلية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، « فهانت قواها مادة ومعنى وهان عليها بالتالي تطبيق خطط الاستعمار »(٥٠). ونظرا لان كل جزء عربي اخذ يكافح الاستعمار منفردا وبأوقات مختلفة تبعا للفرص المتاحة ضمن مشاكل الاستعمار المفروض ، اصبح مركزا لوحدة وطنية خاصة معتمدة على الوطن الجغرافي الاقليمي ، دون ان تدرك الاوطان الصغيرة انها جزء من وطن اكبر هو الوطن العربي وأن الوطنيات المحدودة جداول من قومية كبرى(٥١) .

النضال من أجل الوحدة :

لقد تعثر الطموح التوحيدي بسبب المشاكل السياسية الناجمة عن الحدود التي فصلت كل قطر عربي عن جاره ، وما تولد عن ذلك من مصالح اقليمية ذاتية باعدت بين العرب ، وجعلت من المصير العربي الموحد تمنيات واحلاما . الا ان المحن ،

عوض ان تفشل المطامح العربية ، زادتها متانة ورسوخا ، ورأى شكيب ارسلان في تلك المحن خيرا عائدا على الوطن العربي(٥٢) : ذلك انه تحت وقع النكبات والنكسات يزداد الشعور بان المصلحة المشتركة تستلزم قيام تعاون وثيق ينتظمه عمل موحد(٥٣). وحين كان الوطن العربي تحت السيطرة الاجنبية لم يشك أي قومي عربي بصلاح قيام الوحدة ، وحدة تتجاوز الحدود الضيقة الى حدود اوسع دفاعا عن ذات الامة ووجودها ضد عدو مشترك ، لان التفرقة كانت العامل الاساسي في ضعف العرب وفي جعلهم فريسة سهلة للحكم الاجنبي الذي يحول بدوره دون قيام الوحدة .

وهكذا ، ورغم كل المعوقات ، وردا على واقع التجزئة والاحتلال ، كانت محاولة ابقاء فكرة الوحدة حية ، هي احدى سمات العمل القومي في الفترة بين الحربين ، شغلت الجماهير والزعماء وقادة الفكر(٥٤) . وتجلت هذه المحاولة في تبادل المساعدة والعطف بين الاجزاء العربية في صراعها مع الاجنبي ، واصبح الحدث السياسي الحاسم في قطر ما يثير الجماهير في الاقطار الاخرى اثارة عفوية وبدون تفكير في الحدود والكيانات القطرية ، فتهب للعمل ولو بمجرد التظاهر والاضراب وجمع التبرعات أو في انتفاضات متتالية ومتجاوبة مع بعضها ، لان هذه الجماهير تحس وتدرك انها جماهير واحدة رغم اختلاف الانظمة وارتفاع الحدود ، واصبحت هوية النضال الوطني هوية عربية ونال بهذه الهوية كل مناضل عربي الحق بأن ينضم الى المواقع الوطنية في أي جزء آخر(٥٥) .

صحيح ان كل قطر كان يناضل على حدة في سبيل التدرج نحو الاستقلال وله مع العدو الاوربي معاركه القاسية وذكرياته الحية وله تضحياته ، الا ان دعاة القومية والوحدة وجدوا في النضال في سبيل الوحدة امتدادا للجهاد في سبيل الاستقلال(٥٦)، وشعر زعماء الحركات الوطنية وهم يناضلون في سبيل الاستقلال المحلي ان الحاجة ماسة لاعتبار المنطقة العربية وحدة متكاملة ، فجعلوا همهم ، في كل ما يصدر من توجيهات ونداءات التشديد على وجود الامة العربية وعلى وحدتها ، وان النضال في سبيل الاستقلال (او على الاقل الحكم الذاتي) هو خطوة ضرورية اولى نحو تحقيق الوحدة . وكان من المفهوم ضمنا ان استقلال اي جزء عن المستعمر هو توحيده تلقائيا مع غيره ، وان كل دولة عربية ستستخدم ، حين تتحرر وتستقل ، حريتها واستقلالها في مساعدة الدول التي لاتزال في مرحلة النضال ، وفي توثيق علاقاتها بالدول التي تكون قد تحررت ونالت استقلالها(٥٧) .

وكان المظهر الثاني لمحاولة ابقاء فكرة الوحدة حية ، هو القيام بتأسيس عدد من الاحزاب القومية ذات امتدادات فوق الحواجز والحدود وجهت دعوتها الى ابناء

الجيل اللاحق من القوميين وكان لها عضوية مشتركة بين البلدان العربية كما ان لها عقيدة قومية وبرنامج عمل قومي ، بعد ان لم تعد وسائل التنظيم والعمل القديمة ترضيها ، كانصراف الزعماء المحليين ، رغم اهتمامهم المبدئي بالوحدة العربية ، الى القضايا المحلية والاتفاقات مع الدول المسيطرة(٥٨) . قامت هذه الاحزاب الجديدة الى جانب الاحزاب والتكتلات القطرية التي شهدتها الساحة العربية في الفترة بين الحربين ، والتي كانت اقليمية المبادىء والاهداف والنشاط ، رغم حديث بعضها عن الامة العربية والوحدة العربية(٥٩) .

في مطلع الثلاثينات قامت العناصر القومية من زعامات حزب الاستقلال « القديم » (الذي تشكل ١٩١٨ كواجهة علنية للعربية الفتاة) ، قامت بمحاولة جديدة لتجميع الصفوف بعد ان اثار قلقها انشغال الاجزاء العربية بقضاياها المحلية واستشراء الاتجاهات الاقليمية ، وانتهزت فرصة انعقاد المؤتمر الاسلامي في القدس (كانون اول ١٩٣١) لتتفق خلاله على « ميثاق عربي » يؤكد وحدة الامة العربية ويرفض التقسيم المصطنع لاقاليمها ، ويرى ضرورة العمل على تكريس الجهود ليحقق هدفي الاستقلال والوحدة (٦٠) . وشكلت لجنة تنفيذية لوضع خطة العمل في المستقبل فأقرت الدعوة لعقد « مؤتمر عربي عام » ، لمناقشة افضل السبل لتحقيق هذه الغاية التي تضمنها الميثاق العربي ، وتبنى الملك فيصل (ملك العراق) فكرة عقد المؤتمر بعد ان اتاحت له معاهدة ١٩٣٠ فرصة اكبر للاهتمام بالقضايا العربية ، وارسل بمبعوث له الى القدس ومصر للدعوة اليـه . ولكن جهوده اصطدمت بمعارضة شديدة من جانب بريطانية ، وانهارت اول محاولة جديه بعد الحرب العالمية الاولى لترتيب عقد مؤتمر عربي عام لبحث سبل تحقيق الوحدة العربية ، وكان موقف بريطانية السلبي من أهم اسباب هذا الفشل ، بقدر ما اسهم فيه التمزق العربي وغلبة الاطماع الشخصية للزعماء العرب انفسهم(٦١) .

وتعتبر « عصبة العمل القومي » مثالا آخر للاحزاب السياسية التي قدمت برنامجا قوميا عربيا . ولدت العصبة بمبادرة من بعض الشباب المثقف من سورية ولبنان الذين دعوا الى مؤتمر عقد في قرنايل (لبنان) ١٩٣٣/٨/٢٤ ، اصدروا بعده بيانا مفصلا ، اوضحوا في مقدمته ان هدفهم انقاذ العرب من التدهور ، والانحلال السائرين اليهما . وكان للعصبة هدفان : هما سيادة العرب واستقلالهم المطلقين والوحدة العربية الشاملة . وقد تبينت العصبة ان نوال السيادة والاحتفاظ بها موقوف على وحدة البلاد العربية ، كما ان ازدهارها الاقتصادي ونهضتها الاجتماعية تتوقفان عليها ويستحيلان بغيرها . لذلك اعتبرت « الوحدة العربية » القائمة على

وحدة التاريخ والتقاليد والعادات واللغة والغايات والوضع الجغرافي ، اعتبرتها جزءا غير منفصل عن هدفها في السيادة والاستقلال . ودعت الى مقاومة كل عصبية غير العصبية القومية والقضاء على العصبيات العائلية والمذهبية او المحلية . وادركت خطر الاستعمار وخبث خططه وبحثت في وسائل مقاومته ، ورأت « بحكم منطق الدفاع تنظيم جهود العرب في كل صقع وتوحيد حركة المقاومة القومية في الاقطار العربية والقضاء على النعرات الاقليمية بمعناها القاصر ووصل ما انقطع من الروابط بين الصفوف المجاهدة في كل قطر ». وهذا يقضي اشراك الشعب وطبقاته باسرها والتعاون مع الهيئات العربية المخلصة العاملة في مختلف الاقطار ، ولا تعني العصبة من خطتها في توحيد حركة المقاومة ترك الجهاد المحلي ، « فتعدد المستعمرين وتعدد طرائقهم الاستعمارية في مختلف الاقطار العربية جعل لكل قطر ظرف خاص يتطلب وضع برامج محلية تراعى فيها الظروف القطرية ضمن نطاق ضوابط محدودة تمنع خروج العمل السياسي عن الاهداف العليا » ، فالعمل القومي ، بنظر العصبة ، « يستهدف تشكيل جبهات جهاد موحدة الجهد متساعدة تابعة لقيادة واحدة تجعل القضايا القطرية او الاقليمية اجزاء للقضية العربية الكبرى » .

وقد سجلت العصبة في سياستها الاقتصادية تطورا كبيرا آنذاك اذ اعتبرت البلاد العربية وحدة اقتصادية ودعت الى توحيد الجهود الاقتصادية في مختلف الاقطار العربية وضم رؤس الاموال الصغيرة للقيام بمشاريع كبيرة ، وازالة الحواجز الجمركية بين البلاد العربية عن المنتوجات والصناعات العربية ، واعتبار مصلحة المجموع فوق المصالح الخاصة ، ونظرا لان ظروف العرب الاقتصادية غير واحدة ، وهي خاضعة للظروف السياسية ، فقد ارتأت العصبة « وضع برامج اقتصادية لكل قطر تستلهم من ظروفه وقابلياته شرط ان لا تخرج على المبادىء العامة » .

لم تكن فكرة الوحدة شاغل السياسيين وحدهم ، فقد شهدت فترة الثلاثينات اهتماما متزايدا لدى قادة الفكر لتحديد اسس ايديولوجية للفكرة القومية ، ودراسة ميزاتها وبيان مقوماتها وتحديد اتجاهاتها واهدافها ووضع رؤية واضحة للمستقبل. ومنذ نهاية الحرب وحتى مطلع الثلاثينات لا نجد الا مادة قليلة في كتابات بعض المفكرين البارزين حول الفكر القومي العربي تطالب بالاستقلال والوحدة العربية(٦٢) . الا انه منذ منتصف الثلاثينات جاء رد المفكرين على التجزئة والاحتلال ، الظاهرتين المترابطتين ، بتعميق مفهوم القومية العربية وبتحديد معالم النظرية القومية . وجعل قسطنطين زريق « وضع فاسفة قومية مؤثرة فاعلة تصور روحها ، وتحدد اتجاهها ، وتنصب لها الاهداف . وتعين لها السبل والوسائل » شرطا اساسيا لقيام

أية نهضة قومية ، ذلك أنه « ما من نهضة قومية تحررية قامت في العالم الا وسبقتها أو لازمتها نهضة فكرية مهدت لها الطريق ورسمت امامها الغاية واوضحت لها المعالم والحدود ، وانه اذا كان للنهضة القومية العربية ان تستكمل شروطها وتؤتي ثمارها فلا بد من بناء الاساس الفكري الذي تقوم عليه هذه النهضة القومية ، وتحديد معنى الامة والقومية واثبات خصائص الامة العربية ومميزاتها واظهار مقامها الفريد بين الامم والنصيب الذي كان لها في الماضي والذي يرجى لها في المستقبل في تقدم التمدن والحضارة البشرية » .

استقى المفكرون العرب في صياغة مسلمات القومية العربية من مصدرين : الاول الفكر الغربي ، ليس اعجابا بمفاتن ثقافة مجتمعات متفوقة أو مرآة تعكس مقولات الفكر القومي الغربي بل لفهم التجارب الوحدوية والفكر القومي في الغرب وتطويعها لخصوصيات الوضع العربي(٦٤) . اما المصدر الثاني ، وهو الاهم ، فهو تراث الماضي من لغة وتقاليد وتجارب تاريخية بوصفها القاسم المشترك بين ابناء الامة العربية . واختيار هذه المعايير لم يكن اتفاقا ، القصد منه ابراز العوامل المشتركة التي يمكن ان تفضي اكثر من غيرها الى التقريب والتأليف بين ابناء الامة من جهة ، والاستغناء عن العوامل المفرقة التي تغذى الشحناء من جهة اخرى(٦٥) . فاللغة العربية هي الدعامة الرئيسية للقومية العربية التي تتخطى الحدود القطرية وتشكل عامل اتصال رئيسي ووحدة في الشعور والتفكير ، والتاريخ هو تعبير الامة عن ذكرياتها ووعيها لذاتها يخلق نوعا من القرابة المعنوية بين ابناء الشعب العربي ، والتاريخ الحي الذي تتذكره الامة هو الذي يمثل امجاد الماضي ويخلق الامل بالمستقبل ، ولن تستعيد أمة وعيها القومي الا بالعودة الى تاريخها . فاللغة الواحدة والتاريخ المشترك هما ينبوع للذكريات التاريخية وللشعور بالاعتزاز وللتطلع نحو تنسيق الجهود ، وهما ركنا الوجود القومي لاية امة كما اوضح ذلك ساطع الحصري(٦٦) ، الذي وضع نظرية منهجية ومنسجمة في القومية العربية باسلوب اكثر وضوحا واتساقا من اسلوب اي كاتب آخر ، ونذر نصف قرن من حياته العريضة (١٨٧٧ ـ ١٩٦٨) في سبيل قضية واحدة هي الدفاع عن الفكرة القومية العربية ودراسة قضاياها في اطار ظواهر انسانية اكثر شمولا . ولا ينفي هذا اهمية مساهمة عدد كبير من المفكرين من امثال محمد كرد علي وشكيب ارسلان وقسطنطين زريق ، في تعميق المفهوم القومي عند العرب ، الا ان الحصري كان المفكر الاكثر شمولا والداعية الاكثر استمرارية والتزاما بمقومات النظرية التي وضعها ، ففي حين ان معظم من سبقه من مفكرين مشرقيين في بداية القرن العشرين اختلطت لديهم فكرة العروبة بالدعوة للجامعة الاسلامية ثم بالدعوة للامركزية الادارية والسياسية ، وفي نهاية الحرب الاولى بالدعوة لانشاء دولة عربية مقتصرة

على المشرق كان الحصري اكثرهم حسما ، اذ اتجه ليحدد بوضوح الاجابة على عدد من الاسئلة النظرية المطروحة : ما هي القومية ؟ ما هي مقومات الامة العربية ؟ ما علاقة القومية بالدولة ؟ اين تقف القومية العربية من الدعوات الدينية والامية والاقليمية(٦٧)؟

وتستند آراء الحصري في طبيعة القومية وعناصرها على فرضية اساسية هي مفهومه للعرب على ان يضم كل من يتكلم العربية ، وآمن بأن فكرة القومية العربية تعني الايمان بوحدة هذه الامة من المحيط الى الخليج ، فالعرب امة واحدة ويجب اقامة دولة عربية واحدة وسعادة كل امة ان تعيش في دولتها القومية(٦٨) ، واعتبر الحصري ان توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيىء سائر انواع التوحيد فكتب : « اضمنوا لي وحدة الثقافة وانا اضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة(٦٩) ، وظل يرفض الاعتراف بالحدود والكيانات التي اعتبرها وليدة الانقسام والمناورة والمساومة . واضطر الحصري من اجل اثبات نظريته الى أن يخوض معارك فكرية مع غير واحد من المفكرين العرب في مصر ولبنان الذين يعارضون الوحدة العربية كانتقاده « القومية السورية » والمدافعين عن قومية مصرية صرفة(٧٠) . وكان من النتائج المنطقية لنظرية الحصري في القومية العربية ، التي ارسيت على ارضية ثقافية وتاريخية ، أن تشمل الوحدة العربية المنشودة مصر وسائر بلاد شمال افريقيه(٧١) .

ويلاحظ ان مفكري القومية العربية في تأكيدهم على الروابط القومية التي توحد العرب بغض النظر عن معتقداتهم الدينية ، كانوا يرغبون في تجريد الغرب من سلاحه في اثارة التعصب الطائفي وحماية الاقليات الدينية ، ومواجهة الصهيونية على أساس قومي لا على أساس العداء الديني . الا انه كان لا يمكنهم فصل القومية عن الاسلام تماما ، فالاسلام هو الذي وحد العرب واعطاهم شريعتهم وثقافتهم وهو جزء من تراثهم الروحي التاريخي وموضع اعتزازهم ، ومن عالج هذه الفكرة أدرك أهمية الاسلام في الحركة القومية العربية . ويرى زريق أن القومية الحقيقية لايمكنها بحال من الاحوال ان تناقض الدين الصحيح « اذ ليست في جوهرها سوى حركة روحية ترمي الى بعث قوى الامة الداخلية وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية ،ولكي تقدم قسطها من تمدن العالم وحضارته . فلا بد للقومية اذن ــ وهي حركة روحية ــ من ان تلاقي الدين وان تستمد منه القوة والحياة والرفعة والسمو . كذلك هي القومية العربية في وجهها الصحيح لا تعارض دينا من الاديان ولا تنافيه ، بل تقبل على الاديان جميعا لترتشف من منابعها الفياضة كؤوس الصفاء والخلوص ، والقوة والخلود ... لذلك يترتب على القوميين العرب ان يعودوا الى مصادر دينهم ، فيستمدوا منها السمو النفسي والمتانة الروحية .. كذلك يجدر بهم ان يربطوا

ما يستمدون من هذه المعاني الروحية بالفكرة القومية التي يعيشون لها ويقفون نفوسهم على تحقيقها »(٧٢) .

ولم يشتمل تحديد المفكرين لمفهوم القومية في تلك الحقبة على افكار حول الاصلاح الاجتماعي والتنمية الاقتصادية ، وغابت عن الفكر القومي القضيةالاجتماعية والاقتصادية . ويمكن تفسير ذلك ان المهمة الرئيسية للقومية العربية كانت مقاومة الاستعمار للحصول على الاستقلال السياسي ثم الوحدة القومية ، وكان من المسلّم به ان الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، وان كان بحد ذاته امرا مرغوبا فيه يمكن ويجب ان يؤجل الى ما بعد الاستقلال الذي يمكن تحقيقه بوسائل سياسية(٧٣)

الموقع الجغرافي لانطلاق الجهد الوحدوي :

ظل مفهوم الوحدة العربية حتى أواسط الثلاثينات هو مفهوم الفترة الممتدة بين ١٩٠٨ ـ ١٩٢٠ ، أي اعتبار الامة العربية لا تشمل مصر وبلدان شمال افريقية وحتى في هذه الاجزاء كان الامل ببداية متواضعة لتحقيق الوحدة تبدأ بتوحيد سورية الطبيعية ويتبع ذلك اقامة اتحاد بين سورية والعراق ، ومن ثم انشاء ترابط مرن مع اقطار عربية اخرى ، وكان هذا هو برنامج المؤتمر السوري ١٩٢٠ كمرحلة اولى وليس على حساب الوحدة القومية(٧٤) .

وبقيت سورية مركزا قويا للحركة العربية حتى ١٩٢٠ امتدادا لدورها أواخر الحكم العثماني ، وبعد ميسلون وجه العرب انظارهم شطر العراق الذي اطلقوا عليه اسم « بيامونتي العرب » وعقدوا على مساعدته الادبية والمادية آمالهم لتحقيق استقلالهم ووحدتهم . واصبحت بغداد ، كما كانت دمشق ، ملتقى لزعمائهم ومفكريهم ، وكان عددا كبيرا منهم لايزال يعتبر فيصل زعيما لحركتهم(٧٥)، بالاضافة الى ان العراق كان قد حصل على استقلال نسبي قبل غيره ، وكان القوميون العرب يعتبرون النظام القائم في العراق خلقا بريطانيا مصطنعا وان النظام العربي الحقيقي هو الذي يصبح فيه العراق جزءا من دولة عربية موحدة(٧٦) .

واخذت العراق المبادرة في السياسة العربية حيثما تمكنت من ذلك ، ووضعت في بغداد في تلك الفترة خطط وبرامج ترمي الى استرداد استقلال سورية وانقاذ فلسطين وتأمين حرية البلاد العربية ووحدتها ، وكانت جميع الجهود التي بذلت في تلك الفترة ترمي الى ايجاد مركز قوي للاشعاع العربي يجذب الامة اليه(٧٧) . وعارضت كل من بريطانية وفرنسة والصهيونية أي جهد وحدوي ، وحالت بريطانية

دون تبني فيصل الدعوة الى عقد مؤتمر عربي عام في بغداد ١٩٣١ قد ينبثق عنه مشروع لتوحيد المشرق العربي تحت الزعامة الهاشمية(٧٨) ، وذلك لتخوفها التقليدي من وحدة عربية اشمل ، ولخشيتها من ان يصل الى السلطة دعاة القومية العربية « المتطرفة » واشارت في نفس الوقت الى انها تنظر بعين العطف لاي تعاون بين الدول العربية في المجالات الثقافية والاقتصادية(٧٩) .

وبعد وفاة فيصل ١٩٣٣ توقف مؤقتا الرعاية العراقية لنشاطات الوحدة العربية ، وبدات الزعامة السعودية تفرض نفسها على مجريات الامور في المنطقة العربية وتجذب فريقا من القوميين العرب ، وبعض المصلحين من مدرسة رشيد رضا(٨٠) ، وتطرح أساليب جديدة من أجل التضامن العربي . ورحب القوميون العرب باللون الوحدوي لتحركات الملك عبد العزيز بن سعود وعلقوا عليها الآمال فقد وحد الجزيرة العربية ، وعقد معاهدات اخوة وتحالف مع كل من العراق ١٩٣٦ واليمن ١٩٣٧ وبدا بعد ذلك يتخذ دورا قياديا في الشؤون العربية(٨١) .

عاد العراق بعدة فترة توقف الى قيادة الحركة العربية منذ منتصف الثلاثينات بعد ان اصبحت مجموعة من الضباط بقيادة صلاح الصباغ القوة الموجهة في بغداد ، وكانوا هم ومؤيدوهم خارج وداخل الجيش ، يمثلون الجيل الجديد من القوميين العرب الذين يتوقون للتغيير بعد ان ساءهم فشل الحكومات في الارتفاع الى مستوى التوقعات القومية ، وتوجهت انظارهم الى الوطن العربي كله . وناصر الرأي العام فكرة الوحدة واصبح ينظر الى العراق وكأنه البلد المؤهل للعب دور « بروسياالعرب» لتحقيق الوحدة العربية والاماني القومية بالقوة العسكرية . وانتشرت هذه الافكار على نطاق واسع في الاوساط المدنية والعسكرية عن طريق الجمعيات القومية وعلى ايدي المعلمين الوطنيين في المدارس ، ونشرت حولها الكتب والمقالات . وافضل شرح لها ما جاء في كتاب بعنوان « هذه اهدافنا ، من آمن بها فهو منا » ، نشره في بغداد نادي (المثنى) وهو تنظيم قومي اسس ١٩٣٧ عبر ايديولوجيا عن فكرة القومية العربية ودعا الى سياسة القوة لمجابهة الامبريالية والدفاع عن شرف الامة حتى الشهادة(٨٢) .

وظلت مصر ، رغم مكانتها في الثقافة العربية واهميتها السياسية ، ولجوء كثير من قادة الحركات الوطنية اليها ، ظلت كما كانت قبل الحرب ، منصرفة الى قضية استقلالها الوطني العربي الذي هو وليد ظروفها الخاصة ، وسادت العزلة تفكير قطاع كبير من الزعامة السياسية والثقافية لفترة طويلة(٨٣) . واقلقت هذه العزلة كثيرا من زعماء الحركة العربية وكانوا على اقتناع منذ اجتماعات « المنتدى

الادبي » في استامبول قبل الحرب ، بان الامة العربية في حالتها الحاضرة لا يمكن ان تسترد مكانتها في التاريخ اذا ظلت مصر بعيدة عنها ، لان مصر اكثر الاقطار العربية سكانا واعظمها ثروة واشدها رقيا وحضارة وهي واقعة في قلب البلاد العربية تملك امكانيات وكفاءات ليست لغيرها(٨٤) . وبدأوا في تعميم الفكرة العربية وترسيخها في مصر بالاعتماد على مقتضيات القومية والتاريخ ووحدة اللغة والمصالح والاماني والآمال ، واخذت الفكرة تكسب المؤيدين في مصر الا انها لم تكن مقبولة من كل الفئات(٨٥) . ومع تبلور الخطر الصهيوني في فلسطين اواخر العشرينات طرح الحوار حول الهوية القومية لمصر حيث نما اتجاهان واحد يتطور نحو الجامعة العربية والآخر ينادي بالجامعة الاسلامية وكان الاتجاهان متميزين ومختلطين ويتفقان في السعي لانتماء سياسي اشمل لمصر ، لان درء الخطر عن مصر لا يكفله الا الانتماء الى جامعة سياسية أعم : الدين أو اللغة والعادات والتراث والارض . وفي مطلع الثلاثينات ظهر « حزب مصر الفتاة » وعرف باتجاه عربي منذ تكوينه وتضمن برنامجه هدفا عن تحالف مصر مع الدول العربية(٨٦) . وتوضح الاهتمام المصري الحقيقي بالحركة العربية بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ التي اعطت مصر حرية نسبية في سياستها الخارجية ، فاتجهت بانظارها مجددا الى المنطقة العربية المحيطة بها لتعمل على تعزيز علاقاتها وعلى دعم الوحدة العربية واستقلال العرب . وكان لجمعية « الاتحاد العربي » و « الوحدة العربية » اثر في تنمية الوعي ، كما ان الصحافة المصرية بوجه عام كرست نفسها لهذه المهمة . واخذ الزعماء العرب يتطلعون الى مصر كموجه للعمل القومي وكملجأ للحركات الثورية ، ويأملون في امكان مساعدة مصر لقضاياهم الوطنية وخاصة قضية فلسطين(٨٧) .

وبخلاف معظم بلدان المشرق العربي التي وقعت تحت السيطرة البريطانية ، فرضت ثلاث دول كبرى سيطرتها على ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وبفعل التجزئة السياسية والتأثيرات الاجنبية المتغايرة والنضال من أجل الاستقلال الذاتي الاقليمي اصطبغت الحركات النضالية فيها بالصبغة الوطنية كثر مما كانت قومية بالمعنى الواسع(٨٨) . كما اقيم حاجز يمنع تسرب الافكار السياسية وحركات الاصلاح من بلدان المشرق العربي ، واخذت السيطرة الاجنبية في هذه الاجزاء العربية طابع استعمار استيطاني يهدد الارض العربية والمؤسسات التقليدية ومركز اللغة العربية ، واستنفد السعي لمواجهة هذه الاخطار جهود عرب شمال افريقيا وابعدهم الى حين عن الاسهام في بناء الفكر القومي(٨٩) . ومنذ أواخر العشرينات اخذت روح الحركة العربية تنتشر في بلدان المغرب العربي عن طريق الكتب والصحافة والطلاب الذين تخرجوا من معاهد مصر أو سورية أو الذين تعرفوا في أوروبا برفاقهم في المشرق العربي أو عن طريق اسفار الحجاج أيضا . وكان لذلك اثره على مجرى الحركات

الوطنية في اقطار المغرب العربي . ولعب شكيب ارسلان دورا كبيرا في انتشارالافكار الوحدوية العربية في تلك الاقطار منذ أن عين في جنيف على رأس الوفد الدائم للجنة السورية الفلسطينية التي تشكلت بالقاهرة ١٩٢١ . ووطد ارسلان صلاته الوثيقة مع زعماء الحراكات القومية في المغرب ، كعبد العزيز الثعالبي زعيم الحركة الدستورية في تونس ، ومصالي الحاج رئيس جمعية « نجم شمال افريقية » ، وحاول تقريب الشقة بين « نجم شمال افريقية » وبين « العلماء الاصلاحيين الجزائريين » ، كما كانت له صلاته مع المجموعات القومية الاولى في المغرب الاقصى التي قامت ضد « الظهير البربري » ، واصبح مرشد أعضاء « لجنة العمل المغربية »(٩٠) . ولم يقتصر دور شكيب ارسلان على تشجيع الوطنيين المحليين في المغرب ، بل كان فعلا الصلة بينهم وبين التيار العام للحركة القومية العربية في المشرق(٩١) . وشارك نواب من المغرب في المؤتمرات التي عقدت في جنيف (ايلول ١٩٣٠) وفي القدس (كانون أول ١٩٣١) وفي القاهرة (اكتوبر ١٩٣٨) . وكانت معركة المغرب الحقيقية هي معركة اللغة العربية ، فقد ألح الاستعمار الحاحا غريبا ومريبا على استئصال شأفة اللغة(٩٢) ، ولذا كان هم الزعامات الوطنية في اقطار المغرب العربي ربط الصلة بين اقطارهم وبين البلاد العربية الاخرى لمواجهة سياسة التذويب القومي .

ولعبت قضية فلسطين دورا هاما في الفترة بين الحربين كعامل تجمع قومي واسهمت في بلورة المشاعر القومية في الوطن العربي ، وفي دفعه نحو الوحدة . وكان ذلك استمرارا لما شغلته القضية الفلسطينية منذ البداية في اذهان الامة العربية نظرا للمكانة التي تحتلها فلسطين في قلب الوطن العربي بوجودها الجغرافي وتراثها التاريخي ولان الاطماع الصهيونية جاءت تحديا مباشرا للفكرة العربية وحاجزا في وجه الوحدة ، بل وقاعدة اساسية لترسيخ التجزئة في المنطقة العربية . وخلال ثورات فلسطين المستمرة لم تفتر الدعوة للعروبة ، وعبّر عرب فلسطين عن أن نضالهم ضد انشاء الوطن القومي اليهودي ليس مجرد نضال محلي وانما هو موقف عام ضد الصهيونية التي تهدد الوطن العربي ككل ، وان وحدة فلسطين مع جاراتها العربية هي الهدف الابعد للنضال ضد البريطانيين والصهيونية ، وان بوسعهم بمساعدة العرب ان يقاوموا بنجاح اكبر . والتقت الحركة الوطنية في فلسطين مع القوى الوطنية العربية التي كانت تعمل على تحرير بلادها من الوجود الاجنبي حيث تعتبر الصهيونية اخطر اشكاله في المنطقة(٩٣) . واثارت احداث الثورات العربية المجاورة اهتماما عاما في فلسطين وبالمقابل اثارت احداث فلسطين وانتفاضاتها اهتماما عربيا عاما ، وكان لاعتداء الصهيونيين على حائط البراق ١٩٢٩ صدى واسع خارج فلسطين فقامت المظاهرات ونظمت حملة لجمع التبرعات . واثمرت جهود الحركة الوطنية لاثارة اهتمام العالمين الاسلامي والعربي بقضية فلسطين الى عقد

مؤتمر اسلامي عالمي في القدس في كانون اول ١٩٣١ تقرر فيه اعلان خطورة قضية فلسطين واستنكار السياسة البريطانية الاستعمارية والصهيونية فيها وتشكيل شركة اسلامية كبرى لانقاذ أراضيها وارسال وفود الى البلاد الاسلامية لجمع التبرعات(٩٤) ، وكان عبد العزيز الثعالبي ، وهو همزة الوصل بين مغرب الوطن العربي وشرقيه ، أحد الاقطاب الذين قاموا بالتحضير للمؤتمر ووضع نظامه والسهر على نجاحه .

واتفق بعض رجال « الرعيل الاول » من الحركة القومية العربية المتواجدين في القدس خلال المؤتمر الاسلامي على « ميثاق عربي » يؤكد وحدة البلاد العربية وتكاملها ورفض التقسيم المصطنع لاقاليمها وضرورة العمل على تكريس الجهود لتحقيق هدفي الاستقلال والوحدة ورفض الاستعمار بكل صوره ومواجهته بكل وسيلة(٩٥) . وفي تموز ١٩٣٢ تشكل في فلسطين « حزب الاستقلال » واتفق منهج الحزب مع « الميثاق العربي » على وحدة عربية وانكار للتجزئة . وشجب بيان الحزب كل المحاولات التي تتناول تحطيم الامة العربية . « ونظرا لان للامة العربية في مختلف اقطارها غاية مقدسة عليا هي الاستقلال والوحدة والتخلص من اي سيطرة اجنبية مباشرة أو غير مباشرة والوقوف موقف الحزم في وجه الغزوة الصهيونية ، ولذا فانها لن تقبل أي مشروع أو تدبير يتعلق ببلادها الا اذا كان صادرا عنها ومتفقا مع غاياتها وامانيها ، وتستنكر كل دسيسة تؤدي الى وقوع الفتنة في أي قطر من الاقطار العربية أو توسيع شقة الخلاف بين قادتها لان ذلك يؤدي الى ترسيخ سيطرة الاجنبي فيها وعرقلة وصول الامة العربية الى غايتها المقدسة»(٩٦) . وكان « حزب الاستقلال » يرقب تطور الاوضاع في الاقطار العربية باهتمام ويبدي رأيه فيها باعتبار ان القضية العربية في فلسطين جزء من القضية العربية العامة(٩٧) .

وقد زاد الاهتمام العربي بتطور الاوضاع في فلسطين مع تزايد الوجود الصهيوني بعد عام ١٩٣٣ ، الى درجة تثير القلق بالنسبة لمستقبل العرب فيها ، وتأسس في دمشق « المكتب العربي للدعاية والنشر » من أجل خدمة القضيةالعربية العامة بما فيها قضية فلسطين(٩٨) ، وعقد في نابلس مؤتمر كبير ١٩٣٥ بمناسبة ذكرى تصريح بلفور نال تأييد الوطن العربي ومشاركته وعبرت قرارات الاجتماع عن عطف العالمين العربي والاسلامي(٩٩) .

وكانت ثورة ١٩٣٦ اخطر تعبير عن القلق العربي تبدّى حتى الان ، واسهمت في دفع قضية الوحدة ، لما اكدته من ردود الفعل الشعبية المتعاظمة في الاقطار العربية المجاورة ، وبدأت الجمعيات والمنظمات في كل مكان حملة نشطة لتعبئة الدعم الشعبي

لعرب فلسطين ، واتخذ العطف شكل مظاهرات احتجاجية واضرابات ونداءات في جميع انحاء المنطقة العربية ، وخرجت البلاد العربية الى موقف ايجابي بارسال المتطوعين للمشاركة في القتال الى جانب اخوتهم الفلسطينيين(١٠٠) . وكان أكثر ما لفت انظار « اللجنة الملكية للتحقيق » في فلسطين هو الطريقة التي اثارت بها احداث ١٩٣٦ مشاعر العرب ضد الصهيونية والمدافعين عنها(١٠١) .

واعلن الحكام العرب رغم ما بينهم من خلافات ، عن استنكارهم للسياسة البريطانية في فلسطين ، فاصدروا تصريحات علنية تندد بالسياسة الاستعمارية وقاموا بالسعي مع بريطانية لاقرار تسوية سلمية ترضي مطالب عرب فلسطين (١٠٢) . وكان لمشروع التقسيم وانشاء « دولة يهودية » في فلسطين اثر بالغ في الوطن العربي شعوبا وحكومات ، فقامت المظاهرات واعلنت الهيئات والاحزاب استنكارها لانشاء دولة يهودية ، ووردت الى اللجنة العربية العليا في القدس برقيات الاستنكار من انحاء الوطن العربي بما فيه المغرب . وقدمت الحكومات العربية احتجاجاتها الى الحكومة البريطانية ، وكان لممثلي العراق ومصر مواقف قوية امام عصبة الامم ضد مشروع التقسيم ودفاعا عن حقوق العرب في فلسطين(١٠٣) . وشبه كثير من زعماء الحركة الوطنية في فلسطين « قضية فلسطين بالمحرك الكهربائي للاقطار العربية والمكثف لكهربائها »(١٠٤) .

ونظمت لجنة الدفاع عن فلسطين في دمشق « مؤتمر بلودان العربي » في ٨ ايلول ١٩٣٧ لتأكيد ارتباط مصلحة العرب العامة بما كان يجري في فلسطين(١٠٥) ، واختير لرئاسة المؤتمر ناجي السويدي (عراقي) ، ولنيابة الرئاسة محمد علي علوية (مصري) والامير شكيب ارسلان (سوري) والمطران حريكة مطران حماه (لبناني) ولامانة السر عزة دروزة (فلسطيني) . وأكد الحاضرون أن فلسطين للعرب جميعهم وليست لاهلها فقط ، وهي صلة الوصل بين العرب في آسية وافريقية وليس على اهل فلسطين ان ينفردوا بالدفاع عنها أو تقرير مصيرها لانها اذا انقطعت انفرد عقد العرب ، وانه لا بد من الوقوف صفا واحدا لمقاومة نشوء دولة يهودية وتنفيذ فكرة التقسيم . وتعاهد المؤتمرون ان يستمروا في النضال في سبيل فلسطين الى ان يتم انقاذها وتتحقق السيادة العربية(١٠٦) .

وكان لتجدد الاعمال الثورية في فلسطين أواخر ١٩٣٧ اثرا بالغا في الاقطار العربية على المستويين الشعبي والرسمي فتشكلت لجان للجهاد وللدفاع عن فلسطين في كل من سورية ولبنان والعراق ومصر . واحتج المجلسان النيابيان في العراق ومصر لدى بريطانية على اعمالها الوحشية ضد عرب فلسطين وطالبا بحل عادل .

ودعت اللجنة البرلمانية المصرية الى مؤتمر برلماني عربي عقد في القاهرة في تشرين ثاني ١٩٣٨) حضره نواب وشيوخ من البلاد العربية يمثلون مختلف الاحزاب ، قرر التمسك بابقاء فلسطين قطرا عربيا . وتبع المؤتمر البرلماني « المؤتمر النسائي العربي » الذي حذا حذو المؤتمر البرلماني في قراراته(١٠٧) .

وقد ادركت بريطانية ثقل ردود الفعل العربية المجاورة في وضع عالمي خطر واضطرت الى تغيير اسلوبها التقليدي الذي ظلت تتمسك بهحتى منتصف الثلاثينات، وهو عزل فلسطين عن التأثيرات العربية المجاورة وابقاء العرب خارج فلسطين غير مبالين بمصير اشقائهم فيها ، وتجلت مظاهر التحول بعد ترك وزير المستعمرات (اورمسبي غور) منصبه ، وهو الذي كان يرى في قيام كيان يهودي في فلسطين اسفينا في قلب اي تجمع عربي اسلامي ضد الوجود الاجنبي في المنطقة(١٠٨) ، وقبلت بريطانية تدخل الحكام العرب لدى شعب فلسطين لتهدئة الامور ، ثم تخلت عن مشروع التقسيم وبدأت في التفكير الجدي لايجاد تسوية للقضية الفلسطينية في اطار اتحاد عربي يسمح بقيام كيان يهودي منفصل . واتفقت المشروعات المقدمة على ان ارضاء تطلعات العرب نحو الوحدة قد يهدىء مخاوفهم من التسلط اليهودي على فلسطين ويزيل معارضتهم للهجرة اليهودية(١٠٩) .

وتخلت بريطانية عن فكرة تسوية القضية الفلسطينية من خلال ايجاد اتحاد عربي ، رغم أن الفكرة ظلّ لها مؤيدوها داخل بعض الاوساط السياسية البريطانية التي اصبحت تنظر للقضية الفلسطينية والاتحاد العربي من خلال المجال الاوسع للعلاقات العربية البريطانية . وكان من اهم اسباب التراجع البريطاني خشية بريطانية من قيام اي شكل من اشكال الوحدة العربية لانه سيؤدي الى دعم عربي اقوى للفلسطينيين ضد السياسة الصهيونية وبالتالي يضعف وجود بريطانية في المنطقة(١١٠) .

وفي كانون اول ١٩٣٨ اعترفت الحكومة البريطانية رسميا بمصلحة البلدان العربية الاخرى في قضية فلسطين ، حين عبر وزير المستعمرات « مالكولم مكدونالد » عن استحالة الوصول الى اية تسوية لقضية فلسطين في عزلة عن جيرانها ، واقر تشمبرلن رئيس الوزارة بان فلسطين أصبحت قضية عربية(١١١) ، فاتبعت خطوة لاسترضاء العرب ، كانت ضرورة لتخفيف عدائهم وضمان المصالح البريطانية في المشرق العربي في وضع دولي متفجر . ووجهت الدعوة الى عدد من الحكومات العربية (مصر والعراق والاردن والعربية السعودية واليمن) لارسال مندوبين عنها على أعلى مستوى الى « مؤتمر المائدة المستديرة » في لندن شباط / فبراير ١٩٣٩ ، الذي

سيحضره ممثلون عن اللجنة العربية العليا في فلسطين . وباقتراح من اللجنة العربية العليا تبنى محمد محمود باشا رئيس الوزارة المصرية فكرة دعوة الوفود الى مصر للاجتماع والمداولة قبل السفر لوضع خطة مشتركة ، بحيث يجتمع ممثلو العرب على مائدة واحدة لبحث قضية فلسطين كفريق واحد بغض النظر عن نجاح المؤتمر أو فشله(١١٢) . وكانت الاجتماعات التمهيدية للوفود العربية في القاهرة قبل المؤتمر أول اجتماعات رسمية على مستوى عال ، للتفاهم على الخطة التي ستسير عايها الوفود ، وتقرر تبني « الميثاق الفلسطيني العربي » وعدم الجلوس مع الوفد اليهودي كطرف ثان .

ودارت مناقشات المؤتمر في طريق ملتو ، وقبلت الحكومة البريطانية في النهاية وجهة نظر العرب في حل القضية ووافقت على مبدأ انهاء الانتداب وقيام دولة مستقلة في فلسطين ترتبط معها بمعاهدة بعد فترة انتقال عشر سنوات . ولم يوافق العرب على جعل احتمال تجديد فترة الانتقال تحت رحمة السياسة البريطانية والموافقة اليهودية ، فأدى ذلك الى انفضاض المؤتمر بدون اتفاق ، بعد ان دللت محاضر المؤتمر على الهوة التي تفصل وجهتي النظر العربية والبريطانية . واستكملت المشاورات بشأن المقترحات البريطانية بعد عودة الوفود العربية الى القاهرة ، ورغم ميل تلك الوفود للمقترحات ، خاصة بعد أن اسر لها مالكولم مكدونالد بانه يستحيل على الحكومة البريطانية ان تسير أبعد من ذلك لان الجو حافل بالسحب ، فقد شاءت النصيحة والتوسط لدى وفد فلسطين لقبول الاقتراحات دون ابداء الراي(١١٣) . وقد تم الاتفاق على صيغة أبلغت للسفير البريطاني تتضمن ان الحكومات العربية ستنصح عرب فلسطين بقبول الخطة البريطانية اذا قدمت الحكومة البريطانية ضمانات لصالح القضية الفلسطينية ، ولكن الحكومةاهملت الصيغة العربيةواصدرت حلا من جانب واحد (الكتاب الابيض مايو/أيار ١٩٣٩) . وتكمن أهمية مؤتمر لندن ، رغم فشله في الوصول الى اتفاق ، في انه اتاح للوفود العربية فرصة لعقد صلات أوثق في مواجهة بريطانية ، وان يمثلوا رغم كل شيء ، جبهة موحدة حيال القضية الفلسطينية .

خاتمـــة :

يمكن القول ان التجزئة التي فرضها الاستعمار على الامة العربية ، حتمت على القوى العربية ان تناضل اولا وقبل كل شيء من أجل التخلص من الاستعمار المباشر، الا انها ادركت أن تجزئة البلاد العربية هي أهم مظاهر الهيمنة الاستعمارية في هذه المنطقة وان الوطن العربي الموحد هو نقيض تلك الهيمنة ، فكان العمل من أجل الوحدة هو الهدف الثاني من أهداف الحركة القومية . ورغم ما تعرضت له هذه الحركة القومية من نكسات خلال فترة ما بين الحربين فقد استطاعت ان تفرض نفسها على جميع القوى الخارجية المتصارعة كعامل يحسب حسابه عند صياغة سياستها تجاه المنطقة ، ومن ثم فقد اكدت احدى المذكرات التي اعدتها الخارجية البريطانية في ايلول ١٩٣٩ ان حركة الوحدة العربية قد غدت ظاهرة لا يمكن تجاهلها بل وينبغي عــدم مناصبتها العــداء .

* * *

الهوامش :

(١) حازم ونسيبه ، القومية العربية : فكرتها وتطورها ونشاتها ، ص ١٦ ، وهو ترجمة كتاب
The Ideas of Arab National movement, Ithaca, 1959

(٢) حول تفاصيل القضية العربية يمكن مراجعة
Ziene, N. Z., Arab-Turkish relations and emergence of Arab Nationalism Beirut, 1959

(٣) Khadduri, M., Political trends in the Arab world , John Hopkins Press, 1970, pp. 14-16

(٤) Dawn, C. E., The Rise of Arabism in Syria, Middle East Journal XVI 1962 Spring, p. 145

(٥) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي القاهرة الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر سنة ١٩٧٠

(٦) Hourani, A., Arabic theught in the liberal age, Oxford University press 1970 pp. 271 - 73

(٧) أصدر عزوري عام ١٩٠٥ كتابا باللغة الفرنسية بعنوان : Réveil de la Nation Arabe

(٨) Zeine, p. 93

(٩) Dawn, p. 146

(١٠) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، ١٩١٨–١٩٢٠ ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص٢٢

(١١) Khadduri, p. 18

(١٢) Khadduri, p. 181

(١٣) Hourani, pp. 200 - 300
وقد بدا رشيد رضا في مجلة المنار (القاهرة) منذ عام ١٨٩٩ وحتى عام ١٩٣٢ بالدعوة الى نزعة دينية ودعوة سياسية منتترة .

(١٤) نسيبه ص ٦٠.

(١٥) المصدر السابق ، ص ٥٧

(١٦) طارق البشري ، مصر في اطار الحركة العربية ، مجلة المستقبل العربي تموز ١٩٧٨ ، ص١٤

(١٧) Barbour, N., Variations of Arab National feeling in French North Africa, Middle East Journal (1954) - p. 30

(١٨) Hourani, p. 361

(١٩) عبد العزيز الاهواني ، ازمة الوحدة العربية بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤-٢٥

(٢٠) جوليان ، شارل اندري ، افريقيا الشمالية تسير : القوميات الاسلامية والسيادة الفرنسية ص ٢٤-٢٥ مترجم - تونس ١٩٧٦ عن كتاب
Julien, C. A., L'Afrique du Nord en marche

(٢١) Khadduri, p. 20

(٢٢) Hourani, p. 290

(٢٣) وليد قزيها ، القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين ، مجلة المستقبل العربي ، يناير ١٩٧٩ ، ص ٥٩

(٢٤) تشايلدرز ، ارسكين ، الحقيقة عن العالم العربي ، ص ٧٢ مترجم عن كتاب :
Childers, E. Common Sense about the Arab World

(٢٥) حازم نسيبه ، بحث الثورة العربية الكبرى ومستقبل العمل القومي في كتاب :
دراسات في الثورة العربية الكبرى ، مجموعة من المؤلفين ، عمان ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤

(٢٩) Agwani, The United States and the Arab World, p. 9

(٣٠) Hourani, p. 298

(٣١) نسيبه ، ص ٧٠

(٣٢) انيس صايغ ، كلمة المستقبل ، مجلة المستقبل العربي ، نوفمبر ١٩٧٨

(٣٣) اسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٧

(٣٤) Agwani, p. 15

(٣٥) داغر ، ص ٧

(٣٦) عبد الكريم غرايبه ، الثورة العربية الكبرى والعالم العربي ١٩١٨-١٩٢٥ ، ص ١٠٢ بحث في كتاب دراسات في الثورة العربية الكبرى مصدر سابق ، ص ١٠٢

(٣٧) قزيها ، ص ٥٩

(٣٨) Hourani, p. 298

(٣٩) غرايبـه ، ص ١٤٣
وقد أسس خالد بن الهاشمي بن عبد القادر كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين وأصدر بالتعاون مع الشيوعيين الجزائريين جريدة في باريس ١٩٢٤ وشكل معهم لجنة الدفاع عن شمال افريقيا ، كذلك أسس الثعالبي حزب الدستور التونسي .

(٤٠) Hourani, pp. 362 - 363

(٤١) غرايبه ، ص ١٠٢

(٤٢) ساطع الحصري ، مقدمة كتاب العروبة اولا ، بيروت ، ١٩٥٥

(٤٣) Hourani, pp. 292-93

(٤٤) Longrigg H. S. Syria and Lebanon under French Mandate Oxford 1958 p. 108
و
Siegman, H. Arab Unity and disunity, Middle East Journal 16, 1962, pp. 48 - 49

(٤٥) Agwani, p. 18

(٤٦) ساطع الحصري ، الاقليمية جذورها وبذورها ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ١٢ـ١٣

(٤٧) تشايلدرز ص ٨٤

(٤٨) المصدر السابق ، من أمثلة الخلافات الخلاف السعودي الهاشمي ، الذي بدأ ١٩١٦ واستمر حتى ١٩٣٦ والحرب اليمنية السعودية ١٩٣٤ .

(٤٩) Morrison, Arab Nationalism and Islam Middle East Journal, 2, 1948, pp. 150 - 152

(٥٠) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل (لبنان) ١٩٣٣ ، ص ٣

(٥١) الاهوانـي ، ص ١٢٤

(٥٢) جوليان ، افريقية تسير ، ص ٢٩

(٥٣) الاهواني ، ص ١١٨

(٥٤) Hourani, p. 292

(٥٥) صايغ ، كلمة المستقبل العربي ، نوفمبر ١٩٧٨ .

(٥٦) الاهواني ، ص ٧٢ـ٧٦

(٥٧) Hourani, pp. 293 - 294

(٥٨) Ibid, p. 307

(٥٩) غرايبــه ، ص ١٠٣

(٦٠) عزة دروزة ، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، الجزء الاول صيدا ١٩٥٩ ملحق ٥ « نص البيان المذاع عن المؤتمر العربي القومي في ١٩٣١/١٢/١٣ ».

(٦١) حول المؤتمر العربي الاول : انظر المصدر السابق ص ٨٧ وداغر ص ١٨٦-١٩٤

(٦٢) Khadduri, p. 176

نقلا عن الريحاني، امين، القوميات، بيروت ١٩٥٦، جزء ٢، ص ٥-٨، ٤٩-٥٦، ٨٦-٨٧، ١٤٢-١٤٦.

(٦٣) قسطنطين زريق ، الوعي القومي نظـرات في الحياة القومية المتفتحة في الشـرق العربي ، بيروت ١٩٣٩ ص ٦ - ٨.

(٦٤) قزبها ص ٦١ - ٦٢

(٦٥) نسيبة ص ٨١

(٦٦) الحصري ، دفاع عن العروبة ، بيروت ١٩٥٦ بحث « نظرات الى تاريخ الامة العربية »حول القومية العربية بيروت ١٩٦١ بحث « وعود الى مسالة من هو العربي ».

(٦٧) قزبها ، ص ٦٠

(٦٨) جاء في مقدمة كتاب آراء واحاديث في القومية العربية ، القاهرة ١٩٥١ « ماسعد الامم التي حققت وحدتها العربية واستكملت شخصيتها السياسية فاستطاعت ان تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية » .

(٦٩) من رسالة الى طه حسين نشرت في مجلة «الرسالة» (القاهرة) ١٩٣٨.

(٧٠) الحصري ، آراء واحاديث في القومية العربية بحث « التيارات الفكرية حول القومية العربية ، حديث عن الصراع بين القومية والاقليمية » وبحث « مصر والعروبة : رد علـى بعض المصرييـن المعترضين على فكرة الوحدة العربية ».

(٧١) Hourani, p. 316

(٧٢) زريق ، ص ١١٢ - ١١٤

(٧٣) Khadduri, p. 22

(٧٤) Hourani, p. 294

(٧٥) داغـر : ص ٨ ـ ٩

وكان فيصل قد تعهد قبل اعتلائه العرش ان يقصر جهوده على العراق ويمتنع عن اي نشاط معـاد لبريطانية انظر :

Goma'a, A., The foundation of the League of Arab States, London, 1977, p. 5

نقـلا عـن

F.O. 371/16855, memorandum on British attitude towards Arab Unity, June 1933

(٧٦) Khadduri, M. Independent Iraq, London, 2nd ed. 1966, p. 162

(٧٧) داغـر ، ص ٩

(٧٨) المصدر السابق ١٨٦ ـ ١٩٤ بشان المساعي المختلفة لاعداد المؤتمر العربي وفشلها .

(٧٩) Goma'a, p. 7

نقلا عن الوثيقة السابقة رقم F.O. 371/16855 المذكورة في حاشية (٧٥)

(٨٠) Hourani, p. 295

وقد وضع رشيد رضا كتابا بعنوان « الوهابيون والحجاز » القاهرة ١٣٤٤ (١٩٢٥ـ١٩٢٦)

(٨١) داغـر ، ص ١٩٩

(٨٢) Khadduri, Independent Iraq, p. 166-167

(٨٣) A. G., Egyptian attitudes towards pan-Arabism, Middle East Journal, XI 1957, Summer pp. 253 - 56

Cheine,

(٨٤) داغر ص ٩ ، وكان ساطع الحصري قد كتب في جريدة البلاد في بغداد ١٩٣٦/٤/١٩ مقالا عنوانه «دور مصر في النهضة القومية العربية» تضمن افكارا مماثلة .

(٨٥) Cheine, p. 258

(٨٦) طارق البشري ، ص ١٤ ـ ١٦

(٨٧) Hourani, p. 295

(٨٨) Barbour, p. 319

(٨٩) Hourani, pp. 361 - 62

(٩٠) جوليان ، افريقيا تسير ، ص ٣٢–٣٤ وكان ارسلان ينشر مجلة (الامة العربية) باللغة الفرنسية ولها انتشار واسع في العالم الاسلامي بين النخبة المثقفة .

(٩١) Hourani, p. 306

(٩٢) عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥٨ ، ٦١ مترجم عن الفرنسية : La Tunisie martyre, Paris, 1925

(٩٣) اميل الغوري ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ١٩٧٩ ، جزءا ص ٧٦

(٩٤) دروزه ، ص ٧٩ – ٨٦

(٩٥) عوني عبد الهادي، اوراق خاصة(اعداد خيرية قاسمية)، بيروت ١٩٧٤ . وقد عقد الاجتماع في داره ، نص البيان والميثاق ، دروزه ملحق ٥ ، ص ٣٠٦ .

(٩٦) دروزه ، ملحق ٦ ص ٣٠٩ ، وعوني عبد الهادي، ص ٦٦–٦٧ وكانت مسودة بيان حزب الاستقلال قد وضعت بخط يده .

(٩٧) زعيتر ، اكرم ، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨–١٩٣٩ اعداد بيان نويهض الحوت، بيروت ١٩٧٩ وثيقة ١٨١ (١٩٣٢/٩/٥) ، ١٨٧ (١٦/١/١٩٣٣)،١٩٣(١٦/٥/١٩٣٣)،١٩٥(٢/٩/١٩٣٣)

(٩٨) المصدر السابق وثيقة ٢٠٤ (١٩٣٤)

(٩٩) المصدر السابق ، وثائق ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١، ٢١٢ ، ٢١٣ (نوفمبر ١٩٣٥)

(١٠٠) يوسف هيكل ، القضية الفلسطينية ، تحليل ونقد ، يافا ١٩٣٨ من مقدمة محمد حسين هيكل

(١٠١) Report of the Royal Commission (Peel) Cmd. 5479, HMSO, London, July 1937, p. 67

(١٠٢) نداء الحكام العرب لوقف اعمال الثورة ، واستجابة اللجنة العربية العليا ، انظر زعيتر ، وثيقة ٢٦٢ (١١/١٠/١٩٣٦) ، و ٢٦٥ (١٢/١٠/١٩٣٦)

(١٠٣) عوني عبد الهادي ص ٩١

(١٠٤) دروزه ص ١٦٨

(١٠٥) Hourani, p. 293

(١٠٦) وقائع جلسات المؤتمر وقراراته صادر عن المكتب العربي للدعاية والنشر دمشق ايلول ١٩٣٧

(١٠٧) زعيتر ، وثيقة ٣٢٦ (١١/١٠/١٩٣٨ عن قرارات المؤتمر البرلماني العربي ووثيقة ٣٢٧ (١٥ – ١٨/ ١٩٣٨/١٠) عن قرارات المؤتمر النسائي العربي

(١٠٨) Goma'a, p. 9
نقلا عن الوثيقة البريطانية رقم F. O. 371/21862 بتاريخ ١٩٣٨/١١/٩ (رسالة الى تشمبرلن)

(١٠٩) من المشاريع المقدمة مشروع هربرت صموئيل ونوري السعيد ، والامير عبد الله انظر :
Goma'a, pp. 11-13

(١١٠) Ibid, pp. 13-14 نقلا عن الوثيقة البريطانية رقم F.O. 371/20806
(رسالة لامبسون السفير البريطاني في القاهرة)

(١١١) Ibid, p. 9 نقلا عن الوثيقة البريطانية رقم F.O. 371/21865
(وقائع الجلسة الاولى للجنة الوزارية بشأن فلسطين)

(١١٢) عوني عبد الهادي ، ص ١٠٧–١٠٨ مراسلات بين عوني عبد الهادي (القاهرة) وعزة دروزة(دمشق)

(١١٣) المصدر السابق ص ١١٦ ، وكان هو من المؤيدين لقبول المقترحات البريطانية .

* * *

بعض مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في جزيرة صقلية

د . فائزة بكر الصواف
جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة

تقع جزيرة صقلية في الحوض الاوسط من البحر المتوسط . وهي ذات موقع ممتاز من الناحيتين الحربية والتجارية ، اذ انها تتحكم في الاتصال بين الحوضين الشرقي والغربي لهذا البحر . وقد غلب على الجزيرة الطابع الحربي ، فاكثر مدنها شيدت على رؤوس الجبال على شكل قلاع أو حصون ، ومن أهم هذه المدن بلرم التي كانت قصبة الجزيرة ، وسرقوسة . يضاف الى ذلك ان صقلية تمتعت بخيرات كثيرة لكثرة انهارها وعيونها ومعادنها(١) .

فتح صقلية :

اتجهت انظار المسلمين منذ العصر الاسلامي الاول صوب جزيرة صقلية لانها كانت قاعدة الروم البحرية يغيرون منها على سواحل ومدن البحر المتوسط . وكانت اولى محاولات غزو جزيرة صقلية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما ارسل معاوية بن ابي سفيان ـ والي الشام ـ قائده معاوية بن حديج الكندي عام ٣٤ هـ/(٦٥٤) م على رأس عدة سفن لمهاجمة صقلية . ووصل معاوية بن حديج الى صقلية واحرز عدة انتصارات على الحامية البيزنطية في الجزيرة وعادت سفنه محملة بالغنائم والاسرى(٢) . وتتابعت الفزوات الاسلامية بعد ذلك على صقلية ، ولكنها لم تؤد الى الاستقرار بالجزيرة بقدر ما كان هدفها الاغارة ، فلم يترتب عليها سوى الحصول على الغنائم والعودة بأصناف من ذهب وفضة مكللة بالجواهر على حد تعبير البلاذري(٣) .

(*) أعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦-٢٢ جمادى الآخره ١٤٠١ هـ / ٢٠-٢٦ نيسان ١٩٨١ م

وبعد أن استتب الامر لولاة افريقية ، واسسوا مدينة القيروان ، واقاموا في تونس دارا للصناعة (صناعة السفن) فكروا في غزو جزيرة صقلية . ومما شجعهم على ذلك قرب الجزيرة من شاطىء شمال افريقية وما نعمت به تلك الجزيرة من خيرات وثمار ، وكذلك انشغال اباطرة الدولة البيزنطية بمشاكلهم الداخلية مما ادى الى اهمالهم امر الجزيرة وبالتالي ضعف الحامية البيزنطية بها . على ان اغارات المسلمين على صقلية لم تتصف بصفة الاستقرار في هذه المرحلة لصعوبة ارسال الامدادات الى المحاربين(٤) .

واستمر هذا الوضع قائما حتى عام ١١٦ هـ/(٧٣٤ م) ففي هذا العام جهز عبيد الله بن الحبحاب جيشا واسطولا كبيرين وجههما الى صقلية . ولم تلبث ان دارت معركة كبيرة بين الاسطولين البيزنطي والاسلامي وكان النصر حليف الاسطول الاسلامي مما اعطى لابن الحبحاب ثقة كبيرة في مدى قوة الاسطول الاسلامي وهذا ما جعله يفكر جديا في غزو جزيرة صقلية وفتحها والاستقرار بها(٥) .

وجهز ابن الحبحاب عام ١٢٢ هـ حملة كبيرة وضع على رأسها القائد حبيب ابن ابي عبيدة ابن عقبة بن نافع ومعه ابنه الجسور عبد الله بن حبيب فنزل ارض صقلية وظل يقاتل ويجاهد حتى اذعن الروم لعقد الصلح ، وبذلوا في سبيله جزية كبيرة للمسلمين . وعزم حبيب وابنه عبد الله على البقاء في صقلية وانجاز فتحها ، غير أن سوء الاحوال في افريقية اضطرهما الى العودة (٦) .

وعاود عبد الرحمن بن حبيب الفهري واخوه عبد الله الكرة لغزو صقلية ، التي كان الروم قد حصنوها ، وانشأوا بها اسطولا بغرض مهاجمة مراكب المسلمين وسفنهم . وعلى الرغم من ان ابن حبيب نجح في تحطيم كثير من سفن الروم ، الا انه عاد بخفي حنين مكتفيا بالغنائم . وبعد ذلك لم تتعرض جزيرة صقلية لخطر المسلمين لمدة تزيد عن خمسين عاما .

ثم قامت دولة الاغالبة في تونس بمأثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهي فتح صقلية ونصب الوية الاسلام فوقها عالية خفاقة . وقصد الاغالبة من فتح تلك الجزيرة تمهيد السبيل لفتح البلاد الاوروبية ومهاجمتها من الوسط بعد ان اخفق المسلمون في الهجوم عليها شرقا وغربا ، ومحاولة قطع دابر القرصنةالبيزنطية التي اتخذت صقلية مركزا لها(٧) .

وحدث في عام ١٩٠ هـ/٨٠٥ م ان عقد ابراهيم بن الاغلب مؤسس دولة الاغالبة هدنة لمدة عشر سنوات مع حاكم صقلية(٨) . وبعد وفاة ابراهيم جدد خليفته ابو

العباس عبد الله الاول (١٩٦ ـ ٢٠١ هـ) ذلك الصلح في عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م . وفي سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م تولى حكم دولة الاغالبة زيادة الله بن ابراهيم ، وهو الذي وصل حكم الاغالبة في عهده أقصى درجات الاستقرار ، وتم فتح صقلية .

ففي عام (٢١١ هـ/٨٢٦ م) جاءت زيادة الله فرصة ذهبية من داخل جزيرة صقلية للقيام بفتحها . فتروي المصادر العربية انه وفد على زيادة الله بن ابراهيم الاغلبي القائد البيزنطي (افيميوس) مستصرخا ومستنجدا به ضد بعض المنافسين له . وتفصيل ذلك : انه حدث في عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ان حاكم صقلية قسطنطين عهد الى القائد افيميوس بقيادة الاسطول ومهاجمة شواطىء افريقية وقام افيميوس بمهمته خير قيام ، وعاد الى صقلية . غير ان افيميوس وقع في خطأ فاحش عندما اختطف احدى الراهبات وتزوج بها ووصل ذلك الى اسماع الامبراطور البيزنطي ، الذي امر قسطنطين بالقبض على قائد الاسطول (افيميوس) وارساله الى القسطنطينية لمحاكمته . وعندما علم افيميوس بذلك رفع راية العصيان ، واستقل بمدينة سرقوسة (سيراكوز) غير ان احد قادته (يدعى بلاطه) ما لبث ان ثار عليه وانزل به هزيمة ساحقة اضطر معها افيميوس الى التوجه الى تونس طالبا مساعدة زيادة الله بن الاغلب واعدا اياه « بملك جزيرة صقلية »(٩) .

وجمع زيادة الله وجوه اهل القيروان وفقهاءها وفيهم القاضي اسد بن الفرات واستشارهم في الامر وانتهى الامر بضرورة فتح جزيرة صقلية ونشر الاسلام فيها(١٠)

ولم تلبث ان جاءت الاخبار الى افيميوس بأنه تقرر مساعدته ، وامر بالتوجه الى مرسى سوسة والانتظار به الى حين وصول الاساطيل الاسلامية .

وبعد أن أتم زيادة الله اعداد جيش قوي ، قوامه عشرة آلاف مجاهد وسبعمائة فرس عهد بقيادته الى قاضي القيروان اسد بن الفرات وتجمعت السفن في ميناء سوسة ، لتحمل ذلك الجيش الى صقلية وكان ذلك الجيش مكونا من العرب والبربر والفرس والاندلسيين . وفي يوم السبت الموافق الخامس عشر من ربيع الاول عام ٢١٢ هـ/(٨٢٧) م اقلعت الحملة وفي معيتها افيميوس متجهة نحو صقلية ، حيث وصلوا الى مدينة (مازر) احدى مدن صقلية . وتقابل جيش المسلمين مع جيش القائد (بلاطة) الذي مني بالهزيمة وفر هاربا ، في حين « غنم المسلمون أموالهم ودوابهم » على حد قول المؤرخ ابن الاثير(١١) . وتابع الجيش الاسلامي بقيادة اسد بن الفرات زحفه داخل صقلية ، فاستولى على بعض الحصون المنيعة ، وضرب الحصار على مدينة سرقوسة واستطاع ان يضيق عليها الخناق ويحرق سفنها ويقتل جماعة

من اهلها مستعينا بامداد من أفريقية والاندلس . وحدث ان وصل اسطول بيزنطي من القسطنطينية لنجدتها ، فضلا عن أن الوباء تفشى في المسلمين ومات من جرائه كثيرون منهم اسد بن الفرات نفسه(١٢) .

ثم ما لبث ان تولى محمد بن ابي الجواري قيادة الجيش الاسلامي بصقلية بعد وفاة اسد بن الفرات . وعدل ابن ابي الجواري عن فكرة العودة الى افريقية وصمم على البقاء بصقلية ومعاودة القتال من جديد . فبدأ باحراق سفن الاسطول البيزنطي المحاصر لصقلية ، وساعده في ذلك نجدات بحرية من القيروان . كمااشتد في قتال البيزنطيين حتى استطاع الاستيلاء على حصن جرجنت ، مما ترتب عليه ارتفاع الروح المعنوية في الجيش الاسلامي بهذا الفتح الجديد(١٣) .

وهكذا تحمس افراد الجيش الاسلامي لاستكمال فتح حصون صقلية ، واخذوا في احكام الحصار على تلك الحصون المختلفة ، وسقطت هذه القلاع والحصون واحدة تلو الاخرى في ايدي المسلمين على الرغم من الامدادات المتواصلة من القسطنطينية فسقطت (بالرمو) عام ٢١٦ هـ (وقلورية) عام ٢٢٥ هـ ، وفتحت (قصريانة) ٢٤٤ هـ وقلعة (بلاطو) ٢٤٦ هـ (ومسيني) عام ٢٦٥ هـ (١٤) . وهكذا دانت صقلية للعرب بعد أن كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية . وكان النصر حليف الاسلام الذي امتد سلطانه عام ٨٤٦ م الى رومية نفسها ، وذلك على حد قول المؤرخ الانجليزي سنجر(١٥) .

الحضارة الاسلامية في جزيرة صقلية

حكم العرب جزيرة صقلية في الفترة الممتدة من عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م حتى عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . والواقع أن الحكم العربي لصقلية مر بفترتين او مرحلتين اولاهما حكمت فيها صقلية من قبل ولاة الاغالبة حكام افريقية ، وامتدت من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ حتى ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م . وثانيتهما : حكم صقلية خلالها ولاة من قبل الخلفاء الفاطميين ، وامتدت من عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م الى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . وأصبحت جزيرة صقلية مركزا هاما من مراكز الحضارة الاسلامية فما هو السر وراء ذلك التيار الحضاري الجارف الذي نعمت به صقلية في ظل الحكم الاسلامي لها ؟ لاشك في ان السر وراء ذلك هو ما اشتهر به المسلمون من حبهم للحضارة وتشجيعهم لها ، وما اشتمل عليه الدين الاسلامي من مقومات واسس حضارية وما اتسم به من تسامح مع غير المسلمين ، حيث عاش المسلمون الى جانب سكان صقلية الاصليين دون اثارة للفتن . وترك فاتحو صقيلة من العرب لاهاها عاداتهم وتقاليدهم ، وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا منها بجباية الجزية وكان مقدارها أقل

بكثير مما كانت عليه على عهد البيزنطيين واعفوا منها الرهبان والنساء والاولاد وحافظوا على الكنائس التي وجدوها ولكنهم لم يسمحوا بانشاء غيرها(١٦) .

كما ان العرب المسلمين لم يكونوا مثل العناصر الجرمانية البربرية مثل القوط والوندال التي انسابت داخل الامبراطورية الرومانية . وفي الوقت الذي نسمع فيه بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب شامل لكثير من أقاليم أوربا وافريقية ، اذا بالبلاد التي فتحها المسلمون واستقروا فيها تتحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف انحاء العالم المعروف وتتذاك للتزود والاستنارة . وحسبنا ان نوازن بين احوال بعض البلاد الاوروبية مثل اسبانيا وصقلية قبل فتح العرب لها واحوالها بعد استقرارهم فيها . اذ تبدلت اوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب ، الى نشاط فكري وتقدم اقتصادي وعمران شامل وازدياد مطرد في السكان والامـوال (١٧) .

وقد ساعد على التطور الحضاري في جزيرة صقلية ماتمتعت به الجزيرة من موقع متوسط جعلها ، على رأي بعض الباحثين، بوتقة جمعت كثيرا من مقومات الشرق والغرب . فموقع جزيرة صقلية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقربه من شاطىء افريقية من جهة الجنوب وشاطىء ايطاليا من جهة الشمال جعلها حلقة وصل بين العالم الاسلامي من جهة وبين اوربا من جهة اخرى . وساعد على التطور الحضاري أيضا ما تمتعت به جزيرة صقلية من خيرات كثيرة ورخاء اقتصادي(١٨) ، فازدهرت الحضارة الاسلامية في صقلية ازدهارا كبيرا ، ونافست حضارات الشرق الاسـلامي وحضارة الاندلس .

★ ★ ★

بعد ان استقر المسلمون في جزيرة صقلية بداوا عهد التنظيم والترتيب . فبعد أن كانت الجزيرة مقسمة قسمين أو ولايتين في عهد البيزنطيين وهمـا : بالرمه (بالرمو) وسرقوسة (سيراكوز) ، قسمها المسلمون الى ثلاث ولايات تمشيا مع الوضع الجغرافي للجزيرة . وكان تحت أمرة حاكم كل من هذه الاقاليم الثلاثة طائفة من القواد يحكمون النواحي(١٩) ، وخضع الحكام الثلاثة لوال واحد مقـره مدينـة بلرم التي اتخذها العرب حاضرة لهم .

وكان الوالي في صقلية يخضع للاغالبة في تونس زمن حكم الاغالبة لها وبعد انتقال الحكم الى الفاطميين كان لزاما على الوالي ان يحصل على تقليد الخليفة الفاطمي ، الذي يستمد منه سلطاته الادارية والحربية(٢٠) .

وبالاضافة الى الوالي كان هناك « المفتي » أوقاضي القضاة الذي يقيم في مدينة بالرمو. وكان يوجد في كل مدينة من المدن قاض وكاتب ومستخلص الضرائب أو العشور. وهنالك في بالرمو « مجلس كبير يدعى الديوان » كان من خصائصة ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة(٢١) واتخذ المسلمون بصقلية بعض دواوين الحكم التي كانت سائدة في مصر وفي شمال افريقية ، ومن ذلك ديوان المظالم، وديوان التحقيق وديوان الطـراز(٢٢) .

وشهدت صقلية في ظل الحكم الاسلامي نهضة زراعية وصناعية وتجارية كبرى. ففي مجال الزراعة : تمثلت النهضة في استخدام الاساليب الزراعية الجديـدة وفي استغلال كل أرض صالحة للفلاحة وفي ادخال أنواع جديدة من المزروعات لم تكـن معروفة مـن قبـل .

فقبل الفتح الاسلامي للجزيرة وفي ايام البيزنطيين لم يهتم أهل صقلية سوى بزراعة القمح واستيراد الزيتون والزيت من شمال افريقية(٢٣) . اما المسلمون فقد ادخلوا الى صقلية كثيرا من انواع المحاصيل الزراعية كالبرتقال والليمون والقصب والارز والنخيل والقطن والفستق والكتان والبردى والزعفران والقنب(٢٤) . وترتب على ذلك أن نشأ في صقلية أساليب زراعية جديدة تتلاءم مع بيئتها . فأصبحنا نسمع في كتاب الفلاحة لابن العوام الاشبيلي بما يسمى بطريقة أهل صقلية في زراعة البصل، او عادة اهل صقلية في زراعة القطن(٢٥) هذا فضلا عن التوسع في زراعة بعض المحاصيل القديمة مثل القمح حيث اصبحت حقول القمح والشعير تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

واكثر الناس في صقلية من زراعة الخضروات والفاكهة . وادخل المسلمون الى الجزيرة بعض انواعها فكانت بلرم (بالرمو) عامرة ببساتين الخضروات والفاكهة ، ويذكر المقدسي كثرة الفواكه والخيرات والاعشاب في بلرم وضواحيها . والحق ان خير كتاب لتصوير الحالة الزراعية في صقلية في العصر الاسلامي هو كتاب الادريسي « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » ، فما من بلد أورد ذكرها الادريسي الا واقتـرن اسمها بالبساتين والمياه والمزارع الطيبة ، مثل بلرم وجفلوذ ومسيني او مسينه وقطانية وغيرها . وقد ازدهرت زراعة الورود ايضا ولا سيما البنفسج ذو الرائحة الفائحة العطرة ، والذي انتشرت زراعته حول سنت ماركو(٢٦) .

وقد اهتم المسلمون ايضا بحفر الترع والقنوات ، واقاموا المجاري المعقوفة وكانت غير معروفة قبلهم(٢٧) . كما ازالوا تلك الاشجار غير المثمرة الضخمة التي ملأت جزيرة صقلية وزرعوا مكانها بعض المحاصيل الجديدة التي احضروها معهم من شمال

افريقية ، ونتيجة لاعتناء المسلمين بالثروة الزراعية في صقلية انتعش الانتاج الزراعي انتعاشا كبيرا واصبح بجزيرة صقلية « الخصب والسعة والزروع والمواشي مايفضل على سائر ممالك الاسلام المتاخمة للبحر » واصبحت ايضا كلها خيرات ورياضا وبســاتين .

والى جانب اهتمام المسلمين بالزراعــة في صقلية فقــد نهضــوا بالصناعــة ايضا . فنشطت في صقلية بعض الصناعات القائمة على الانتاج الزراعي ، مثل صناعة قصب السكر كما امتلأت صقلية بمصانع النسيج لنسج الثياب الحريرية والكتانية والقطنية . فقد عام المسلمون أهل صقلية صناعــة الحرير بعد ان ادخلوا دود القز اليها وزادت بالتالي أهمية نساجي الحرير . وقيل أن بعض عباءات من قماش رقيق كانت ترسل من صقلية الى مصر ، خاصة عباءات ابناء الخليفة الفاطمي المعز(٢٨) .

وفي نورمبرج اليوم رداء حرير كان للملوك صقلية وعليه كتابة بحروف كوفيــة يحمل تاريخ سنة ٥٢٠ هـ (١١٣٣) م . وهذا ما يدعو الى الاعتقاد بأن صناعــة الثياب انتقلت من صقلية الى اوربا(٢٩) .

واشتهرت صقلية بنسج الثياب الكتانية الممتازة التي نافست مثيلاتها في مصر والشام ويشير ابن حوقل في كتابه صورة الارض الى ان الثياب الكتانية المصنوعة بصقلية لا نظير لها جودة ورخصا ويباع مستعملها مما يقطع قطعين من الخمسين رباعيا الى ستين رباعيا فيزيد على ما يشترى من امثاله بمصر بالخمسين والستين دينارا كثيرا(٣٠) ويؤكد الرحالة ناصري خسرو هذه الحقيقة بقوله : ويجلبون منها ــ اي من صقلية ــ كتانا رقيقا وثيابا يساوي الثوب منها في مصر عشرة دنانيــر مغربيــة(٣١) .

والى جوار صناعة المنسوجات ، نقل المسلمون الى صقلية صناعة القراطيس أو الطوامير من نبات البردي الذي قاموا بزراعته في صقلية . وذكر ابن حوقل ان بصقلية بقاعا قد غلب عليها زراعة البردي ويصنع منه الطوامير ، واكثره يفتــل حبالا للمراكب واقله يعمل للسلطان منه طوامير لا يزيد على قدر كفايته(٣٢) .

وازدهرت صناعة دبغ الجلود في صقلية ازدهارا كبيرا ويرجع ذلك الى شهرة صقلية بالمواشي كما في اشعار بندار ، وكذلك انواع المعزى . وبعض الماعز الموجودة في صقلية اليوم من ذوات الاذن المتدلية مما يرجح أن العرب هم الذين جاءوا بهــا . وكان للخيول الصقلية شهرة واسعة في العصر البيزنطي اذ كانت تربى بكثرة في

اقطاعات البابا ويستمد منها البابوات خيولهم . ولما دخل المسلمون صقلية دخلتها الخيول العربية ، وطمست شهرة الخيول المحلية . وكذلك جاء المسلمون بالجمل الى صقلية ولكنه انقرض منها(٣٣) .

واهتم المسلمون أيضا بصناعة السفن ، التي قامت على وفرة الخشب والحديد في الجزيرة . ويرجع اهتمام المسلمين بتلك الصناعة الى كثرة الاحتياج اليها ، باعتبارها السلاح الاول لهم سواء في حياتهم الاقتصادية او الحربية . ووجد بجزيرة صقلية اكثر من دار لصناعة السفن(٣٤) . كذلك استخرج المسلمون بعض الثروات المعدنية في صقلية ، منها معدن الفضة ، والنحاس ، والنوشادر ، والكبريت ، ومعدن الصب ، والنفط ، والحديد ، والرصاص ، والذهب . ومن الجدير بالذكر أن الذهب كان يوجد بجبل كبير بصقلية اطلق عليه جبل الذهب ، وقد استخدم المسلمون تلك المعادن في صناعات راقية .

ونتيجة لوفرة الانتاج الزراعي والصناعي واستخراج المعادن ، نشطت حركة التجارة في صقلية نشاطا كبيرا أبان الحكم الاسلامي ، بعد أن بلغت درجة كبيرة من التدهور زمن الحكم البيزنطي واستفاد المسلمون من موقع صقلية الجغرافي ، الذي جعلها تلعب دورا خطيرا في النشاط التجاري في البحر المتوسط . وأصبحت معظم مدنها الساحلية مراكز تجارية هامة ، خاصة تلك المدن التي اشتهرت بسهولة اقلاع السفن منها ورسوها فيها(٣٥) . ومن امثال تلك المدن مدينة مسيني التي قال عنها الادريسي : « السفر منها واليها قصدا ، وهي دار الانشا ، وبها الحط والاقلاع وبها الارساء مع جميع بلاد الروم الساحلية ، وبها تجتمع السفن الكبار ، والمسافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام والقاصدون اليها من جميع الاقطار ، واسواقها رائقة وسمعتها نافقة وقاصدها كثير »(٣٦) .

ونتيجة للعوامل السابقة تبوأت صقلية في العصر الاسلامي قمة النشاط البحري التجاري ، وجابت الاساطيل الاسلامية الصقلية عرض البحر المتوسط حاملة تجارة جميع البلاد المطلة على شواطئه سواء في الشرق أم في الغرب . وقد اشار المقدسي الى انه شاهد كثيرا من التجار الصقليين في موانىء مصر والشام والقسطنطينية وكذلك في موانىء الغرب الاوروبي (٣٧) .

وتنوعت السلع التجارية المجلوبة على سفن صقلية . فمن الشرق حملت التوابل والمنتجات الشرقية الفاخرة ، ثم تعود محملة من صقلية بمختلف منتجاتها سواء أكانت حريرية أو كتانية من الاقمشة المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة أم محملة بالمنتجات

الزراعية والحيوانية ، مثل الجوز والفستق والبندق والجلد المدبوغ . ونقلت سفن صقلية المنتجات الفنية والتحف الخشبية والعاجية والمعدنية والاواني الخزفية والزجاجية من مصر والشام الى اوروبا(٣٨) .

وفي نفس الوقت نشطت الحركة التجارية في داخل الجزيرة نفسها ، وليس ادل على ذلك من امتلاء الاسواق الداخلية بالبضائع والسلع وبالتجار . ويلاحظ انه كان لكل طائفة سوق خاص بها وقد اشار ابن حوقل الى ذلك بقوله : سوق للزباتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة ، واسواق القمح والطرازين والسماكين وطائفة القصابين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجزارين وطائفة من العطارين والدباغين والنجارين(٣٩) .

★ ★ ★

أما عن مظاهر الحياة الثقافية في صقلية في العصر الاسلامي فقد شهدت جزيرة صقلية ابان حكم المسلمين لها ، في عهدي الاغالبة والفاطميين ، نشاطا ثقافيا واسع النطاق . ومن مظاهره انتشار الدين الاسلامي والثقافة الاسلامية واللغة العربية(٤٠) . وقد لاحظ ابن حوقل في كتابه صورة الارض صورتين متلازمتين هما : كثرة المساجد وكثرة المعلمين . وبالنسبة للظاهرة الاولى وهي كثرة عدد المساجد الموجودة في صقلية يقول : وبصقلية من المساجد في مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة من وراء سوريها عامرة اكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وابوابها نيف وثلثمائة مسجد(٤١) . ويعلل ابن حوقل كثرة المساجد بقوله : « كان يحب كل واحد منهم ان يكون له مسجد مقصور عليه ، ولا يحب ان يشاركه فيه اهله وحاشيته ، وربما كان اخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجدا لنفسه ، ويكون جلوسه فيه وحده »(٤٢) وربما كان هذا التعليل صحيحا ، لانه يصور تلك الروح الفردية التي كانت تغلب على الحياة الاسلامية هنالك . كما ان الاكثار من بناء المساجدخير مايقنع بانتصار الجماعة الاسلامية على كل موروث صقلي ، وخير مايطمئن الاذهان الى تثبيت الصبغة الاسلامية في تلك البلاد(٤٣) .

أما بالنسبة الظاهرة الثانية وهي كثرة المعلمين ، فيقول ابن حوقل « الغالب على البلد المعلمون والمكاتب في كل مكان ، وكان في بلرم (بالرمو) نفسها مالا يقل عن ثلاثمائة معلم »(٤٤) . وكان المعلم في هذا العصر شخصية طاغية الاثر في حياة الناس . اما عن نظرة أهل صقلية للعلماء أو للمعلمين فكانوا يرون فيهم « اعيانهم ولبابهم وفقهاءهم ومحصولهم وارباب فتاويهم وعدولهم ويهم عندهم بقول الحلال والحرام ، وتعقد الاحكام وتنفذ الشهادات ، وهم الادباء والخطباء »(٤٥) . وتدل تلك الكثرة من المساجد

والمكاتب أو الكتاتيب والمعلمين على نشاط تعليمي واسع وعلى ان مسلمي صقليــة اهتموا بتنشئة ابنائهم وتثقيف عقولهم . ومما يدل على أنمدارس المساجد والكتاتيب كانت تعج بالتلاميذ المسلمين في صقلية لتلقى مبادىء القراءة والكتابة التي كانت ضرورة لازمة لمن يتصدى لحفظ القرآن الكريم الذي يعتبر أساس الثقافة في البلاد الاسلامية ماذكره الرحالة ابن جبير الذي زار الجزيرة في عام ٥٨٠هـ \ ١١٨٤م : اما المساجد فكثيرة لاتحصى واكثرها محاضر لمعلمي القرآن .

وكانت طريقة التدريس في صقلية على نظام الحلقات بالمساجد ، وهو نظام كان سائدا في مختلف الجوامع في البلاد الاسلامية وتعرف كل حلقة باسم شيخها وتأخذ حظها في الشهرة والشيوع بقدر ما يتمتع به استاذها أو شيخها من حيث علو كعبه في مادته .

وكان يقوم بالتدريس في مدارس الجوامع نخبة من العلماء المتبحرين الصقليين الذين عرفتهم كتب الطبقات والمعاجم ائمة في العلوم الشرعية واللغوية كالقراءات والفقه والحديث والتفسير واللغة والادب والنحو والعروض وتفسير الرؤيا ، وكذلك علوم الاوائل كالطب والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة والتنجيم ، وغيرها من مختلف العلوم والفنون .

وقد شجعت سياسة المسلمين الفاتحين لجزيرة صقلية العلماء والفقهاء على الاقامة بالجزيرة ، كما أن سهولة الاتصال بصقلية ادت الى كثرة عدد من زار صقلية من العلماء والادباء والرحالة من مختلف بلدان العالم المعروف وقتذاك ، في حين كان لاستمرار حكم المسلمين للجزيرة طوال ثلاثة قرون اثر كبير في تعميق الثقافة العربية الاسلامية بها(٤٦) . يضاف الى ذلك أن تبعية جزيرة صقلية لحكم الاغالبة بالقيروان ومن بعدهم للفاطميين بالقيروان ثم مصر كان له اثره في انتقال كثير من المعارف والعلوم من شمال افريقية ومصر الى صقلية وبالعكس صحبة العلماء المتنقلين بين تلك البلاد من جهة ، وصحبة التجار من جهة اخرى ، وكانت النتيجة أن ازدهرت بصقلية مختلف الدراسات الدينية من فقه وحديث وتفسير وقراءات وغيرهما، وعلوم الطب والجغرافيا والكيمياء ، وكذلك انجبت صقلية عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والادباء العارفين بشتى نواحي المعرفة .

ولنتناول بالحديث بعض هذه الدراسات الدينية التي ازدهرت في جزيرة صقلية ، مع ذكر أشهر العلماء والفقهاء والمحدثين الذين انجبتهم الجزيرة أبان الحكـم الاسلامي لها ، وذلك لايضاح مدى ماساهمت به صقلية في مضمار الثقافة العربية الاسلاميــة .

ففي مجال الفقه لم يكن بصقلية مدرسة فقهية من ابنائها الا في اواخر القرن الرابع الهجـري ، حين نجد أمثال أبي بكر الصقلي الفرضي ، الذي كان عليه اعتمـاد الطلبة الصقليين في دراسة الفرائض ، وابي بكر بن ابي العباس الفقيه الذي كان يشتغل بالتدريس ، وكل هؤلاء استمدوا ثقافتهم من اساتذة في صقلية او غيرها ، ثم كان لهم الفضل في تعليم اكبر فقهاء صقلية ومحدثيها في القرن الخامس الهجري خاصة ابن يونس ، وعبد الحق الصقلي والسمنطاري(٤٧) .

وذاعت شهرة ابن يونس ، وعبد الحق والسمنطاري خارج حدود صقلية، فتناول ابن يونس الفرضى المدونة الكبرى لسحنون التنوخي ، واضاف اليها ، وجعل ذلك كتابا كان عليه اعتماد الفقهاء حتى انتقل الكتاب الى المغرب والاندلس .

وكان عبد الحق ايضا اكبر فقيه صقلي احرز شهرة في وطنه وفي خارجه . فقـد قام عبد الحق بالتدريس في صقلية والقيروان ومكة والاسكندرية ، ودرس عليه في القيروان ابن الخياط ، ومحمد بن نعمة الاسدي ، ولقيه بمكة ابن قطري الزبيدي وعبد الرحمن بن المعافرى . وكان من تلامذته ، في صقلية نفسها ، طلبة اندلسيون كما كان فيمن لقيه أثناء رحلاته جماعة من الاندلسيين أيضا . وهذا يظهر الى أي مدى ذاعت شهرة عبد الحق خارج صقلية(٤٨) . وليس لدينا من مؤلفات عبد الحق مايوضح لنا اثره الصحيح في الفقه ، ولعله كان متشددا في احكامه وفتاويه مثل قوله بعدم جواز الصلاة خلف من يظهر في قراءته النـون الخفيفة أو التنوين عند الياء والواو ، وعـد هذا من اللحن قياسا على من يتكلم في الصلاة متعمدا(٤٩) .

أما ثالث المشهورين وهو عتيق السمنطاري ، فقد انصرف الى تدريس الحديث النبوي الشريف وتلقى ثقافته على ابن يونس الفرضي بصقلية ، وسكن بلرم ، أي انه هجر قريته سمنطار ولزم حلقات الدرس في المدينة بلرم . وكانت له رحلة زار فيهـا الحجاز وساح في البلدان من ارض اليمن والشام الى ارض فارس وخراسان ، ولقى بها الكثير من اصحاب الحديث والزهاد ، فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع . وقد الف في الفقه تآليف وصفت بأنها في غاية الترتيب والبيان . وفي عام ٤٦٤ هـ توفي السمنطاري ، وهاجر بعض تلامذته من صقلية الى مصر ، واهمهم عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقري الواعظ(٥٠) .

وتقدمت علوم الحديث والتفسير والقراءات تقدما ملحوظا في صقلية . فالحديث كانت دراسته تدور حول كتاب الموطأ للامام مالك أو ملخصات منه . ومن أشهر علماء الحديث في صقلية عبد الحق الصقلي والسمنطاري . وبرع في التفسير والقراءات

علماء أجلاء اهمهم محمد بن عبد الله المقري الذي اقام في صقلية وكان من اهل القرآن والتفسير . وكان أسد بن الفرات من العلماء البارزين في دولة زيادة الله بن الاغلب . وابن الفرات فقيه مالكي ومحدث ، اصطحب معه الى صقلية رهطا كبيرا من العلماء والفقهاء شاركوا في حركة الانتعاش الثقافي في الجزيرة(٥١) .

★ ★ ★

اما عن علوم الاوائل فقد شهدت صقلية الى جانب الدراسات الدينية انتشارا لعلوم الاوائل وتحدثنا المصادر عن سعيد بن فرحون المعروف بالحمار السرقسطي الذي دخل صقلية بعد محنة اصابته في ايام المنصور بن ابي عامر ، وظل فيها الى أن توفى . وبرع ابن فرحون في اللغة والنحو والموسيقى والمنطق . فهو صاحب رسالة في المدخل الى علوم الاوائل سماها «شجرة الحكمة» ولدينا شواهدنستطيع أن نحكم منها بأن المغاربة عامة والصقليين خاصة ، عرفوا في وقت متأخر كتب ابي حيان التوحيدي ، سواء أكان ذلك بالهجرة الى الشرق أم بارتحال تلك الكتب الى الغرب . فقد كتب أحد أهل صقلية على ظهر كتاب الامتاع « ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا ، وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحفا »(٥٢) .

ولا تمدنا المصادر التاريخية المتداولة بمعلومات وافية عن علوم الطب والفلك والتنجيم في صقلية وقد عنيت بعض المصادر بنسبة الطب الى ابي عبد الله بن الطوبي ، ووصف احيانا بأنه اربى في الطب على نظرائه . وذكره العماد في خريدته فقال : انه كان طبيبا مترسلا وشاعرا ، ومدحه ابن القطاع وأشار الى مهارته الطبية بقوله :

ايها الاستاذ في الطب — واعراب الكلام
لك في النحو قياس — لايساميه مسام
ثم في الطب علاج — دافع الداء العقام

وكان هناك من الاطباء في صقلية من يستعملون بعض العقاقير الطبية أو غير الطبية في العلاج منها الشب والحلتيت والصبر ... الخ(٥٣) .

وبالنسبة لعلم الهندسة ، تخبرنا بعض المصادر ان الكاتب أبا الفضل أحمد بن دابق كان عالما بالهندسة ، وان عمر بن محمد بن الحسن الصوفي كان كاتبا ومنجما ومهندسا .

اما عن انتشار اللغة العربية في جزيرة صقلية فمن المعروف ان اللغة العربية دخلت الجزيرة مع أفواه الفاتحين ، وظلت فترة من الزمن لغة المنتصرين وحدهم ، حتى تطورت الحياة الاجتماعية بالجزيرة ، واعتنق اهلها الاسلام ، واصبحت اللغة العربية لغة رسمية وشعبية في وقت واحد . ومن الجدير بالذكر أن العرب تركوا الفاظا كثيرة من لغتهم في اللغة الصقلية ، ولا تزال عدة اماكن بصقلية تحمل اسماء عربية ولا سيما اسماء القلاع والمراسي والشوارع ، وتبدأ اسماء القلاع بلفظ (قلتا) اي قلعة ومنها ما أصبح اليوم مدنا مثل قلعة النساء وقلعة نيمي وقلعة الحسن ، وكذلك المراسي مثل كلمة مرسى على ، مرسى المينا وغيرها(٥٤) .

واذا تركنا أثار المسلمين في صقلية من الناحية الثقافية ، الى آثارهم في الناحية المعمارية فيجب ان نذكر تلك العبارة التي ذكرها القزويني في كتابه آثار البلاد واخبار العباد « كانت صقلية قليلة العمارة خاملة الذكر الى أن فتحها المسلمون في أيام بني الاغلب » والحق ان القزويني صادق في عبارته هذه الى حد كبير ، فقد ادت هجمات القوط الى خراب صقلية بما كانت تحمله من همجية وعدم تقدير للحضارة . وحاول الاباطرة البيزنطيون امثال قنسطانز الثاني الاهتمام بتلك المدينة وتعميرها ، ولكنه فشل في ذلك واستمرت عمارة صقلية مهملة تماما حتى الفتح العربي لها فأقام بها العرب المباني الفاخرة والقصور العامرة(٥٥) . ومما يؤكد ذلك وصف الادريسي لمدينة بالرم بقوله : « لها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها ، وهي قسمان قصر وربض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد واقليم ، وهو في ذاته على ثلاثة اسمطة ، فالسماط الاول يشتمل على قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار ، والسماطان الباقيان فيها أيضا قصور سامقة ، ومبان فاخرة عالية ، وبهما من الفنادق والحمامات الكثير الكثير ، وبه الجامع الاعظم »(٥٦) . ولنتناول في شيء من التفصيل بعض قصور مدينة بالرم التي بلغت أوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهائها ابان العصر الاسلامي . من تلك القصور: قصر النوارة وقصر العزيز وقصر القبة والقصر الملوكي . أما عن قصر النوارة فهو من أهم اثار بالرم الاسلامية ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمن بن ابي العباس حينما يقول :

نوارة البحرين جامعة المنى   عيش يطيب ومنظر يستعظم

ويقع هذا القصر الشامخ فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث، وقد شاده وبالغ في تزويقه الامير جعفر ، من ملوك بني الحسن بين عامي ٩٩٧ و ١٠١٩م واتخذه هو وخلفاؤه من بعده مكانا للترف والنعيم(٥٧) .

أما « قصر العزيز » فيدعوه الاوربيون لازيزا Laziza وقد شيده ليتخذ منه مقرا لملكه وسلطانه الملك وليم الاول فيما بين سنتي ١١٥٤ ـ ١١٦٦ م بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعماري الاسلامي . « وقصر القبة » وهو على شاكلة قصر العزيز اتم صنعه البناؤون المسلمون حوالي سنة ١١٨٠م ، وقد تحطم اكثره ولم تبق الا بعض جدراته وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد . اما عن « القصر الملوكي » فقد انشأه المسلمون واتخذوه مقرا للحكم والامارة . ثم استقر به ملوك النورمان بعد ذلك ، فزادوا في مساحته واضافوا اليه بواسطة البنائين المسلمين اقساما اخرى ، ولا يزال قائما حتى الآن(٥٨) .

★ ★ ★

على ان الحضارة الاسلامية في جزيرة صقلية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة ، وانما وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها . فعندما دخل النورمان صقلية (١٠٦٠ ـ ١٠٩١ م) تركوا مسينا ، عاصمة الجزيرة قبل الفتح الاسلامي ، واتخذوا مدينة بالرم عاصمة للدولة النورمانية . وعاش النورمان في ظل الحضارة الاسلامية ، ونصبوا انفسهم رعاة وحماة لهذه الحضارة ، الامر الذي ادى الى استمرار الحضارة الاسلامية في عهدهم .

وتحت حكم النورمان عاش المسلمون عيشة المعلم ، واصبح النورمان المتنصرون تلاميذ للعرب المغلوبين واقبلوا على تحصيل الثقافة والعلوم الاسلامية . ومع ذلك فقد آلمت سيادة النورمان على عرب الجزيرة كثيرا من الشعراء امثال الشاعر عبد الجبار بن ابي بكر محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي ، فقد هاله قدوم النورمان الى صقلية الاسلامية فرحل عنها الى اشبيلية ورثاها في شعر قال فيه :

ديار تمشت اليها الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء

ولكن جراح ودموع أولئك الذين بقوا في الجزيرة قد اندملت وجفت ، وخاصة بعد ان اذهلت الحضارة الاسلامية المتنصرين وشعروا بتفوق المسلمين الحضاري عليهم . فقد وجد النورمان انفسهم في بيئة حضارية جديدة ما كانت تجول بخاطرهم فكانوا اينما اداروا وجوههم لا يشاهدون الا الجمال والابهة وحياة اخرى ارفع وارقى من تلك التي كانوا يحيونها من قبل ، هذا الى جانب فن العمارة الاسلامي الذي ابدع فيه الفنانون والمزخرفون المسلمون ، والى جانب لغة وشعر بلغا منزلة ادبية وفنية عالية ، لذلك لا عجب اذا وجدنا النورمان يؤخذون بهذه البيئة الجديدة ويقعون اسراها عن طيب خاطر .

وكان النورمان اسبق من غيرهم الى اقتباس العادات والتقاليد والثقافة الاسلامية رغما من الاتفاقية المبرمة بينهم وبين البابا ، وتقول الكاتبة الالمانيةالدكتورة زيجفريد هونكه في ذلك « وقد اسرع هؤلاء الحكام وغيرهم من سكان صقلية المسيحيين في التحلل من التقاليد المسيحية حتى الطقوس الكنسية وشعروا بالسعادة عندما ساروا في طريق الامراء العرب »(٥٩) .

وقد اقام النورمان في هذه القلاع والقصور على الطراز العربي الاسلامي تحيط بها الحدائق الغناء ، حيث تتدفق فيها الينابيع الصناعية ، كما زخرفوا هذه القصور بالزخارف العربية والمياه المتفجرة من أعلى الكهوف والاقواس المدببة ، ولم يترددوا في تسميتها بأسماء عربية وان يدشنوها باسم الله الرحمن الرحيم حيث تجد على هذه القصور العبارات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم قف ساكنا وتأمل عملا عظيما شامخا .

ويعتبر الملك النورماني روجر الثاني من اشهر ملوك النورمان حبا للثقافة الاسلامية ومشجعا لها ولذلك نجد الملك روجر يتصل بالمسلمين في صقلية ،ويتبادل معهم الرأي والمشورة في اموره ومهام دولته ، بل لقد ذهب الملك روجر الى ان طلب من المسلمين ان يعلموه ما يجهل فتراه يحتفظ بعدد كبير من شعرائهم وعلمائهم في قصره . وكلف عددا منهم بترجمة المصادر العربية واليونانية الى لغته وشارك الملك روجر الثاني في المجادلات التي كانت كثيرا ما تقع بين المسيحيين والمسلمين ، وتعصب الملك للاسلام والمسلمين . والذي حمل الملك النورماني على هذا الموقف اعتقاده كما يروي ابن الاثير في ان المسلمين جديرون بالاحترام والتقدير ، ولذلك صادقهم وحماهم من الافرنج فأحبوه . وقد اشاد به العرب في اشعارهم وخلدوه في مؤلفاتهم وذكروه على انه الحاكم المثالي الذي عرفته العصور الوسطى ، وهو مؤسس الدولة والمشرع والسياسي ، وهو المهتم بالرياضيات والفلك والجغرافيا وعلم الطبيعة . والى المسلمين يرجع الفضل في الحالة الاقتصادية التي كان يعيش فيها الملك روجر والتي مكنته من أن يصبح من أغنى ملوك اوربا ، فالعرب كانوا مهرة في زراعة الارض ونشطوا في المجال الصناعي والبحري وكان لهم نظام مثالي في الاقتصاد والضرائب .

واستدعى روجر الثاني الى بلاطه العالم الجغرافي العربي الكبير ابا عبد الله محمد بن محمد الادريسي (٤٩٣ ـ ٥٦٠ هـ) والادريسي درس في مستهل حياته في قرطبة بالاندلس وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطىء الغربية لانجلترا ،

ثم تحول جنوبا الى افريقيا ورست به الحياة في صقلية وقضى خمسة عشر عاما في بالرم . وقد شارك الملك روجر المتعطش الى العلوم والمعرفة والجغرافية الادريسي في ولعه بالعلوم والمعارف ، وكلف الملك الادريسي برسم خريطة للعالم واخراج كتاب في الجغرافية يفرغ فيه الادريسي ما لديه من معلومات جغرافية نفيسة ، فقام الادريسي بوضع كتابه الجغرافي المشهور الذي يعد من اعظم الاعمال في ميدان الجغرافية ، حتى يذكر العلماء بأن احسن خريطة جغرافية وصلتنا هي تلك التي تركها لنا الادريسي ، وهي محفورة على كرة من الفضة قطرها متران وتزن ثقل رجلين مكتملين ، اما شرحها فعبارة عن هذا الكتاب القيم والمسمى لدى الغربيين باسم « كتاب روجر » نسبة الى الملك روجر والمعروف لدى العرب باسم كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » .

ويذكر لنا الادريسي سبب تأليفه هذا الكتاب بأمر الملك روجر الثاني فيقول : « فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة انه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم اهل دولته واطاعته البلاد الرومية ودخل اهلها تحت طاعته وسلطانه احب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا ، ففي اي اقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، ومعرفة غيرها من البلاد والاقطار في الاقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون ، واثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحتوي عليه ويرجع اليه ... فأحضر اليه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه واخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما اكثر مما في الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة جمعا وافرادا فما اتفق فيه قولهم اثبته وابقاه وما اختلفوا فيه الغاه وأرجأه ... وان يؤلفوا كتابا يصف أحوال البلاد والاراضين في خلقها وبقاعها واماكنها وصورها وبحارها وجبالها وانهارها ... ومزروعاتها وغلاتها واجناس ابنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنبثق بها ، والتجارات التي تجلب اليها وتحمل منها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها ... وذكر احوال اهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم » .

وقد اتم الادريسي هذا العمل العظيم في بلاط الملك روجر الثاني ، ووضع خريطة للعالم على شكل طبق من الفضة ، وهو اول من نادى بكروية الارض في هذه البلاد ، فالذي كان معروفا في كثير من الاديرة ان خريطة العالم عبارة عن قطعة من الارض تحيط بها المياه وفي وسطها تقع الجنة . وخريطة الادريسي تختم هذه القرون

المظلمة ، وهي اول مجهود علمي شخصي . ووصف الادريسي جزيرة صقلية في كتابه فقال : ان جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبا ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من سائر الاقطار والمترددون بين المدن والامصار وكلهم اجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها واعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر المواطن » . وقد اعجب روجر بالادريسي اشد الاعجاب بعد ان انجز له العمل الذي طلب منه واراد ان يبقيه في بلاده قائلا له : « انت في بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندي امنت على نفسك » فاجابه الى ذلك(٦٠) .

ولقد زار ابن جبير الرحالة العربي الغرناطي مدينة بالرم ، وسحرته بمناظرها وحضارتها سنة ١١٨٥ م ولقد ترك لنا في رحلته وصفا دقيقا عن صقلية وبالرم العاصمة وقصرها الملكي والشيء الجدير بالانتباه والذي لفت نظر الرحالة العربي الغرناطي هي تلك الصلة القوية بين الحاكم النورماني ورعاياه المسلمين . فقد كان الرحالة يعتقد انه يزور بلدا يحكمه الافرنج ، الا انه سرعان ما تبين مقدار الثقة العظيمة التي يوليها الملك للمسلمين والمعاملة الحسنة التي يتمتع بها عماله المسلمون فهو كثير الثقة بهم سكن اليهم في أحواله والهام من اشغاله . يقول ابن جبير :

« وكان يشرف على طعامه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين ... وللمسلمين في هذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسوع ، ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والاسواق معمورة بهم وهم التجار ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الاعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي ولهم فيها قاض يرجعون اليه في احكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه واما المساجد فكثيرة لا تحصى يقوم فيها معلمو القرآن بالتدريس لاولاد المسلمين » .

ويقول ابن جبير عن ملك النورمان « وليام الثاني » انه يقرأ ويكتب اللغة العربية وعلامته كما يذكر أحد خدمه المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه « الحمد لله شكرا لانعمه » ويذكر ان الجواري في القصر مسلمات ، ومن أعجب ما حدثه به بعض خدمه وهو يحيى من فتيان الطراز الذي يطرز بالذهب في طراز الملك ، ان الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتصبح مسلمة بواسطة الجواري الموجودات بالقصر ، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير امور عجيبة ومما يذكر ايضا انه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع الا ذاكرا لله ولرسوله صلوات الله وسلامه

عليه من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم : « ليذكر كل احد منكم معبوده » تسكينا لهم ، واما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته فهم مسلمون يصومون الاشهر تطوعا ، ويتصدقون تقربا الى الله ، ويفكون الاسرى ، ويربون الاصاغر ويفعلون الخير ما استطاعوا(٦١) .

ويعتبر الملك المستعرب فردريك الثاني من اشهر الملوك الذين تأثروا بالحضارة الاسلامية ، وفردريك الثاني هو حفيد روجر الثاني نشأ في بالرم يتيما مهملا ثم جلس على عرش صقلية بعد ابن عمه النورماني الملك وليام الثاني . وكان في صغره يتجول حرا بدون رقيب في مختلف الحواري والازقة واحياء الميناء اشباعا لرغبته في المعرفة ، وكان يذهب الى المساجد والاسواق وارصفة الميناء ، كما اختلط بسكان بالرم من المسلمين لذلك شب هذا الملك الطفل وترعرع بين الاثار العربية الاسلامية الجميلة ، وأحجار الفسيفساء البراقة والقلاع العربية الشامخة المتناهية في العظمة وهي وان كانت تحمل اسم الملك روجر ، الا أن العمال والمهندسين المعماريين الذين شيدوها كانوا عربا جنسا وفنا ومعمارا .

ونشأ فردريك الثاني في هذا الوسط العربي الاسلامي لا تقع عينه الا على صور عربية وخلق عربي وحياة عربية ، انها بيئة العروبة ولوحتها الخالدة التي لن ينساها من يشاهدها . وسمع الملك الطفل اغاني العرب في القصور وسمع اذان المؤذنين من اعلى المآذن الذي كان يحدد له نظام يومه . ولما توفيت امه النورمانية ابنة الملك روجر الثاني ساءت حاله ، وكان يأوي الى مواطنيه العرب المسلمين فمدوا له يد المساعدة فكانوا يعولونه ويطعمونه حتى بلغ الطفل السابعة(٦٢) .

وهكذا نجد ان الطبيعة العربية في صقلية هي التي تولت تربية هذا الملك ، الذي اصبح له شأن عظيم ففي ميادين بالرم والمساجد والحوانيت وفي السوق والشوارع كان يتلقى دروسه اليومية في اللغات والتي كانت متداولة في صقلية وكان يتكلم وهو طفل تسع لغات منها اللغة العربية ، ومن الجدير بالذكر ان قاضي المسلمين في بالرم كان يتولى تعليم هذا الشاب المتعطش الى العلم والمعرفة وكان يمده بالكتب العربية ارضاء لرغبته الجامحة الى العلم وتحصيل المعرفة .

والى جانب الثقافة العربية التي تشبع بها فردريك الثاني في صقلية والتي لعبت دورا هاما في حياته نجده تأثر بالطراز المعماري العربي الذي شاهده في الحصون العربية في بلاد الشام اثناء حملته على بيت المقدس والادلة على ذلك المباني التي شيدها في صقلية ، ذلك انه بعد عودته من بلاد الشام كان قد أمر بتحصين مراكز

الدفاع التي تصدعت وتهدمت في صقلية ، هذه المراكز الدفاعية التي ترجع الى العصرين العربي والنورماني ، كما استخدم التصميم العربي في مبانيه الجديدة التي امر بتشييدها ، ووضع خطة جديدة للبناء تطلب انجازها عشرات السنين ، كما اقام في طول البلاد وعرضها شبكة من الحصون اللازمة في الدفاع عن البلاد وادارتها وجميعها قد اخذت عن الحصون العربية في بلاد الشام ، فالتصميم والفن والاقواس المدببة وفتحات السهام كلها عربية ، هذا الى جانب الحيطان المربعة الضخمة وبعض الزخارف التي نشاهدها في مباني فريدريك والتي تبين بوضوح تصميمها العربي ، وكذلك الاسماء المنحوتة عليها تؤيد هذه التأثيرات العربية . ومن صقلية انتشر هذا الطراز العربي للحصون والقلاع ، الذي اقتبسه فردريك الثاني من بلاد الشام الى كافة البلدان الاوروبية(٦٣) .

وبعد ... فليس هناك ابلغ في الدلالة على شغف الامبراطور فردريك الثاني بالحضارة الاسلامية وعلى معرفة كل جديد في العلوم العربية من اعتزازه بالهدية التي قدمها له حليفه الملك الكامل الايوبي (٦٠٤ ــ ٦٣٥) هـ بعد الاتفاق الذي تم بينهما بخصوص مدينة القدس . هذه الهدية هي عبارة عن كرة من النحاس صورت عليها السماء بأبراجها ونجومها وكان قد قام بعملها للملك الكامل الايوبي عالم عربي هو الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف ، ان هذه الهدية تمثل قمة ما وصلت اليه الدراسات الفلكية على يد العلماء المسلمين في النصف الاول من القرن السابع الهجري ، بل تعتبر من اثمن النماذج المادية على تفوق الحضارة العربية . وهي لا تزال حتى يومنا هذا محفوظة في متحف بوجيا بمدينة فليترى بايطاليا(٦٤) .

★ ★ ★

ولعبت صقلية دورا هاما في انتقال الحضارة الاسلامية الى اوروبا . فمن المعروف ان الاستفادة من خلاصة الفكر الاسلامي لم تتم الا عن طريق حركة ترجمة واسعة على يد فريق من المستعربين ، نقلوا فيها كثيرا من المؤلفات العربية الى اللاتينية ، وبذلك امكن لاوروبا الاستفادة على نطاق واسع من انتاج العلماء المسلمين ، وكان أهم مراكز الترجمة عن العربية الى اللاتينية مركزان وهما : الاندلس وصقلية . وكانت الاندلس هي المركز الرئيسي للترجمة من العربية الى اللاتينية فاتجه اليها كثير من اعلام النهضة الاوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي يطلبون الارتواء من فيض العلوم الاسلامية في مختلف العلوم والاداب . اما صقلية فقد اسهمت بنصيب كبير في حركة الترجمة عن العربية ، وساعد صقلية على القيام بهذا الدور موقعها المتوسط بين اوروبا وافريقية فضلا عن دخولها تحت حكم المسلمين فترة طويلة من الزمان ،

ثم احتفاظها بنسبة كبيرة من سكانها المسلمين وبحضارتها العربية في عصر النورمان الذين خلفوا العرب في حكم الجزيرة وقد ترجم في صقلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين كثير من الكتب العربية ، ففي سنة ١١٥٠ م ترجم ايوجونيوس البالرمي كتاب بطليموس السكندري في المرئيات عن اللغة العربية وفي سنة ١١٦٢ م ترجم عن اللغة العربية كتب اخرى في الفلك والرياضيات واشتهر من المترجمين في القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودي المتوفى سنة ١٢٨٥ م وهو من أصل صقلي طلب العلم في سالرنو حيث ترجم كثيرا من كتب العرب الى اللاتينية ، وقد ساعد الامراء والحكام في صقلية في عهد النورمان العلماء والمترجمين وشجعوهم في حركة نقل الكتب الى اللاتينية .

* * *

هوامش البحث

(١) عن جزيرة صقلية انظر : ابن حوقل : صورة الارض ص ١١٣ – ١١٦
ياقوت : معجم البلدان ، الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق (المكتبة الصقلية) ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ق ١ . ص ٢٧٨ .

(٣) البلاذري ، المصدر السابق القسم نفسه والصفحة نفسها ، فازليف : العرب والروم ص ٦٢ – ٦٤ ، صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط ص ٧٤ – ٧٥ ، ابراهيم علي طرخان : المسلمون في أوروبا ص ٥٦–٥٧ .

(٤) احمد توفيق المدني : الاسلام والحضارة العربية ص ٢٥٧ .

(٥) حامد زيان : تاريخ الحضارة الاسلامية في صقلية ص ١٧ .

(٦) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٥٨ – ٥٩ .

(٧) احمد توفيق المدني : نفس المرجع ص ٦٠.

(٨) السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٦٩ .

(٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ١٢٣– ١٢٤ .
حامد زيان : المرجع السابق ص ٢٠ .

(١٠) انظر : النويري نهاية الارب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٧ – ٤٢٨) .
احسان عباس : المرجع السابق ص ٣٢ – ٣٣ .

(١١) ابن الاثير : الكامل جـ ٦ ص ١٢٤ انظر ايضا: محمود اسماعيل عبد الرزاق في الاغالبة (١٨٤ – ٢٩٦ هـ) سياستهم الخارجية ص ١٩٠ – ١٩٢ .

(١٢) ابن عذاري : البيان المعجب في أخبار المغرب (المكتبة الصقلية ص ٣٥٥) وايضا ابن الاثير ص١٢٤

(١٣) النويري : نهاية الارب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٩) .

(١٤) حامد زيان : المرجع السابق ص ٢٦ .

(١٥) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ص ٢٥٨ .

(١٦) محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٣ .
احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩– ٢١٠ .

(١٧) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ١٢٥

(١٨) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٥

(١٩) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩

(٢٠) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢١) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩

(٢٢) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٢

(٢٤) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢١٠، سعيد عاشور النهضات الاوروبية ص٢٢٥ ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٢٣١ .

(٢٥) ابن العوام الاشبيلي : كتاب الفلاح (المكتبة الصقلية ص ٥٤٥ – ٥٤٧) .

(٢٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقليةص ٧٣) .

(٢٧) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ص ٢٢٥ .
محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٣ ، احمد توفيق المدني المرجع السابق ص ٢١١

(٢٨) ارشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٣١ –٢٣٢ ، احسان عباس المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢٩) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢١١، محمد كرد علي المرجع الساق ص ٢٦٣ .

(٣٠) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١٣١ .

(٣١) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣٢) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٣٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣٤) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقليةص ٣٢ – ١١١) .

(٣٥) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٠ – ٥١ .

(٣٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص٣٣ – ٣٤) .

(٣٧) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥١

(٣٨) المرجع السابق ص ٥٢

(٣٩) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١١٩ .

(٤٠) جمال الدين الشيال : في التاريخ (فصل من كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية) ص ٣٧٩ .

(٤١) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٢٠ .

(٤٢) ان حوقل : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٤٤) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٤٥) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٤٦) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ .

(٤٧) احسان عباس : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٤٨) المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤٩) المرجع السابق : ص ١٠١ .

(٥٠) ياقوت الحموي : معجم البلدان (المكتبـــة الصقلية ص ١١٣ - ١١٤) .

(٥١) احسان عباس : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ احمد توفيق المدني : المرجــع السابق ص ٦٢ - ٦٣ .

(٥٢) احسان عباس : المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٥٣) المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٥٤) محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٧١

(٥٥) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٩ - ٦٠ .

(٥٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقليةص ٢٨) .

(٥٧) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٤٢

(٥٨) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٣ .

(٥٩) زيجفريد هونكه : شمس الله على الغرب ص ٣١١ .

(٦٠) انظر : الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية) جمـال الدين الشيـال : في التاريخ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ محمد كرد علي : المرجــع السابق ص ٢٦٨ .

(٦١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧١ عبد القدوس الانصاري : مع ابن جبير في رحلته ص ٢٧٣ .

(٦٢) زيجفريد هونكه : المرجع السابق ص ٣٢٩ .

(٦٣) المرجع السابق ص ٣٥١

(٦٤) بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القـاهرة ، ترجمة وتقديم احمد دراج ص ٩٤ ـ ٩٥ عن العلاقات بين الامبراطور فردريك الثاني والملك الكامل انظر مقال دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربـي المجلـة التاريخية المصرية ، مجلـد ١١ سنة ١٩٦٣ م ص ١٩٥ ـ ٢١٣ .

★ ★ ★